

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية
- كلية القرآن الكريم
قسم التفسير

حديث القرآن عن القلوب ومنهجه في إصلاحها

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية «الماجستير»

إعداد
عادل بن سعد الجهني

إشراف
فضيلة الشيخ الدكتور / محمد عمر دوية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة وشكر

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه ولا أكفره، حمداً كثيراً طيباً ملء السموات وملء الأرض وملء ما شاء ربنا من شىء بعد، وشكراً بعدد نعمه التي لا يحصوها إلا هو سبحانه.

والصلاة والسلام على خير الأنام محمد وعلى آله وصحبه الكرام فتح الله به القلوب وشرح به الصدور فصدق فيه قوله تعالى: (يأيتها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً).^(١) أما بعد:

فإنني أحمد الله العظيم الذي سلك بي طريق العلم الذي هو طريق الأنبياء والمرسلين وأقدم هذا العمل المتواضع شكراً له تعالى ليكون لبنة في بنيان الشاكرين لرب العالمين، ثم أدعو الله عز وجل أن يجزى خيراً كل من علمني حرفاً، وأخص بالذكر هذه الجامعة المباركة والقائمين عليها من أساتذة ومسؤولين ولا يفوتني أن أدعو الله لعلمائنا الأفاضل الذين أفدت من علمهم وجهدهم سابقاً وحاضراً وحسبى أن أقول: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم).^(٢)

وكذلك جزى الله خيراً كل من أعانني على هذا العمل برأى أو إشارة أو جهد وأخص منهم فضيلة الشيخ عبدالله الغيمان الذي كان له الفضل بعد الله عز وجل في وضع خطة هذا البحث.

ثم أتقدم بالشكر العميق والدعاء الجزيل لشيخى الجليل فضيلة الشيخ محمد عمر حويه المشرف على هذه الرسالة الذي أولاني من عنايته الشىء الكثير وزين بحثي بملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة.

(١) الآيتان (٤٥-٤٦) من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ١٠ من سورة الحشر.

سبب اختيار الموضوع

لقد خلق الله القلب ليعقل به صاحبه الحق ومن ثم يستخدمه فيما خلق له وبناء على هذا الاستعمال تكون السعادة في الدنيا والآخرة أو يكون الشقاء فيهما والقلب هو ملك الأعضاء المتصرف فيها إن صلح صلت وإن فسد فسدت.^(١)

ولذلك فقد اهتم به اهتماماً عظيماً في الكتاب والسنة، ومن أجل ذلك تآقت نفسي وتشوق قلبي لبحث هذا الموضوع الذي يكشف عن خبايا القلوب ويزنها بميزان الشرع العادل.

ويمكن تلخيص أسباب الاختيار في النقاط التالية:

أولاً: أهمية هذا الموضوع وترتب السعادة أو الشقاوة الأبدية عليه.
ثانياً: أن هذا الموضوع لا أعلم من كتب فيه كتابة مستقلة وإفية جمع فيها جميع أطرافه على منهج علمي وسلفي قويم وإن كانت بعض جوانبه قد حظيت بذلك.

ثالثاً: إشارة بعض إخواني على بذلك وتأييد أساتذتي الكرام.

(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب".
أخرجه البخارى في صحيحه ٣٤/١ كتاب الإيمان (٢) باب فضل من استبرأ لدينه (٣٩) رقم الحديث (٥٢) ومسلم في صحيحه ١٢١٩/٣-١٢٢٠ كتاب المساقاة (٢٢) باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٢٠) رقم الحديث (١٥٩٩/١٠٧).

خطة البحث

قسمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة وذلك على النحو التالى:

المقدمة: وتشتمل على المطالب التالية:

المطلب الأول: توطئة وشكر.

المطلب الثانى: سبب اختيار الموضوع.

المطلب الثالث: خطة البحث.

المطلب الرابع: منهجى فى الرسالة.

التمهيد: ويشتمل على المطالبين التاليين:

المطلب الأول: تعريف القلب والمراد به فى الكتاب والسنة.

المطلب الثانى: علاقة القلب بالعقل.

الباب الأول: حديث القرآن عن القلب السليم. وفيه فصلان:

الفصل الأول: أوصاف القلب السليم. وفيه اثنان وثلاثون مبحثاً:

المبحث الأول: الهداية.

المبحث الثانى: العلم.

المبحث الثالث: العبودية.

المبحث الرابع: الإيمان.

المبحث الخامس: اليقين.

المبحث السادس: المحبة.

المبحث السابع: الرجاء والخوف.

المبحث الثامن: الوجل.

المبحث التاسع: الخشوع.

المبحث العاشر: الإخبات.

المبحث الحادى عشر: الإنابة.

- المبحث الثاني عشر: التقوى .
المبحث الثالث عشر: المراقبة .
المبحث الرابع عشر: الحياء .
المبحث الخامس عشر: الصدق .
المبحث السادس عشر: التوكل .
المبحث السابع عشر: الشكر .
المبحث الثامن عشر: الاعتصام .
المبحث التاسع عشر: الرأفة والرحمة .
المبحث العشرون : الاستقامة .
المبحث الحادى والعشرون: الإيثار .
المبحث الثانى والعشرون: الصفاء .
المبحث الثالث والعشرون: الفرح .
المبحث الرابع والعشرون: الغيرة .
المبحث الخامس والعشرون: التواضع .
المبحث السادس والعشرون: الطهر .
المبحث السابع والعشرون: السلامة .
المبحث الثامن والعشرون: الاطمئنان .
المبحث التاسع والعشرون: اللين .
المبحث الثلاثون: الصبر .
المبحث الحادى والثلاثون: الربط .
المبحث الثانى والثلاثون: الإخلاص .

الفصل الثانى: أسباب سلامة القلب . وفيه تمهيد، وأربعة مباحث:
المبحث الأول: إرادة الله تعالى الكونية وفضله ومنتته على أصحاب
القلوب السليمة .

المبحث الثاني: سلامة العقيدة.

المبحث الثالث: تحقيق الخوف من الله جل وعلا.

المبحث الرابع: شعائر الإسلام وعباداته الظاهرة.

الباب الثاني: حديث القرآن عن القلب المريض. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: نوعية أمراض القلوب. وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: مرض لا يتألم به صاحبه في الحال.

المبحث الثاني: مرض يتألم به صاحبه في الحال.

الفصل الثاني: أسباب مرض القلب. وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: أسباب عامة.

المبحث الثاني: أسباب خاصة.

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة أمراض القلب. وفيه تمهيد

وأربعة مباحث:

المبحث الأول: غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب.

المبحث الثاني: الدعوة إلى الشمول والتوازن في حياة المسلم.

المبحث الثالث: التربية القرآنية للقلب المريض عن طريق الترغيب

والترهيب.

المبحث الرابع: التربية بالقدوة وضرب المثل.

الباب الثالث: حديث القرآن عن القلب الميت. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أوصاف القلب الميت. وفيه خمسة عشر مبحثاً:

المبحث الأول: الزيف.

المبحث الثاني: النفاق.

المبحث الثالث: الريب.

المبحث الرابع: الإنكار.

المبحث الخامس: الاشتمُّاز.

المبحث السادس: الرعب.

المبحث السابع: التحسر.

المبحث الثامن: النجاسة.

المبحث التاسع: التثتت.

المبحث العاشر: الطبع والختم والرين والكن والقفل والتغليف.

المبحث الحادى عشر: القسوة.

المبحث الثانى عشر: العمى.

المبحث الثالث عشر: الغفلة.

المبحث الرابع عشر: الكبر.

المبحث الخامس عشر: الغل للمؤمنين.

الفصل الثانى: أسباب موت القلب. وفيه تمهيد وستة مباحث:

المبحث الأول: الكفر.

المبحث الثانى: الزيف.

المبحث الثالث: الجهل وعدم الفقه.

المبحث الرابع: إخلاف وعد الله عز وجل.

المبحث الخامس: الكبر.

المبحث السادس: اتباع الهوى.

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم فى معالجة القلب الميت. وفيه تمهيد

وخمسة مباحث:

المبحث الأول: غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة فى القلوب الميتة.

المبحث الثانى: العلاج عن طريق الترغيب والترهيب.

المبحث الثالث: العلاج بضرب المثل.

المبحث الرابع: التأثير على القلب الميت عن طريق الإعجاز القرآنى.

المبحث الخامس: الدعوة إلى إحياء القلوب الميتة بالرجوع إلى الله

عز وجل والبشارة بإمكانية ذلك.

الخاتمة: وسأذكر فيها بإذن الله عز وجل أهم النتائج التى توصلت إليها.

منهجى في الرسالة

هذا وقد سرت في هذه الرسالة على المنهج التالى:

أولاً: عزو الآيات إلى سورها مع ذكر أرقامها.

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك وإلا خرجته من الكتب الستة ومسند الإمام أحمد أو بعضها مع ذكر من صححه أو ضعفه من الأئمة المتقدمين أو المتأخرين حسب الجهد والطاقة.

ثالثاً: تخريج الآثار الواردة.

رابعاً: ترجمة الأعلام.

خامساً: قمت بشرح الكلمات التى أرى أنها تحتاج إلى ذلك.

سادساً: قمت بإحالة كل كلام نقلته إلى مصدره ومرجعه وذلك بزيادة كلمة (انظر) للإحالة إذا كان الكلام بالمعنى وبذكر المرجع فقط إن كان الكلام حرفياً.

سابعاً: قمت بعمل فهرس لكل من الآيات والأحاديث والآثار والأعلام المترجم لهم والألفاظ الغريبة المشروحة في الهامش والأشعار والمراجع والموضوعات.

هذا وما كان من صواب فيفضل الله وتوفيقه ، وما كان من خطأ فمن

نفسى والشيطان، والله ورسوله منه بريئان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المطلب الأول

تعريف القلب والمراد به في الكتاب والسنة

القلب في اللغة: تحويل الشيء عن وجهه، قلبه يقلبه قلباً وقد انقلب، وقلب الشيء وقلبه: حوله ظهراً لبطن.^(١)

قال بعضهم: سمى القلب قلباً لتقلبه^(٢) أى لتقلبه من حال إلى حال فمن موت ومرض إلى سلامة وعافية، ومن حزن وهم وغم إلى فرح وسرور وانتراح وهكذا.

والقلب يطلق لمعنيين:^(٣)

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل المودع في صدر الإنسان وفي باطنه تجويف يجري فيه دم الإنسان بشكل مخصوص، وهذا مايتعلق به غرض الأطباء، ولسنا بصدد ذكر ذلك في هذه الرسالة.

الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب الجسماني وهذه اللطيفة هي المدركة العالمة العارفة من الإنسان.

ولا تستطيع العقول البشرية أن تدرك علاقة هذه اللطيفة بالقلب الجسماني ولا كيفيتها كما هو الشأن في الروح.

والمراد بالقلب في الكتاب والسنة: المعنى الثاني لأنه بالمعنى الأول قطعة لحم دلت التجارب الطبية على إمكانية نقله من إنسان إلى آخر، أو الاستغناء عنه واستبداله بقطعة اصطناعية مع بقاء المعارف والأوصاف والعقائد القلبية من غير تغير عند من يفعل بهم ذلك، إلا أن له تعلقاً

(١) اللسان عند مادة (قلب) ٦٨٥/١، وانظر القاموس المحيط عند مادة قلب ص ١٦٢

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ١٧٣/٩

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٤/٣، روضة التعريف بالحب الشريف ص ١١٠-١١١

خاصاً بالقلب الإنساني عجزت العقول عن إدراكه، وقد دلت على هذه العلاقة نصوص منها:

قوله تعالى: (فإنها لاتعمى الأبصر ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).^(١) والتي في الصدر هي تلك المضغة من اللحم.

وأصرح دلالة من هذه الآية على ما ذكرت من العلاقة بين القلب المدرك والقلب الإنساني ماورد في حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أنس بن مالك^(٢) رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره)^(٣) فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستبقوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.^(٤)

-
- (١) جزء من الآية ٤٦ من سورة الحج.
- (٢) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدني خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلميذه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً علماً جماً، صحب النبي صلى الله عليه وسلم أتم الصحبة ولازمه أكمل الملازمة منذ هاجر إلى أن مات، وغزا معه غير مرة وباع تحت الشجرة، مات سنة ٩٣ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٣/٣٩٥، شذرات الذهب ١/١٠٠-١٠١.
- (٣) الظئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له. اللسان عند مادة (ظأر) ٤/٥١٤.
- (٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٤٧ كتاب الإيمان (١) باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات (٧٤) رقم الحديث (٢٦١).

المطلب الثانى

علاقة القلب بالعقل

قبل أن أذكر علاقة القلب بالعقل لابد من تعريف العقل وبيان المراد به.

فالعقل في اللغة: الحبس والمنع وقد سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أى يحبسه. (١)

وأما المراد به فقد كثر الخوض فيه. (٢)

فقليل: هو قوة يفرق بها بين حقائق المعلومات.

وقيل: هو مادة وطبيعة.

وقيل: هو جوهر بسيط.

وقيل: هو عرض يخالف سائر العلوم والأعراض.

وقيل: هو جملة العلوم الضرورية.

وقيل: هو ماحسن معه التكليف.

ونقل عن أحمد (٣) رحمه الله أنه قال: "العقل غريزة وحكمة

(١) انظر اللسان عند مادة (عقل) ٤٥٨/١١ - ٤٥٩

(٢) انظر العدة في أصول الفقه لأبي يعلى ٨٣/١ إلى ٨٨، كشف الأسرار عن أصول اليزدوى ٣٩٤/٢، شرح الكوكب المنير ٧٩/١ إلى ٨٢، التمهيد لأبي الخطاب ٤٣/١ وما بعدها.

(٣) هو الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي ثم البغدادي، أحد الأئمة الأعلام طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة في العام الذى مات فيه مالك وحماد بن زيد، عدة شيوخه الذين روى عنهم في المسند مئتان وثمانون ونيف، صاحب المذهب والتصانيف، من تصانيفه المسند وكتاب الزهد، امتحن في خلق القرآن فنصر الله به السنة،

توفى عام ٢٤١هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٧٧/١١، شذرات الذهب ٩٦/٢ - ٩٨

وفطنة". (١)

وقال أبو الحسن التميمي (٢) "ليس بجسم ولا عرض وإنما هو نور في

القلب". (٣)

وقال البربهاري: (٤) "ليس العقل باكتساب وإنما هو فضل من الله" (٥)

والذى عليه جمهور الحنابلة أن العقل بعض العلوم الضرورية. (٦)

والذى يظهر لي أن العلوم الضرورية أو بعضها إنما هي من المعقول

وليست هي العقل، وأما تحديد ماهية العقل فهو أمر غير ممكن كما هو

الشأن في الروح إلا أننا نعرف بعض أوصافه كالقدرة على التفريق بين

حقائق المعلومات، وكونه غريزة وكونه ينمى عن طريق العلم وكونه

يحسن معه التكليف وغير ذلك. والله تعالى أعلم.

وأما علاقة القلب بالعقل فإن من أهل العلم من يقول: إن العقل في

(١) ذكره أبو يعلى في العدة وعزاه لكتاب العقل لأبي الحسن التميمي عن طريق

إبراهيم الحربي عن أحمد رحمه الله تعالى. العدة لأبي يعلى ٨٥/١-٨٦

(٢) هو عبدالعزيز بن الحارث بن أسد أبو الحسن التميمي من علماء الحنابلة، صنف

في الأصول والفروع والفرائض، وضع حديثاً أو حديثين في مسند أحمد،

وروى الخطيب عن عمر بن المسلم أن عبدالعزيز هذا اعترف بحضرته بوضع

حديث. نساء الله العافية، توفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة من الهجرة. انظر

طبقات الحنابلة ١٣٩/٢، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة

٨٠/١

(٣) التمهيد لأبي الخطاب ٤٤/١

(٤) هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري شيخ الحنابلة بالعراق حمل راية

الإنكار على أهل البدع والمباينة لهم باليد واللسان، وكان له صيت عند

السلطان، له مصنعات منها: شرح السنة، توفي عام ٣٢٩ هـ. انظر طبقات الحنابلة

١٨/٢، شذرات الذهب ٣١٩/٢

(٥) العدة لأبي يعلى ٨٤/١-٨٥

(٦) انظر المسودة ص ٥٥٨، والتمهيد لأبي الخطاب ٤٥/١

القلب وهذا هو قول الحنابلة.

وروى عن أحمد أنه قال: محله الرأس. (١)

وأشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله هو في الدماغ. (٢)

وهذا القول هو قول قوم من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله. (٣)

والذى تؤيده الأدلة هو القول الأول، قال تعالى: (إن في ذلك

لذكرى لمن كان له قلب) (٤) وأريد به العقل فدل على أن القلب محله لأن

العرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان بسبب منه. (٥)

وقال تعالى أيضاً: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون

بها أو آذان يسمعون بها). (٦)

وهذه الآية تدل على أن محل العقل في القلب ومحل السمع في

الأذن. (٧)

قال أبو الحسن التميمي: والذى نقول به إن العقل في القلب يعلو

نوره إلى الدماغ فيفيض منه إلى الحواس ماجرى في العقل. (٨)

ولعل قول أبي الحسن رحمه الله يجمع القولين والله تعالى أعلم.

(١) كما ذكر ذلك أبو يعلى في العدة ٨٩/١-٩٠

(٢) كما ذكر ذلك الإمام الجراعي في شرح مختصر أصول الفقه، رسالة ماجستير ١٠٠/١

(٣) انظر المسودة ص ٥٥٩

(٤) جزء من الآية ٣٧ من سورة ق

(٥) انظر العدة لأبي يعلى ٩٠/١

(٦) جزء من الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٧) وهو قول صاحب الفضيلة العلامة محمد الأمين الشنقيطى. انظر أضواء البيان

٧١٥/٥

(٨) انظر العدة لأبي يعلى ٨٩/١

الباب الأول حديث القرآن عن القلب السليم

وفي هذا الباب فصلان:

الفصل الأول: أوصاف القلب السليم.

الفصل الثاني: أسباب سلامته.

الفصل الأول

أوصاف القلب السليم

وفي هذا الفصل اثنان وثلاثون مبحثاً:

- | | |
|-------------------------------|------------------------------------|
| المبحث الأول : الهداية. | المبحث السابع عشر: الشكر. |
| المبحث الثاني: العلم. | المبحث الثامن عشر: الاعتصام. |
| المبحث الثالث: العبودية. | المبحث التاسع عشر: الرأفة والرحمة. |
| المبحث الرابع: الإيمان. | المبحث العشرون: الاستقامة. |
| المبحث الخامس: اليقين. | المبحث الحادى والعشرون: الإيثار. |
| المبحث السادس: المحبة. | المبحث الثانى والعشرون: الصفاء. |
| المبحث السابع: الرجاء والخوف. | المبحث الثالث والعشرون: الفرح. |
| المبحث الثامن: الوجل. | المبحث الرابع والعشرون: الغيرة. |
| المبحث التاسع: الخشوع. | المبحث الخامس والعشرون: التواضع. |
| المبحث العاشر: الإخبات. | المبحث السادس والعشرون: الطهر. |
| المبحث الحادى عشر: الإنابة. | المبحث السابع والعشرون: السلامة. |
| المبحث الثانى عشر: التقوى. | المبحث الثامن والعشرون: الاطمئنان. |
| المبحث الثالث عشر: المراقبة. | المبحث التاسع والعشرون: اللين. |
| المبحث الرابع عشر: الحياء. | المبحث الثلاثون: الصبر. |
| المبحث الخامس عشر: الصدق. | المبحث الحادى والثلاثون: الربط. |
| المبحث السادس عشر: التوكل. | المبحث الثانى والثلاثون: الإخلاص. |

المبحث الأول

الهداية

الهدى بضم الهاء وفتح الدال: الرشاد، والدلالة وقد هداه هدى وهدياً وهداية وهدية بكسرهما: أرشده. (١)

والهداية دلالة بلطف ومنه الهدية، فإن قيل كيف جعلت دلالة بلطف والله تعالى يقول: (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) (٢) ونحوها من الآيات قيل إن ذلك على سبيل التهكم. (٣)

وقد خص ما كان دلالة بهدیت وما كان إعطاء بأهدیت نحو أهدیت الهدية وهدیت إلى البيت. (٤)

والهداية مطلب عظيم تتطلع إليه القلوب وتتشوق إليه الأنفس، فما أعطى أحد عطاءً أغلى من الهداية وما حرم أحد خيراً أعظم من حرمانها، من يهده الله فقد فاز ورشد ومن يحرمه إياها فقد ضل وغوى.

وهداية القلب مطلب إيماني عظيم لايهبه الله عز وجل إلا لعباده المؤمنين قال تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه). (٥)

قال ابن عباس (٦) رضي الله عنهما قوله: "ومن يؤمن بالله يهد قلبه"

(١) انظر لسان العرب مادة (هدى) ٣٥٣/١٥-٣٥٤، والقاموس المحيط مادة (هدى) (ص ١٧٣٣).

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة الصافات.

(٣) انظر المفردات عند مادة (هدى) (ص ٥٣٨).

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) جزء من الآية ١١ من سورة التغابن.

(٦) هو: عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم الصحابي ابن الصحابي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حبر الأمة وترجمان القرآن توفي بالطائف سنة

"يعنى لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه". (١)
 وقال علقمة بن قيس (٢) رحمه الله تعالى "هو الرجل يصاب بالمصيبة
 فيعلم أنها من الله فيسلم ذلك ويرضى". (٣)
 وقال ابن جرير (٤) رحمه الله عند هذه الآية: ومن يصدق بالله فيعلم
 أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك "يهد قلبه" يقول: يوفق قلبه
 بالتسليم لأمره والرضا بقضائه. (٥)
 وقال الفخر الرازي: (٦) "يهد قلبه" أى عند المصيبة أو عند الموت أو
 المرض أو الفقر أو القحط (٧) ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم

- (١) رواه ابن جرير رحمه الله في تفسيره ١٢٣/٢٨
 (٢) هو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك بن علقمة بن سلامان النخعي أبو شبل
 فقيه الكوفة وعالمها، روى عن أبي بكر وعمر ومن بعدهما ولازم ابن مسعود،
 مات سنة إحدى وستين وقيل غير ذلك، وله تسعون سنة ذكره ابن حجر في
 الإصابة. انظر سير أعلام النبلاء ٥٣/٤، الإصابة ١١٠/٣-١١١
 (٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢٣/٢٨، وعبدالرزاق في التفسير ٢٩٥/٢
 (٤) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العلم المجتهد أبو جعفر الطبري من
 أهل آمل طبرستان له الكتاب المشهور في أخبار الأمم وتاريخهم وله كتاب
 (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وكتاب سماه (تهذيب الآثار) وكان ثقة
 حافظاً صادقاً إماماً في التفسير والفقه والتاريخ وأيام الناس والقراءات واللغة
 وغير ذلك، توفي سنة عشر وثلاثمائة من الهجرة رحمه الله تعالى. انظر سير
 أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ حتى ٢٨٢، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ إلى ١٦٩
 (٥) جامع البيان ١٢٣/٢٨
 (٦) هو: محمد بن عمر بن الحسين الإمام فخر الدين الرازي القرشي البكري، المفسر
 المتكلم صاحب التصانيف الكثيرة التي منها تفسيره مفاتيح الغيب والذي يعتبر
 مرجعاً للعقيدة الأشعرية، وكتاب المحصول وغيرها، وقد رجع إلى عقيدة السلف
 في آخر حياته كما نقل ذلك عنه توفي عام ستة وستمائة بهراة. طبقات المفسرين
 للسيوطي (ص ١٠٠) طبقات المفسرين للدوادى ٢١٥/٢
 (٧) القحط: احتباس المطر. القاموس المحيط عند مادة (قحط) (ص ٨٨٠).

لقضاء الله تعالى ويسترجع^(١) فذلك قوله "يهد قلبه" أى للتسليم لأمر الله ونظيره قوله تعالى: (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون). (٢)(٣)
قال صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها". (٤)

ويرى العلامة السعدى^(٥) رحمه الله أن لقوله تعالى: "ومن يؤمن بالله يهد قلبه" مقامين، مقاماً خاصاً ومقاماً عاماً، فالخاص في مقام المصائب وذلك أن العبد إذا أصابته مصيبة في النفس أو المال أو الأحباب هل سيقوم بالوظيفة التى عليه في هذا المقام أم لا يقوم فإن قام بها فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله فرضي بذلك وسلم لأمره هدى الله قلبه فاطمأن ولم يتزعج عند المصائب

(١) الاسترجاع عند المصيبة: قول (إنا لله وإنا إليه راجعون) القاموس المحيط مادة (رجع) (ص ٩٣١).

(٢) آيه ١٥٦ و ١٥٧ من سورة البقرة.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٦/٣٠

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٦٣٢-٦٣١/٢ كتاب الجنائز (١١) باب ما يقال عند المصيبة (٢) حديث رقم (٩١٨/٣).

(٥) هو: العلامة الفقيه الأصولى الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدى من بنى تميم ومن أبرز تلامذته فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله وله مؤلفات عديدة منها تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان وتوضيح الكافية الشافية لابن القيم وغير ذلك توفي رحمه الله سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة. انظر روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للشيخ محمد بن عثمان القاضى ٢١٩/١، علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ

كما يجرى ممن لم يهد الله قلبه بل يرزقه الله الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل مع ما يدخر له يوم الجزاء من الأجر العظيم كما قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (١) وإن لم يقم بالوظيفة التي عليه في هذا المقام بل وقف مع مجرد الأسباب فإنه سيخذل، وسيكفه الله إلى نفسه، وإذا وكله الله إلى نفسه فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرط في واجب الصبر.

وأما المقام العام فإن الله تعالى أخبر أن كل من آمن أي الإيمان بالمأمور به وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره (٢) وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته. (٣) فإن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله وفي علمه وعمله وهذا أفضل جزاء يعطيه الله

(١) جزء من الآية ١٠ سورة الزمر.

(٢) كما جاء ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور وفيه "قال: يا رسول الله! ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله، قال: صدقت" رواه البخاري في صحيحه ٣٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٣٧) الحديث رقم (٥٠) ومسلم في صحيحه ٤٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) الحديث رقم (١٠/٧).

(٣) لوازم الإيمان وواجباته هي الأعمال التي شرعها الله تعالى وأوجبها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (سورة الأنفال: ١) وقوله صلى الله عليه وسلم في عدد من الأحاديث: "لا يؤمن أحدكم حتى...." انظر كتاب الإيمان من (ص ١١) إلى (١٤).

ومؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب القسم الثالث الفتاوى المسألة رقم ١٣

لأهل الإيمان كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثبات القلب وصبره ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: (يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(١) فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات وذلك لما معهم من إيمان.^(٢)

ومما سبق يتضح لنا أن هداية القلب المشار إليها بقوله تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد الله قلبه)^(٣) قد فسرها السلف بعدة معان.^(٤)

والذي يظهر لي أن أولى الأقوال هو قول ابن جرير رحمه الله تعالى وهو أن الهداية المقصودة في هذه الآية هي توفيق القلب إلى التسليم لأمر الله والرضا بقضائه.

وهذا المعنى هو الذى ذهب إليه الراغب^(٥) رحمه الله في المفردات.^(٦) والفيروز آبادي^(٧) في بصائر ذوي التمييز.^(٨)

- (١) جزء من الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.
- (٢) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٣٤/٨-١٣٥.
- (٣) جزء من الآية ١١ من سورة التغابن.
- (٤) وهى المعاني التى سبق ذكرها آنفاً عن ابن عباس وعلقمة بن قيس رضى الله عنهما وعن ابن جرير والرازى والسعدى رحمهم الله تعالى.
- (٥) هو: العلامة الماهر أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني الملقب بالراغب من مصنفاته كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة والمفردات في غريب القرآن، توفي في السنة الثانية بعد الخمسمائة من الهجرة. انظر سير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨، معجم المؤلفين ٥٩/٤.
- (٦) المفردات عند مادة (هدى) ص ٥٣٨.
- (٧) هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر أبوطاهر مجد الدين الشيرازي الفيروز آبادي من أئمة اللغة والأدب والحديث والتفسير توفي في الزيد سنة ٨١٧هـ، أشهر كتبه القاموس المحيط، المغانم المطابة، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. انظر البدر الطالع (٢٨٠/٢) وكشف الظنون ١٦٥٧.
- (٨) بصائر ذوي التمييز ٣١٤/٥.

وأما ما ذكره السلف من معانٍ أخرى فإنما هو ذكر لثمرات هذه الهداية والله أعلم، واعلم أن الهداية أربعة أضرب^(١) وهى كالتالى:

الضرب الأول: الهداية التى عم بها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية بل عم بها كل شىء للقيام بما يصلح حاله كما قال تعالى: (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى)^(٢) وقال تعالى: (والذى قدر فهدى)^(٣)

الضرب الثانى: هداية الإرشاد والبيان وهى التى جعل الله للناس بدعائه إياهم على السنة رسله ومن أجلها أنزل الكتب، وهى المقصودة بقوله تعالى: (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)^(٤) وهذا الضرب من الهداية لا يستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرطاً فيه أو جزء سبب وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضى^(٥) إما لعدم كمال السبب أو لوجود المانع ولهذا قال تعالى: (وأما ثود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)^(٦)

الضرب الثالث: هداية التوفيق والإلهام وهى أخص من التى قبلها وهى المعنية بقوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتد)^(٧) وبقوله تعالى: (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)^(٨) وهذا النوع من الهداية

(١) انظر شفاء العليل من ص ٦٥ إلى ٨٥، بصائر ذوى التمييز ٣١٣/٥-٣١٤

(٢) سورة طه آيه ٥٠

(٣) سورة الأعلى آيه ٣

(٤) جزء من الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٥) المراد بالمقتضى: الهداية التى يقتضيها إرسال الرسل وإنزال الكتب.

(٦) جزء من الآية ١٧ من سورة فصلت.

(٧) جزء من الآية ١٧ من سورة الكهف.

(٨) جزء من الآية ٥٦ من سورة القصص.

خاص بالله عز وجل وحده.

الضرب الرابع: الهداية إلى الجنة أو النار يوم القيامة، قال تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم).^(١)

وقال تعالى: (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا).^(٢) فالأولى هداية إلى النار والثانية هداية إلى الجنة.

وهذه الهدايات الأربع بعضها رتب على بعض فإن من لم تحصل له الأولى لم تحصل له الثانية، ومن لم تحصل له الثانية لم تحصل له الثالثة والرابعة.

ومما يحسن ذكره أن ماسياتي من أوصاف حميدة للقلب المؤمن كالاطمئنان والسكينة والوجل والإخبات وغير ذلك إنما هو من ثمرات هداية التوفيق وإنما أفردتها بالذكر للأمور التالية:

أولاً: أن هذه الأوصاف قد ذكرت بالتفصيل في كتاب الله عز وجل.

ثانياً: حتى أستوعب بقدر الإمكان عند كل وصف ما قيل فيه.

ثالثاً: لأن القلب المهتدى قد يتصف ببعضها دون البعض الآخر تبعاً

لدرجة هدايته.

والله ولي التوفيق.

(١) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة الصافات.

(٢) جزء من الآية ٤٣ سورة الأعراف.

المبحث الثاني

العلم

العلم تقيض الجهل^(١) وهو إدراك الشيء بحقيقته وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء.

والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه.

فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد نحو قوله تعالى: (لاتعلمونهم الله يعلمهم)^(٢) والثاني هو المتعدي إلى مفعولين نحو قوله تعالى: (فإن علمتموهن مؤمنات)^(٣)(٤).

والعلم إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعها في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليها فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدودة عليه سبل الهدى والفلاح مغلقة عنه أبوابها، ولم يمهله عنه الإقطاع الطريق ونواب إبليس وشرطه.

فالعلم هاد والحال الصحيح مهتد به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووراثتهم.^(٥) وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور،

(١) اللسان عند مادة (علم) ٤١٧/١١

(٢) جزء من الآية ٦٠ سورة الأنفال.

(٣) جزء من الآية ١٠ سورة الممتحنة.

(٤) المفردات مادة (علم) ص ٣٤٣

(٥) كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه "إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يرثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر" رواه أحمد في المسند واللفظ له ١٩٦/٥، وأبو داود في السنن ٥٨-٥٧/٤ كتاب العلم (١٩) باب الحث على طلب العلم (١) الحديث (٣٦٤١)

والترمذي في السنن ٤٨/٥-٤٩ كتاب العلم (٤٢) باب ماجاء في فضل الفقه ==

وررياض العقول ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال. به يعرف الله، ويعبد، ويذكر، ويوحد، ويحمد، ويمجد. به اهتدى إلى الله السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضى الحبيب وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو صاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكتزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

طلبه قربة وبذله صدقة والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

وقد استشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به وهو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته^(١) وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.^(٢)

(=) على العبادة (١٩) الحديث (٢٦٨٢) وابن ماجه في السنن ٨١/١ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (١٧) الحديث (٢٢٣).
وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع ١٠٧٩/٢ الحديث (٦٢٩٧-٢١١٧).

(١) كما في قوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (١٨- آل عمران).

(٢) انظر مدارج السالكين ٤٦٤/٢ - ٤٧١ بتصريف.

وقد جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وغير نافع والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع وسؤال العلم النافع، كما جاء في حديث زيد بن أرقم^(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يجشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها".^(٢)

وليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل.

والعلم النافع^(٣) من العلوم كلها: ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانياً وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم عنى واشتغل، ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه وحينئذ يشمر له هذا العلم ثراته.^(٤)

وأعظم ثرات العلم الإيمان، قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشبهات فأما الذين في قلوبهم

(١) هو: زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك الأغبر الخزرجي الأنصاري من مشاهير الصحابة شهد غزوة مؤتة وغيرها، وله عدة أحاديث، مات بالكوفة سنة ثمان وستين. انظر سير أعلام النبلاء ١٦٥/٣، تهذيب التهذيب

٣٩٤/٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٨٨/٤ كتاب الذكر (٤٨) باب التعوذ من شر ما عمل (١٨) الحديث (٢٧٢٢/٧٣).

(٣) لعل المراد النفع المحض الذي لا شر فيه بخلاف بقية العلوم فإن نفعها مشوب.

(٤) انظر بيمان فضل علم السلف على علم الخلف من (ص ٢٢) إلى (ص ٧١).

زيغ فيتبعون ماتشبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب).^(١)

وقد كان عروة بن الزبير^(٢) يقول في هذه الآية: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا.^(٣)
وعن ابن أبي مليكة^(٤) قال قرأت عائشة^(٥) هؤلاء الآيات (هو الذى أنزل عليك الكتاب) إلى قوله (ءامنا به) قالت: "كان من رسوخهم في العلم أن

(١) سورة آل عمران آية ٧

(٢) هو: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب بن حواري الرسول صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية، عالم المدينة، وأحد الفقهاء السبعة حدث عن أبيه وعن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها وعن خالته عائشة رضى الله عنها وعن غيرهم، توفى وهو صائم سنة أربع وتسعين من الهجرة. انظر سير أعلام النبلاء ٤/٤٢١، شذرات الذهب

١٠٣/١

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عند قوله تعالى: (والراسخون في العلم) الجزء الثاني القسم الأول من سورة آل عمران بتحقيق الدكتور حكمت بشير ياسين

ص ٧٥

وقد حكم الشيخ المحقق على إسناده بالحسن.
(٤) هو: عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة، زهير بن عبدالله بن جدعان الإمام الحجة

الحافظ أبوبكر وأبو محمد القرشي التيمي كان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان حدث عن عدد من الصحابة، توفى سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة. انظر سير

أعلام النبلاء ٥/٨٨، شذرات الذهب ١/١٥٣

(٥) هى: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة القرشية

التيمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وأفقه نساء الأمة على الإطلاق تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل مهاجرة بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد ودخل بها وهى ابنة تسع سنين بالمدينة حدث عنها خلق كثير توفيت سنة سبع وخمسين وقيل ثمان وخمسين من الهجرة رضى الله عنها وأرضاها. انظر سير

أعلام النبلاء ٢/١٣٥، أعلام النساء ٣/٩

آمنوا بحكمه ومتشابهه ولا يعلمونه". (١)(٢)

وقال تعالى أيضاً: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم). (٣)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره الجزء الثاني القسم الأول من سورة آل عمران بتحقيق الدكتور حكمت بشير ياسين (ص ٧٦) وقد حكم المحقق على إسناده بالصحة.

(٢) وهذان الأثران يتوجهان على قراءة القطع كما هو رأى الجمهور أن الواو الأولى في قوله تعالى: (والراسخون) استثنائية و(الراسخون) مبتدأ وخبره جملة يقولون. وعليه فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده والوقف على لفظ الجلالة تام وممن قال بذلك عمر وابن عباس وعائشة وابن مسعود وأبي بن كعب رضى الله عنهم أجمعين وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز ونقله يونس عن أشهب عن مالك بن أنس وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد رحمهم الله تعالى.

والقول الثاني: أن الواو عاطفة والراسخون في العلم معطوف على لفظ الجلالة وعليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون في العلم أيضاً وممن قال بذلك ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد رحمهم الله تعالى وغيرهم.

وقال بعض أهل العلم: والتحقيق في هذا المقام أن الذين قالوا هي عاطفة جعلوا معنى التأويل التفسير وفهم المعنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه لابن عباس "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" رواه أحمد في المسند ٢٦٦/١ وصححه أحمد شاكر ٢٣٩٨/٣ حديث رقم (٢٣٩٧)، والمراد بالتأويل التفسير وفهم معاني القرآن والراسخون في العلم يفهمون ماخطبوا به وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه والذين قالوا هي استثنائية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يؤول إليه الأمر وذلك لا يعلمه إلا الله. انظر جامع البيان ١٨٢/٣-١٨٣-١٨٤، الجامع لأحكام القرآن ١٦/٤-١٧-١٨، تفسير القرآن العظيم ٧/٢-٨-٩، أضواء البيان ٢٣٥/١ إلى ٢٣٨

(٣) سورة الحج آية ٥٤

قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وكى يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزل الله من آياته التي أحكمها لرسوله ونسخ ما ألقى الشيطان فيه أنه الحق من عند ربك يا محمد فيؤمنوا به، يقول: فيصدقوا به فتخبت له قلوبهم، يقول: فتخضع للقرآن قلوبهم، وتدعن بالتصديق به والإقرار بما فيه (وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صراط مستقيم) وإن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحق القاصد والحق الواضح بنسخ ما ألقى الشيطان في أمنية رسوله فلا يضرهم كيد الشيطان. (١)

ومن ثمرات العلم أيضاً خشية الله تعالى، قال عز وجل: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). (٢)

قال بعض السلف: ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية. وقال بعضهم: من خشى الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل. وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً. (٣)

وسبب ذلك أن العلم النافع يدل على أمرين:

الأول: على معرفة الله عز وجل ومعرفة ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

والثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات

والأعمال الظاهرة والباطنة، والأقوال والمعرفة بأسباب العقاب والآلام (٤)

(١) جامع البيان ١٩١/٧-١٩٢

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٣) انظر بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص ٧٢).

(٤) وقد قسم صاحب تفسير المنار العقاب الإلهي إلى قسمين:

فيوجب ذلك لمن علمه تقوى الله عز وجل والمسارة إلى ما فيه محبته ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه.

فإذا أثر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، ومتى كان العلم نافعا ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له وذل هيبة وإجلالاً وخشية ومحبة وتعظيماً. (١)

(=) الأول: دنيوي وجعل سببه مخالفة سنة الله تعالى في نظام خلقه غالباً.

الثاني: أخروي وجعل سببه مخالفة دين الله وشرعه.

انظر تفسير المنار ١/١٢٥-١٢٦

(١) انظر بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٦

المبحث الثالث

العبودية

وأصل العبودية الخضوع والتذلل^(١)، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال عز وجل: (ألا تعبدوا إلا إياه).^(٢)

والعبادة ضربان عبادة بالتسخير وعبادة بالاختيار وهى المأمور بها فى الآيه السابقة وقوله تعالى: (اعبدوا ربكم)^(٣) وقوله كذلك (واعبدوا الله).^(٤)

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع^(٥) وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتياعه نحو قوله تعالى: (والعبد بالعبد)^(٦) وقوله تعالى: (عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء).^(٧)
الثانى: عبد بالإيجاد وإياه قصد بقوله تعالى: (إن كل من فى السموات والأرض إلاء اتي الرحمن عبداً).^(٨)

الثالث : عبد بالعبادة والناس فى هذا ضربان:

الأول: عبد لله مخلص وهو المقصود بقوله تعالى: (سبحن الذى أسرى

(١) اللسان عند مادة (عبد) ٢٧١/٣

(٢) جزء من الآية (٤٠) سورة يوسف.

(٣) جزء من الآية (٢١) سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية (٣٦) سورة النساء.

(٥) العبودية فى الاصطلاح عجز حكيمى يقوم بالإنسان سببه الكفر. انظر حاشية

العلامة البقرى على شرح الماردينى للرحبية.

(٦) جزء من الآية (١٧٨) سورة البقرة.

(٧) جزء من الآية (٧٥) سورة النحل.

(٨) سورة مريم آيه (٩٣).

بعبدته ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بركنا حوله لنبيه من ءايتنا إنه هو السميع البصير^(١) وبقوله تعالى: (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده)^(٢) وقوله تعالى: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه)^(٣) وغير ذلك من الآيات.

والثاني: عبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على تحصيلها وجمعها مهما كلفه ذلك من دينه وعقيدته، وإياه قصد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "تعس^(٤) عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة^(٥) إن أعطي رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس^(٦) وإذا شيك فلا انتقش^(٧)".^(٨) وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبداً لله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد.

-
- (١) سورة الإسراء آية (١).
 - (٢) جزء من الآية (١) سورة الفرقان.
 - (٣) جزء من الآية (٤١) سورة ص.
 - (٤) تعس: يقال تعس يتعس إذا عثر وانكسب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٠/١
 - (٥) الخميصة: هى ثوب خز أو صوف معلم، وقيل لاتسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمه، وكانت من لباس الناس قديماً، وجمعها الخمائص. النهاية في غريب الحديث والأثر ٨١/٢
 - (٦) انتكس: أى انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة، لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر. النهاية في غريب الحديث والأثر ١١٥/٥
 - (٧) وإذا شيك فلا انتقش: أى إذا دخلت فيه شوكة لا أخرجها من موضعها. النهاية في غريب الحديث والأثر ١٠٦/٥
 - (٨) رواه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ٣٢٨/٢ في كتاب الجهاد (٥٦) باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٧٠) رقم الحديث (٢٨٨٧) وأخرجه أيضاً في ٢٥٣/١١ كتاب الرقاق (٨١) باب ماتبقى من فتنة المال وقول الله تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) (١٠) حديث رقم (٦٤٣٥).

وجمع العبد الذي هو مسترق عبيد، وقيل عبيداً، وجمع العبد الذي هو العابد عباد ولهذا قال تعالى: (وما أنا بظلم للعبيد)^(١) فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات وغو ذلك.^(٢)

وللقلب في هذا الوصف العظيم المبارك حتى يبلغ تمامه منازل:

فأول منازل: اليقظة:

وهي انزعاج القلب لروعة^(٣) الانتباه من رقدة الغافلين. ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها. وما أشد إعانتها على السلوك. فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح وإلا فهو في سكرات الغفلة. فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازل الأولى وأوطانه التي سبي منها.

فحي على جنات عدن فإنها منازل الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم^(٤)

وقد ذم الله تعالى الغافلين في كتابه الكريم فقال تعالى: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغفلون)^(٥) وقال تعالى: (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصرهم وأولئك هم الغفلون).^(٦) وتوعدهم بالنار في قوله تعالى: (والذين هم عن آياتنا غفلون أولئك مأوهم النار بما كانوا يكسبون).^(٧)

(١) جزء من الآية ٢٩ سورة ق.

(٢) انظر المفردات ص ٣١٩ عند مادة (عبد).

(٣) الروعة: الفزعة. انظر القاموس المحيط عند مادة (روع) ص ٩٣٤

(٤) انظر مدارج السالكين ١٢٣/١

(٥) جزء من الآية ١٧٩ سورة الأعراف.

(٦) آية ١٠٨ من سورة النحل.

(٧) الآيتان ٨ و ٧ من سورة يونس.

وكلما تأخر الزمان قل أهل اليقظة وكثر أهل الغفلة، قال تعالى:
(وإن كثيراً من الناس عن أيلتنا لغفلون).^(١)

وأهل اليقظة هم الغرباء المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: "بدأ
الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء".^(٢)

وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحث على هذه الغربة لابن عمر^(٣)
رضي الله عنه بعد أن أخذ بمنكبه: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر
سبيل، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت
فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمريضك ومن حياتك لموتك".^(٤)
وقد قيل في معنى هذا الحديث:

أيها الغافل في ظل نعيم وسرور
كن غريباً واجعل الدنيا سبيلاً للعبور
واعدد النفس طوال الدهر من أهل القبور
وارفض الدنيا ولا تركز إلى دار الغرور^(٥)

(١) جزء من الآية ٩٢ من سورة يونس.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ١٣٠/١ كتاب الإيمان
(١) باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين
(٦٥) حديث رقم (١٤٥/٢٣٢).

(٣) هو: الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل أبو عبدالرحمن
القرشي العدوي المكي ثم المدني أسلم وهو صغير وهاجر مع أبيه وهو لم يحتلم
وكانت أول غزواته الخندق وهو ممن بايع تحت الشجرة، روى علماً نافعا كثيراً
عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن كبار الصحابة، وروى عنه خلق كثير، توفي
آخر سنة ثلاث وسبعين بمكة رضي الله عنه وأرضاه. انظر سير أعلام النبلاء
٢٠٣/٣، الإصابة ٢/٣٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٣/١١ كتاب الرقاق (٨١) باب قول النبي
صلى الله عليه وسلم: كن في الدنيا كأنك غريب... (٣) حديث رقم (٦٤١٦).

(٥) هذه الأبيات ذكرها الآجري في كتابه صفة الغرباء من المؤمنين (ص ٣٥-٣٦) ==

قال ابن القيم^(١) رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين^(٢) وصاحب المنازل^(٣) يقول -يعني عن اليقظة- هي القومة لله المذكورة في قوله تعالى: (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى)^(٤).

قال ابن كثير^(٥) رحمه الله عند هذه الآية: يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: (إنما أعظكم بواحدة) أى إنما آمركم بواحدة وهي: "أن تقوموا قياماً خالصاً لله من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً (ثم تتفكروا) أى ينظر الرجل بنفسه في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إذا أشكل عليه ويتفكر في ذلك ولهذا قال تعالى: (أن تقوموا لله مثنى وفردى) ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة).

(=) وعزاها إلى أبي بكر عبدالله بن حميد المؤدب.

(١) هو الإمام الفذ محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبدالله شمس الدين ابن قيم الجوزية من أركان الإصلاح وكبار العلماء ولد وتوفي في دمشق تتلمذ بشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج غالباً عن شيء من أقواله وهذب كتبه ونشر علمه وكان حسن الخلق محبوباً وألف تصانيف كثيرة منها: أعلام الموقعين، الطرق الحكمية، زاد المعاد، الصواعق المرسلّة وغيرها، توفي سنة ٧٥١هـ. انظر الدرر الكامنة ٤٠٠/٣، شذرات الذهب ١٦٨/٦

(٢) مدارج السالكين ١٤٠/١-١٤١

(٣) صاحب المنازل هو الشيخ أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي، المتوفى سنة ٤٨١هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥٠٣/١٨

(٤) جزء من الآية ٤٦ من سورة سبأ.

(٥) هو: العلامة الكبير إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين حافظ مؤرخ فقيه مفسر، ولد في قرية من أعمال بصرى، ورحل في طلب العلم وتوفي بدمشق تناقل الناس تصانيفه في حياته من كتبه: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم وغيرها، توفي سنة ٧٧٤هـ. انظر شذرات الذهب

هذا معنى ما ذكره مجاهد^(١) ومحمد بن كعب^(٢) والسدي^(٣) وقتادة^(٤) وغيرهم وهذا هو المراد من الآية. (٥)(٦)

(١) هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي مولا لهم، وهو تابعي إمام متفق على جلالته وإمامته، مشهور وهو إمام في الفقه والتفسير والحديث من كبار تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ١٠١هـ وله ٨٣ سنة. انظر سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٨٣/٢

(٢) هو: محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة وقيل أبو عبدالله القرظي المدني من حلفاء الأوس، كان أبوه كعب من سبي بني قريظة، سكن الكوفة ثم المدينة من كبار التابعين وأئمتهم وكان من أئمة التفسير. انظر سير أعلام النبلاء ٥/٦٥، شذرات الذهب ١/١٣٦

(٣) هو: إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي السدي الكبير أحد موالى قريش، قال الذهبي: وقد قال إسماعيل بن أبي خالد: كان السدي أعلم بالقرآن من الشعبي رحمهما الله، توفي سنة ١٢٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٤، طبقات المفسرين للدوادى ١/١١٠

(٤) هو: قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضريير الأكمه روى عن أئمة الإسلام كالأوزاعي والسختياني وشعبة وغيرهم وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع فهو مدلس معروف بذلك وكان يرى القدر نسأل الله العفو وكان عدلاً حافظاً صادقاً. انظر سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩، شذرات الذهب ١/١٥٣

(٥) تفسير القرآن العظيم ٦/٥١٢

(٦) وقد ذكر ابن كثير رحمه الله الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "أعطيت ثلاثاً لم يعطهن من قبلي ولا فخر أحلت لي الغنائم ولم تحل لمن قبلي كانوا قبلي يجمعون غنائهم فيحرقونها، وبعثت إلي كل أحمر وأسود كان كل نبي يبعث إلى قومه وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أقيم بالصعيد وأصلي حيث أدركتني الصلاة قال الله تعالى: (أن تقوموا لله مثنى وفرداً) وأُعِنْتُ بالرعب مسيرة شهر بين يدي".

ثم قال ابن كثير بعد ذكره لهذا الحديث: وهو حديث ضعيف الإسناد وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفردى ضعيف. ولعله مقحم في الحديث من بعض الرواة فإن أصله ثابت في الصحاح وغيرها والله أعلم. تفسير القرآن

وثاني منازل العبودية: العزم

وهو العقد الجازم على المسير ومفارقة كل قاطع ومعوق ومرافقة كل معين وموصل وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده. (١)

فالعزم مصاحب لليقظة، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها والخور مصاحب للغلبة يقوى بقوتها ويضعف بضعفها، ولذلك سُمي أولوا العزم من الرسل بذلك. (٢) وماذا لك إلا لعظم يقظة قلوبهم التي أوجبت لهم الصبر على ما كانوا يلقونه من مشاق في طريق الدعوة قال تعالى: (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل). (٣)

قال صاحب الظلال (٤) عند هذه الآية: ألا إنه لطريق شاق طريق هذه

(=) وانظر أصل الحديث في صحيح البخارى ١٢٦/١ كتاب التيمم (٧) باب (١) حديث رقم (٣٣٥) ومسلم في صحيحه ٣٧٠/١ كتاب المساجد (٥) حديث رقم (٥٢١/٣). وليس فيه ذكر للآية.

(١) مدارج السالكين ١٢٣/١

(٢) أولوا العزم من الرسل هم محمد صلى الله عليه وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم. وقد ذكروا مجتمعين في قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين ميثقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) (الأحزاب: ٧). وقوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)، (الشورى: ١٣).

انظر معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد للشيخ حافظ الحكمي ٩٩/٢

(٣) جزء من آية ٣٥ سورة الأحقاف.

(٤) هو: سيد بن قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري من مواليد قرية موشا في أسيوط تخرج بكلية دار العلوم وعمل في جريدة الأهرام وعين مدرساً للعربية

وعكف على تأليف الكتب ونشرها وهي كثيرة مطبوعة متداولة منها ==

الدعوة، وطريق مرير حتى لتحتاج نفس كنفس محمد صلى الله عليه وسلم في تجردها وانقطاعها للدعوة، وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفائها وشفافيتها. تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين.^(١)

ثالثة منازل العبودية: الفكرة

وهي تحديق^(٢) القلب نحو المطلوب، الذى قد استعد له مجملاً، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه.^(٣)

فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة وهى المنزلة الرابعة وهى نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله وقد نصب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره ووضع الكتاب وجيء بالنبين والشهداء، وقد نصب الميزان وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض وأكوابه عن كذب، وكثر العطاش، وقل الورد، ونصب الجسر للعبور، ولُزَّ^(٤) الناس إليه، وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يحطم بعضها بعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

(=) النقد الأدبي، العدالة الاجتماعية، التصوير الفني في القرآن، في ظلال القرآن، كتب وشخصيات وغيرها، صدر الأمر بقتله وقُتِل سنة ١٣٨٧هـ.

انظر الأعلام للزركلى ١٤٧/٣

(١) في ظلال القرآن ٣٢٧٦/٢٦

(٢) التحديق: شدة النظر. القاموس المحيط مادة (حدق) (ص ١١٢٧).

(٣) مدارج السالكين ١٢٣/١

(٤) لزه لزا ولززا: شدة وألصقه. القاموس المحيط مادة (لزز) (ص ٦٧٣).

فتنتفتح في قلبه عين يرى بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة، ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها.

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنه يشاهده رأى عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: (البصيرة تحقق الانتفاع بشيء، والتضرر به) وقال بعضهم: (البصيرة ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان).^(١)

قال تعالى: (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ).^(٢)

قال ابن كثير رحمه الله: البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم (فمن أبصر فلنفسه) مثل قوله: (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها)^(٣) ولهذا قال: (ومن عمي فعليها) فلما ذكر البصائر قال: (ومن عمي فعليها) أى إنما يعود وبال ذلك عليه.^(٤)

قال الراغب رحمه الله: ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، نحو قوله تعالى: (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)^(٥) وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر.^(٦)

وقد أخبر الله عز وجل في الآية السابقة أن غطاء الغفلة والذهول

(١) مدارج السالكين ١/١٢٣-١٢٤

(٢) آية ١٠٤ سورة الأنعام.

(٣) جزء من الآية ١٥ سورة الإسراء.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٥

(٥) جزء من الآية ٢٢ سورة ق.

(٦) المفردات عند مادة (بصر) ص ٤٩

يكشف عن العبد في ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.^(١)

والبصيرة على ثلاث درجات من استكملها فقد استكمل البصيرة:

بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

الدرجة الأولى: البصيرة في الأسماء والصفات:

وهي ألا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواء عند أهل البصائر، وتفاوت الناس في هذه البصائر بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها، وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف وذلك لجهل أهل الكلام بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم، وإذا تأملت حال العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم رأيتهم أتم بصيرة منهم وأقوى إيماناً وأعظم تسليماً للوحي وانقياداً للحق.

الدرجة الثانية: البصيرة في الأمر والنهي:

وهي تجريده عن المعارض بتأويل أو تقليد أو هوى فلا تقوم بقلبه شبهة تعارض أمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتناله والأخذ به، ولا تقليد يريجه عن بذل الجهد في تلقى الأحكام من مشكاة النصوص.

الدرجة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد:

وهي أن تشهد قيام الله عز وجل على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، عاجلاً وآجلاً في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته، بل شك في وجوده، فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليفة، وإرسالها هملاً، وتركها سدى، تعالى الله عن هذا الحسبان^(١) علواً كبيراً، فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية، ولهذا كان الصحيح أن المعاد معلوم بالعقل، وإنما اهتدي إلى تفاصيله بالوحي، ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به لأنه إنكار لقدرته وإلهيته، وكلاهما مستلزم للكفر به، قال تعالى: (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغفل في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)^(٢) وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد، فعجب قولهم ! كيف يذكرون هذا وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئاً. والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث وقولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أعجب. وعلى كلا التقديرين فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به والجدد لإلهيته وقدرته وحكمته وعدله وسلطانه^(٣).

(١) وهذا الحسبان هو الوارد في قوله تعالى: (أفحسبم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)، (المؤمنون: ١١٥).

(٢) الآية (٥) من سورة الرعد.

(٣) انظر مدارج السالكين ١٢٤/١-١٢٦

والبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل وبين الصادق والكاذب^(١)، قال الله تعالى: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين)^(٢) أخرج الترمذى^(٣) من حديث أبي سعيد الخدرى^(٤) رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين)"^(٥).

وفي هذه الآية يبين تعالى أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن يتزل بهم مثل ذلك العذاب الذى أنزل بقوم لوط لما عصوه، وكذبوا رسوله، ويبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله تعالى في سورة العنكبوت:

(١) مدارج السالكين ١٢٩/١

(٢) آية ٧٥ من سورة الحجر.

(٣) هو: محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذى أبو عيسى من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ تتلمذ للبخارى وشاركه في بعض شيوخه وقام برحلة إلى بلاد خراسان والعراق والحجاز وعمي في آخر عمره وضرب به المثل في الحفظ، مات بترمذ سنة ٢٧٩هـ، من كتبه: الجامع الكبير، الشمائل النبوية، التاريخ، العلل في الحديث. انظر تذكرة الحفاظ ٦٣٣/٢، تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩

(٤) هو: سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى أبو سعيد صحابى جليل كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة غزا اثنتى عشرة غزوة وله (١١٧٠) حديث، توفي في المدينة سنة ٧٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٣/١٦٨، الإصابة ٢/٣٢٢

(٥) رواه الترمذى في الجامع الصحيح ٢٩٨/٥ في كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب (١٦) حديث رقم (٣١٢٧) وقال الترمذى: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روى عن بعض أهل العلم.

وقد ضعفه الشيخ الألبانى في السلسلة الضعيفة ٢٩٩/٤ حديث رقم (١٨٢١).

ولقد تركنا منها عاية بينة لقوم يعقلون^(١) وقوله في سورة الذاريات: (وتركنا فيها عاية للذين يخافون العذاب الأليم)^(٢) وقوله هنا: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله في سورة الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)^(٣)

كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في سورة الشعراء^(٤) وقوله (للمتوسمين) أصل التوسم تفعل من الوسم، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها، يقال توسمت فيه الخير، إذا رأيت ميسمه فيه أي علامته التي تدل عليه، ومنه قول عبدالله بن رواحة^(٥) رضى الله عنه في النبي صلى الله عليه وسلم:

إني توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أنني ثابت النظر

هذا أصل التوسم، وللعلماء فيه أقوال متقاربة، يرجع معناها كلها إلى شيء واحد، فقال بعضهم: للمتوسمين أي للمعتبرين، وقال بعضهم: أي المتفرسين، وقال بعضهم: أي الناظرين، وقال بعضهم: أي للمتأملين، ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد، وكذلك قول من قال للمتوسمين أي للمتفكرين، وقول من قال أي للمتبصرين فمآل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة.

(١) آيه ٣٥ من سورة العنكبوت.

(٢) آيه ٣٧ من سورة الذاريات.

(٣) آيه ١٧٤ من سورة الشعراء.

(٤) الآيات في سورة الشعراء من آية رقم ١٢٤ إلى ١٥٩، ومن الآية رقم ١٧٦ إلى آية

رقم ١٩١

(٥) هو: عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج أبو محمد صحابي من

الأمرأء والشعراء، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثنى عشر وشهد بدرأً وأحدًا والخندق والحديبية واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم

على المدينة، توفي سنة ٨ هـ. انظر صفة الصفوة ١/١٩١، تهذيب التهذيب ٥/٢١٢

لمن نظر في ذلك وتأمل حق التأمل^(١).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله: أن فراسة الصادقين العارفين بالله وأمره متصلة بالله متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان، فهي تميز بين ما يحبه الله وبين ما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال، تميز بين الخبيث والطيب والمحق والمبطل والصادق والكاذب، وهي تخوم دائماً حول كشف طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعرفها وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس وآفات الأعمال العائقة، عن سلوك طريق المرسلين، وهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاذه.

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد والقصد هو المنزلة الخامسة من منازل العبودية. والمراد به: صدق الإرادة وجمع النية على سفر الهجرة إلى الله، والعلم والتيقن أنه لا بد له من هذا السفر، وأخذ الأهبة له، وتعبئة الزاد ليوم المعاد، والتجرد عن عوائق السفر وقطع العلائق التي تمنعه بعد الخروج.

وللقصد ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: قصد يبعث على المسير بلا توقف ولا تردد ولا علة غير العبودية فلا رياء ولا سمعة ولا طلب محمدة أو جاه أو منزلة عند الخلق. الدرجة الثانية: قصد لا يلقي سبباً يعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونه إلا منعه ولا صعوبة إلا سهلها.

الدرجة الثالثة: قصد يبعث على الانقياد للعلم ليتهذب به ويصلح، ويقصد إجابة الأمر الديني كلما دعاه، فإن لكل مسألة من مسائل العلم منادياً ينادى للإيمان بها علماً وعملاً فيقصد إجابة داعيها.

فإذا استحکم قصده صار عزمًا جازمًا، وهو المنزلة السادسة من منازل العبودية والعزم الجازم مستلزم للشروع في السفر، مقرون بالتوكل على الله، قال تعالى: (فإذا عزمْتَ فتوكلْ على الله) (١)؛ (٢)

قال ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية، فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نأبىك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرك به على ما أمرك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتى من أمورك، وتدع، وتحاول، أو تزاوِل، على ربك فشق به في كل ذلك وارض بقضائه في جميعه، دون آراء سائر خلقه ومعاونتهم فإن الله يحب المتوكلين، وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه (٣) ثم ساق رحمه الله بإسناده إلى ابن إسحاق (٤) في هذه الآية: فإذا عزمْتَ أى على أمر جاءك منى، أو أمر من دينك في جهاد عدوك لا يصلحك ولا يصلحهم إلا ذلك، فامض على ما أمرت به على خلاف من خالفك وموافقة من وافقك (فتوكل على الله) أى ارض به من العباد (إن الله يحب المتوكلين).

ثم ساق أيضاً بإسناده إلى قتادة قوله عند هذه الآية: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويستقيم على أمر الله،

(١) جزء من آيه ١٥٨ من سورة آل عمران.

(٢) انظر مدارج السالكين ١٣١/١-١٣٢

(٣) جامع البيان ١٥٣/٤

(٤) هو: محمد بن إسحاق بن يسار المصلي بالولاء المدني من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة، له: السيرة النبوية، كتاب الخلفاء وغيرها، توفي سنة ١٥١هـ وكان من حفاظ الحديث وسكن بغداد. انظر سير أعلام النبلاء ٣٣/٧، تذكرة الحفاظ

ويتوكل على الله. (١)

والعزم في اللغة الجِد، عزم على الأمر يعزم عزمًا ومَعَزَمًا ومَعَزَمًا وعُزْمًا وعزيمًا وعزيمة وعَزْمَةٌ، واعتزمه واعتزم عليه أراد فعله.

قال الليث (٢): العزم ماعقد عليه قلبك من أمر أنك فاعله، ولا خير في عزم بغير حزم فإن القوه إذ لم يكن معها حذر أورطت صاحبها. (٣)
فالعزم هو الأمر المروى المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا إلا على رأى فتاك العرب كما قال المازني: (٤)

إذا هم ألقى بين عينيه عَزْمَه وَنَكَبَ عن ذكر العواقب جانباً
ولم يستشر في رأيه غيرَ نفسه ولم يرض إلا قائمَ السيف صاحباً
قال ابن القيم رحمه الله: وحقيقته استجماع قوى الإرادة على الفعل وهو نوعان:

عزم على الدخول في الطريق.

وعزم على المضي في هذا الطريق، وهو أخص من الأول. (٥)

(١) أخرجهما ابن جرير في تفسيره ١٥٣/٤

(٢) هو: الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي بالولاء أبو الحارث إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً، أصله من خراسان ومولده في قلقشنده ووفاته في القاهرة وكان من الكرماء الأجواد وله تصانيف توفي سنة ١٧٥هـ. انظر السير ١٣٦/٨، شذرات الذهب ٢٨٥/١

(٣) اللسان عند مادة (عزم) ٣٩٩/١٢

(٤) هو: سعد بن ناشب من بني العنبر وكان أبوه ناشب من شياطين العرب وله يوم الوقيط وكان سعد أيضاً من مردة العرب وهو شاعر إسلامي في الدولة المروانية.

انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٣٨، وخزانة الأدب ٤٤٦/٣

وقد ذكر هذه الأبيات ابن قتيبة وعزاها للمازني. انظر الشعر والشعراء ص ٤٣٨،

وكذلك خزانة الأدب ٤٤٤/٣

وذكرها القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن ٢٥٢/٤

(٥) انظر مدارج السالكين ١٣٣/١

ذلك أن العبد قد ينضم إلى ركب السائرين إلى الله عز وجل ويوطن نفسه على الصبر، ثم لا يلبث أن ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته، وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول، أين ذهبوا فلي بهم أسوة، وهذه حال أكثر الخلق، وهى التى أهلكتهم.

والبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقدته إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فتفرد العبد في طريق طلبه دليل في أغلب الأحيان على صدق الطلب.^(١)

وفي هذه المنزلّة يحتاج العبد إلى تمييز ماله مما عليه، ليستصحب ماله، ويؤدى ما عليه، وذلك هو المحاسبة وهى المنزلّة السابعة من منازل العبودية^(٢) ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، قال الحسن^(٣) رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

(١) إغاثة اللهفان ٦٩/١

(٢) انظر مدارج السالكين ١٣٣/١

(٣) هو: الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد تابعى كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠هـ.

وقد شرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً وقف وقفة أخرى ونظر هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير من فعله فإن كان الثانى تركه فلم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثانى لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار، وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور.

ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

والنوع الثانى: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها

على الوجه الذى ينبغى.

الثانى: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على كل أمر مباح أو معتاد لم يفعلْه؟ وهل

أراد به الله والدار الآخرة فيكون راجحاً أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر

ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وجماع ذلك كله: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها

نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهى، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً، تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله عز وجل، ثم يحاسبها بما تكلم به فمه أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يده أو سمعته أذناه، ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنَشَرَ لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ الأول سؤال عن الإخلاص والثاني سؤال عن المتابعة. (١)

قال الله عز وجل (فوربك لنسئلنهم أجمعين، عما كانوا يعملون). (٢)
أخرج ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله:
(فوربك لنسئلنهم أجمعين. عما كانوا يعملون) ثم قال: (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) (٣) قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا وكذا؟. (٤) (٥)

(١) انظر إغاثة اللهفان ٨١/١-٨٣

(٢) الآيتان ٩٢ و ٩٣ من سورة الحجر.

(٣) آيه ٣٩ من سورة الرحمن.

(٤) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٦٧/١٤

(٥) وقد جمع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى بين الآيات التي تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة والآيات التي تدل على خلاف ذلك بقوله: والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان:
سؤال توبيخ وتقريع وأداته غالباً "لم" وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالباً "هل" فالثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام ووجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في كله

ومما دل على المحاسبة قوله تعالى: (يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّقْدَمَتْ لَغْدٍ)^(١) فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد.. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر ما يوجهه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله.^(٢) قال السعدى رحمه الله: هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وإتقانه.^(٣)

(=) (وَقَقُوهُمْ إِنْهُمْ مُسْئِلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ) (الصفات: ٢٤-٢٥).
(افسح هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور: ١٥) وكقوله: (ألم يأتكم نذير) (الملك: ٨) إلى غير ذلك من الآيات.
وسؤال الله للرسول ماذا أجمت لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال المؤدة: (بأى ذنب قتلت) (التكوير: ٩) لتوبيخ قاتلها.
الوجه الثانى: أن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون.
الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل وعدم السؤال محمول على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه ويدل لهذا قوله تعالى: (فيقول: ماذا أجمت المرسلين) (القصص: ٦٥) والعلم عند الله تعالى.
دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لصاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي رحمه الله ص ١٣١-١٣٢

(١) جزء من الآية ١٨ سورة الحشر.

(٢) انظر مدارج السالكين ١٧٠/١

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٠٦/٨

وللمحاسبة ثلاثة أركان:

أولها: أن يقايس العبد بين مامن الله عز وجل ومأمئته^(١)، وحينئذ يظهر له التفاوت ويعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته أو الهلاك والعطب. الركن الثاني من أركان المحاسبة أن يميز العبد ماله عز وجل عليه من وجوب العبودية، والتزام الطاعة واجتناب المعصية، وبين ماله فالذى له هو المباح الشرعي.

فعليه حق وله حق، فإن أدى ماعليه أوتي ماله، ولا بد من التمييز بين ذلك وإعطاء كل ذي حق حقه، وإن كثيراً من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله، فيتخير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لاحق أداه وبإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ماعليه فعله أو تركه، ويتعبد بترك ماله فعله كترك كثير من المباحات، ويظن ذلك حقاً عليه كمن يتعبد بترك النكاح أو ترك أكل اللحم والفاكهة مثلاً أو الطيبات من المطاعم والملابس، ويرى لجهله أن ذلك مما عليه، فيوجب على نفسه تركه، أو يرى تركه من أفضل القرب وأجل الطاعات، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من فعل ذلك^(٢).

(١) المراد أن يقارن العبد بين نعم الله عز وجل عليه وبين عمله وطاعته.

(٢) كما في حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني. ==

أو تعبد بفعل ماله تركه ويظن أن ذلك حقاً عليه، كمن يتعبد بالأموار البدعية^(١) التي هو مأمور بتركها والحذر منها.^(٢)

الركن الثالث من أركان المحاسبة: أن يعرف العبد أن كل طاعة رضيها من نفسه فهي عليه، وكل معصية غير بها أخاه فهي إليه، فرضاه بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به، فيتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ماهو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها.^(٣)

(=) رواه البخارى في صحيحه ٣/٣٥٤ كتاب النكاح (٦٧) باب الترغيب في النكاح (١) حديث رقم (٥٠٦٣) ومسلم في صحيحه ٢/١٠٢٠ كتاب النكاح (١٦) باب

استحباب النكاح لمن كانت نفسه إليه ووجد مؤنة (١) الحديث رقم (١٤٠١/٥).
(١) البدعة هي: كل مالم يكن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم مما فعله أو أقر عليه أو علم من شريعته الإذن فيه وعدم النكير عليه. انظر الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص ٨٧).

(٢) كما في حديث عائشة رضی الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" أخرجه البخارى في صحيحه ٥/٣٠١ كتاب الصلح (٥٣) باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٥) الحديث رقم (٢٦٩٧) ومسلم في صحيحه ٣/١٣٤٣ كتاب الأقضية (٣٠) باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٨) حديث رقم (١٧١٨/١٧).

(٣) انظر مدارج السالكين ١/١٧٠-١٧٥

ومما ينبغي أن يعلم أن عدم رضاه بطاعته لا يعارض سروره بما يفعل من الحسنات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الإيمان ليس مجرد التصديق بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمالاً ظاهرة فحب الله ورسوله من الإيمان وحب ما أمر الله به وبغض ما نهى عنه وهذا من أخص الأمور بالإيمان ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث أن "من سرتة حسنته وساءته سيئته

فهو مؤمن" رواه الحاكم في مستدرکه ١/١٤ كتاب الإيمان وقال صحيح ==

(=) على شرط الشيخين وصححه الشيخ الألباني في تحقيقه لأحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية (ص ٣٩).

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وإن فعلها بشهوة غالبته وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان. انظر كتاب الإيمان (ص ٢٩٠).

فالمراد إذا التواضع عند فعل الطاعة وعدم العجب بالعمل بل يرى كل طاعة فعلها إنما هي من فضل الله عليه وأنه مهما عمل فإنه لا يستطيع أن يؤدي حقوق الله عز وجل عليه حق الأداء وأنه لن يدخل أحد الجنة بعمله وإنما هو فضل الله ورحمته.

ومن أجل ذلك أمر الله عز وجل بالاستغفار عند الانتهاء من عددٍ من الطاعات كما في الصلاة مثلاً كما في الصحيح عن ثوبان قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام" أخرجه مسلم في صحيحه ٤١٤/١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٢٦) حديث رقم (٥٩١/١٣٥).

وكما في الحج، قال تعالى: (فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) (البقرة: ١٩٨-١٩٩).

وأمر الله تعالى نبيه بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها واقترب أجله فقال تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) (النصر: ١-٣). فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها لاجهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

وأما بالنسبة لقوله: وكل معصية غير بها أخاه فهي إليه فقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

فمن الكتاب ما جاء عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: (لاتثريب عليكم اليوم) (يوسف: ٩٢) وذلك بعد قولهم له (تالله لقدءاثرك الله علينا وإن كنا لخطئين) (يوسف: ٩١).

ومن السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب ==

فإذا صح هذا المقام ونزل العبد هذه المنزلة أشرف منها على مقام التوبة لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه، فليجمع همته وعزمه على الزول فيه والتشمير إليه إلى الممات.

ومنزلة التوبة هي المنزلة الثامنة من منازل العبودية وهي أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقها العبد أبداً، ولا يزال فيها إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل بها، واستصحابها معه، ونزل بها، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. (١)

والتوبة الرجوع من الذنب، تاب إلى الله يتوب توباً وتوبة ومتاباً، أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة. (٢)

وهي في الشرع: الإقلاع عن الذنب لوجه الله عز وجل، والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة. (٣)

ومن استكمل هذا التعريف: يكون قد استكمل شرائط التوبة، وتاب التوبة النصوح التي أمر الله عز وجل عباده بها، قال تعالى:

(=) ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليعبها ولو بجبل من شعر" أخرجه البخاري في صحيحه ١٢٢/٢ كتاب البيوع (٣٤) باب بيع المدبر (١١٠) حديث رقم (٢٢٣٤) ومسلم في صحيحه (١٣٢٨/٣) كتاب الحدود (٢٩) باب في اليهود وأهل الذمة في الزنى (٦) حديث رقم (١٧٠٣/٣٠) ومعنى (لا يثرب) أى لا يوجبها ولا يقرعها بالزنا بعد الضرب ولا يعيرها بذلك. انظر النهاية في غريب الحديث عند مادة (ثرب) ٢٠٩/١، والفائق للزحشرى عند مادة (ثرب) ١٦٥/١

(١) انظر مدارج السالكين ١٧٨/١

(٢) اللسان عند مادة (توب) ٢٣٣/١

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن عند مادة (توب) ص ٧٦

(يأياها الذين ءامنوا ءامنوا ءامنوا إلى الله توبة نصوحاً). (١)

قال عمر بن الخطاب (٢) رضى الله عنه: التوبة النصوح أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبداً. (٣) وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين.

ونصوح هي صفة للتوبة وأصلها: نصح الشيء خلص، والناصح الخالص من العسل وغيره، وكل شيء خلص فقد نصح (٤) وأصل ذلك هو الخلوص، يقال فلان ينصح لفلان: إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها، وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد سوء وهو يظهر إرادة الخير، كالدرهم المغشوش، ومنه قوله تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحووا لله ورسوله) (٥) أى أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "الدين النصيحة... ثلاثاً قلنا يارسول الله لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم". (٦)

-
- (١) جزء من الآية ٨ من سورة التحريم.
- (٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمر المؤمنين الصحابي الجليل الشجاع الحازم صاحب الفتوحات يضرب بعدله المثل كان من أبطال قريش وأشرافها وله السفارة فيهم، أسلم قبل الهجرة وشهد الوقائع وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر، قتله أبو لؤلؤة المجوسى توفى سنة ٢٣هـ. انظر الكامل ٤٩/٣ وتاريخ الطبرى ١٨٧/١
- (٣) أخرجه الطبرى في جامع البيان ١٦٧/٢٨
- (٤) اللسان عند مادة (نصح) ٦١٥/٢
- (٥) جزء من الآية ٩١ سورة التوبة.
- (٦) أخرجه مسلم في صحيحه ٧٤/١ كتابه الإيمان (١) باب بيان أن الدين النصيحة (٢٣) حديث رقم (٥٥/٩٥).

فإن أصل الدين هو حسن النية، وإخلاص القصد، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرئ مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن الدعوة تحيط من ورائهم" (١) أى أن هذه الخصال الثلاث لا يحقد معها قلب مسلم أى لا يصيبه حقد، فيها تستصلح القلوب، فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش، وإذا كانت كذلك فإن العبد إنما يعود إلى الذنوب لبقايا في نفسه، فمن أخرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب وهذه هي التوبة النصوح، وهي واجبة لأمر الله تعالى بذلك، ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى إذا شاء ثم إذا عاد استحق العقوبة، فإن تاب تاب الله عليه أيضاً، ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر، بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة.

وقد قال تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٢) وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، أيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

قال تعالى: (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) (٣) فقسم العباد إلى

(١) أخرجه الترمذى في السنن ٣٤/٥-٣٥ كتاب العلم (٤٢) باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٧) حديث رقم (٢٦٥٨) وأحمد في المسند ١٨٣/٥ وصححه الشيخ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح للتبريزى ٧٨/١ حديث رقم (٢٢٩).

(٢) جزء من الآية ٣١ سورة النور.

(٣) جزء من الآية ١١ سورة الحجرات.

تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه وبعبث نفسه وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يأيتها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب في اليوم مائة مرة" (١) وكان صلى الله عليه وسلم بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) (٢) إلى آخرها يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى" (٣) وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة" (٤) فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها. (٥)

ولن يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يعظم جنايته، ولا يستهين بها، فإنه إن استهان بها لم يندم عليها، وعلى قدر تعظيمه لها يكون ندمه على ارتكابها، وتعظيم الجناية يكون تبعاً لتعظيم الله عز وجل وتعظيم أمره والتصديق بجزائه.

وكذلك ينبغي على العبد أن يظل في خوف دائم من أنه لم يعط

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٧٥/٤-٢٠٧٦ كتاب الذكر (٤٨) باب استحباب الاستغفار (١٢) حديث رقم (٢٧٠٢/٤٢).

(٢) سورة النصر آية رقم (١).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٦٤/١ كتاب الأذان (١٠) باب التسيح والدعاء في السجود (١٣٩) حديث رقم (٨١٧) ومسلم في صحيحه ٣٥٠/١ كتاب الصلاة (٤) باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٢) حديث رقم (٤٨٤/٢١٧).

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٤/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب القصد والمداومة (١٨) حديث رقم (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه ٢١٦٩/٤ كتاب صفات المنافقين (٥٠) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (١٧) حديث رقم (٢٨١٦/٧١).

(٥) انظر مدارج السالكين ١٧٨/١-١٧٩

التوبة حقها، وبالتالي قد لا تقبل منه، واستصحب الخوف من الله عز وجل هو حال الصالحين، فإنهم يظلون في خوف دائم إلى لحظات الموت الأخيرة التي تبشرهم الملائكة فيها بالجنة التي كانوا يوعدون (ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)^(١) وكذلك على العبد أن يظل في غيرة لله عز وجل عند مخالفة الناس لأوامره، وأن لا يحاول الاعتذار عنهم بالقدر، لأن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر فلا أحد أحب إليه العذر من الله^(٢)، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب إزالة لأعذار خلقه، لئلا يكون لهم حجة (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)^(٣) والثابت أنه لا عذر لأحد البتة في معصية الله ومخالفة أمره، مع علمه بذلك وتمكنه من الفعل والترك، ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم لافي الدنيا ولا في العقبى، ومن ادعى أن ذنبه كان قدراً مقدوراً عليه، لم يستطع دفعه، فهو ظالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء (إن الإنسان لربه لكنود)^(٤) قال ابن عباس رضى الله عنهما عند قوله: (إن الإنسان لربه لكنود) قال: لكفور، وكذا قال مجاهد رحمه الله

(١) جزء من الآية ٣٠ سورة فصلت.

(٢) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ولا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى من أجل ذلك بعث المندرين والمبشرين".

أخرجه البخارى في صحيحه ٣٨٧/٤ كتاب التوحيد (٩٧) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لأشخص أغير من الله..." (٢٠) حديث رقم (٧٤١٦) ومسلم في صحيحه ١١٣٦/٢ كتاب اللعان (١٩) حديث رقم (١٤٩٩/١٧)

(٣) آية ١٦٥ من سورة النساء.

(٤) آية ٦ من سورة العاديات.

وقال الحسن البصرى رحمه الله: هو الكفور الذى يعد المصائب وينسى نعم ربه. (١)

ولولا جهله لعلم أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر في طريق الماء الذى به حياته، وهو السكر الذى قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك: العطش.. العطش، وقد وقف في طريق الماء ومنع وصوله إليه، فهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على أرضه، فما عليه أضر منه، ولاله أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

فتباً له ظالماً في صورة مظلوم، وشاكياً والجناية منه، قد جد في الإعراض وهو ينادى طردوني وأبعدوني، يأخذ الشفيق بحجزته (٢) عن النار، وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها (٣) ويستغيث ماحيلتي، وقد قدموني إلى الحفيرة وقذفوني فيها، والله كم صاح به الناصح: الحذر.. الحذر، إياك.. إياك وكم أمسك بثوبه، وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام، ياويله

(١) أخرج هذه الآثار ابن جرير في جامع البيان ٢٧٧/٣٠-٢٧٨

(٢) الحجة موضع شد الإزار وتطلق أيضاً على الإزار وتجمع على حجز. النهاية في غريب الحديث ٣٤٤/١ عند مادة (حجز).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما مثلى كمثلى رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ماحولها جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها، قال: فذلك مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى تقحمون فيها".

أخرجه البخارى فى صحيحه ١٨٨/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب الانتهاء عن المعاصي (٢٦) حديث رقم (٦٤٨٣) ومسلم فى صحيحه ١٧٨٩/٤ كتاب الفضائل

(٤٣) باب شفقتة صلى الله عليه وسلم على أمته (٦) حديث رقم (٢٢٨٤/١٨).

ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، جبرى المعاصي^(١)، قدرى الطاعات^(٢)، عاجز الرأى، مضىاع لفرسته، قاعد عن مصالحة، معاتب لأقدار ربه، محتج على ربه بما لا يقبله من ولده وامراته إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه وقال: القدر ساقني إلى ذلك، لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته، فكيف لا ترى ذلك عذراً لمن عصاك وتراه عذراً لنفسك، فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله، هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس، أزاح علك وممكنك من التزود إلى جنته وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤونه السفر وماتتزوج به، وما تحارب به قطاع الطريق عليك، فأعطاك أعطاك وأعانك أعانك (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار)^(٣).

فالغيرة لله والغضب له وتعطيل عذر الخليفة في مخالفة أمره ونهيه من علامات تعظيم الحرمة ومن حقائق التوبة، والكيس العاقل من دفع القدر

(١) الجبرية: الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى والجبرية أصناف فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً والمتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل وسمي ذلك كسباً فليس بجبري. انظر الملل والنحل للشهرستاني ٨٥/١

(٢) القدريّة: هم طائفة حدثت في زمان المتأخرين من الصحابة يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله وقد تبرا منهم المتأخرون من الصحابة كعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك، وغيرهم، وأوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا عليهم ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم. انظر الفرق بين الفرق ص ١٨ و ١٩ و ٢٠، والتعريفات للجرجاني ص ١٧٤

(٣) جزء من الآية ٣٤ سورة إبراهيم.

بالقدر، والله عز وجل أمر أن تدفع السيئة -وهى من قدره- بالحسنة -وهى من قدره- وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات، مات عاصياً.

وقد أفصح النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإفصاح: إذ قالوا: يارسول الله، أرأيت أدويه نتداوى بها، ورقى نسترقى بها، وتقى نتقى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً. قال: "هى من قدر الله".^(١) وفي الحديث الآخر: "لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه"^(٢) ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذى قد انعقدت أسبابه ولما يقع، بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

والثاني: دفع القدر الذى قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوى، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٢١/٣، والترمذى في السنن ٤/٣٩٩-٤٠٠ كتاب الطب (٢٩) باب ماجاء في الرقى والأدوية (٢١) حديث رقم (٢٠٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه ١١٣٧/٢ كتاب الطب (٣١) باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١) حديث رقم (٣٤٣٧).
وقد ضعفه الشيخ الألبانى في ضعيف سنن الترمذى ص ٢٣١-٢٣٢ حديث رقم (٢١٥٩-٣٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، وابن ماجه في سننه ١/٣٥ المقدمة باب في القدر (١٠) حديث رقم (٩٠) والحاكم في المستدرک ١/٤٩٣ كتاب الدعاء وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

وقد حسنه الشيخ الألبانى في صحيح ابن ماجه ١/٢٢ حديث رقم (٩٠/٧٣).

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة فإنه عجز والله يلوم على العجز.^(١)
واعلم أن للتوبة المقبولة علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان عليه قبلها.
ومنها: أن لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه (ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)^(٢) فهناك يزول الخوف.
ومنها: اخلاص قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة^(٣) لقوله تعالى: (لا يزال بينهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) قال: تقطعها بالتوبة.^(٤)
ومنها: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، فهي لا تحصل بجوع ولا حب مجرد وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب

(١) انظر مدارج السالكين ١٨٤/١ إلى ٢٠١

(٢) جزء من الآية ٣٠ سورة فصلت.

(٣) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم أخي الضحاك ابن مزاحم الإمام الكبير حافظ العصر شيخ الإسلام أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكّي طلب الحديث وهو غلام ولقي الكبار وحمل عنهم علماً جماً وأتقن وجود وجمع وصنف وعمر دهرًا وازدحم الخلق عليه وانتهى إليه علو الإسناد ورُحِّل إليه من البلاد توفي سنة ١٩٨هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨، شذرات الذهب ٣٥٤/١

(٤) انظر الدر المنثور ٢٨٠/٣ والتفسير الذي ذكره ابن جرير رحمه الله ولم يذكر غيره لهذه الآية أن معنى (إلا أن تقطع قلوبهم) يعني الموت، وهذا هو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم من السلف وهو الأقوى والله أعلم.
انظر جامع البيان ٣٣/١١، ٣٤، وتفسير القرآن لعبد الرزاق بن همام الصنعاني الجزء الأول، القسم الثاني ص ٢٨٨ عند تفسير هذه الآية من سورة التوبة.

كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى. (١)

واعلم أن ترتيب هذه المنازل التي تقدمت ليس باعتبار أن السائر إلى الله يقطع المنزل ويفارقها إلى المنزل الأخرى، كمنازل السير الحسي هذا محال، ألا ترى أن اليقظة معه في كل وقت لا تفارقه وكذلك البصيرة والإرادة والعزم، وكذلك التوبة فإنها كما أنها أول المنازل فهي آخرها أيضاً، بل هي في كل وقت مستصحبة، وإغا هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له. (٢)

(١) انظر مدارج السالكين ١٨٦/١-١٨٧

(٢) انظر مدارج السالكين ١٣٣/١

المبحث الرابع

الإيمان

وهو من أعظم أوصاف القلب السليم

والإيمان في اللغة: هو التصديق.^(١)

وفي الشرع: قول وعمل يزيد وينقص قول القلب واللسان وعمل

القلب واللسان والجوارح.^(٢)

وأدلة قول القلب وهو اليقين والتصديق منها قوله تعالى: (إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)^(٣) وقوله تعالى:

(وَكَذٰلِكَ نَرٰى ءِِبْرٰهِيْمَ مَلَكُوْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُوْنُ مِنَ الْمُوْقِنِيْنَ).^(٤)

وأدلة قول اللسان منها قوله تعالى: (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا

وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ ءِِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسٰى وَعِيسٰى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُوْنَ).^(٥)

وأدلة عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال

على الله عز وجل والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه فمنها قوله تعالى:

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوَّةِ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)^(٦)

(١) انظر اللسان عند مادة (أمن) ٢١/١٣، وقاموس القرآن ص (٤٧) والنهاية في

غريب الحديث والأثر ١/٦٩-٧٠

(٢) انظر العقيدة الواسطية ص ١٦١ وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣-٣٨٧

(٣) جزء من الآية ١٥ سورة الحجرات.

(٤) آية ٧٥ سورة الأنعام.

(٥) آية ١٣٦ سورة البقرة.

(٦) جزء من الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

وقوله تعالى: (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً)^(١) وقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى".^(٢)

وأما عمل اللسان وهو الذي لا يؤدي إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار وغير ذلك.

وعمل الجوارح وهو مالا يؤدي إلا بها مثل القيام والركوع والسجود والحج والجهاد وغير ذلك وأدلة ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: (إن الذين يتلون كتب الله وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقهم سراً وعلاية يرجون تجرة لن تبور).^(٣)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان".^(٤)

وأما كون الإيمان يزيد وينقص فهذا هو قول سلف هذه الأمة عليهم رحمة الله تعالى.^(٥)

(١) جزء من الآية ٢ سورة الأنفال.

(٢) أخرجه البخارى ١٣/١ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي برقم (١) ومسلم في الصحيح ١٥١٥/٣ كتاب الإمامة (٣٣) باب قوله (إنما الأعمال بالنية) برقم ١٥٥

(٣) آية ٢٩ من سورة فاطر.

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٠/١ كتاب الإيمان (٢) باب أمور الإيمان (٣) الحديث رقم (٩) بلفظ "الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان" ومسلم في صحيحه ٦٣/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان (١٢) حديث رقم (٣٥/٥٨).

(٥) نقله أبو القاسم اللالكائى في "كتاب السنة" عن الشافعى وأحمد بن حنبل ==

واسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما كقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)^(١) وكقوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"^(٢) وتارة يذكر مقروناً إما بالإسلام كقوله في حديث جبريل: "ما الإسلام وما الإيمان؟"^(٣) وكقوله تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)^(٤) وقوله عز وجل: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)^(٥) وقوله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(٦).

وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح في مواضع من القرآن

-
- (=) وإسحق بن راهوية وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة.
 وروى بسند صححه ابن حجر عن البخارى قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى ٥/ من ص ٨٨٥ إلى ص ٩١٠، فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ٤٧/١
- (١) جزء من الآية ٢ من سورة الأنفال.
- (٢) تقدم آنفاً.
- (٣) وهو حديث جبريل الطويل وقد تقدم تخريجه ص (٢٠).
- (٤) جزء من الآية ٣٥ سورة الأحزاب.
- (٥) جزء من الآية ١٤ سورة الحجرات.
- (٦) الآيتان ٣٥ و ٣٦ من سورة الذاريات.

كقوله تعالى: (إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (١).

وكذلك ذكر مقروناً بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى: (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) (٢) وقوله: (يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). (٣) وحيث ذكر الذين ءامنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فإنهم خيارهم قال تعالى: (والرأسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا). (٤)

وعلى هذا فإن الإيمان إذا ذكر مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها وجعل الإيمان مافي القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن تأمل حديث جبريل وغيره من النصوص عرف ذلك يقيناً.

وأما إذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة ومن تأمل حديث "الإيمان بضع وسبعون شعبة" وغير ذلك من النصوص التي تكون فيها أعمال البر من الإيمان عرف ذلك. (٥)

والإيمان محله القلب قال تعالى: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنّ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون). (٦)

(١) جزء من الآية ٧ سورة البينة.

(٢) جزء من الآية ٥٦ سورة الروم.

(٣) جزء من الآية ١١ سورة المجادلة.

(٤) جزء من الآية ٧ سورة آل عمران.

(٥) انظر الإيمان ٩ - ١١

(٦) الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

قال ابن جرير رحمه الله: يقول جل ثناؤه هؤلاء الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم كتب الله في قلوبهم الإيمان وإنما عنى بذلك قضى لقلوبهم الإيمان ففي معنى اللام.^(١) ثم ذكر رحمه الله أنه خص القلب لأنه مكان الإيمان^(٢) فالمعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله وذلك لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب مع ذلك عدوه.

وقد أكد الله عز وجل المنع من هذه المودة من وجهين:

أولهما: ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا تجتمعان.

ثانيهما: قوله (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوباً مطروحاً بسبب الدين.^(٣)

والإيمان من أعظم أوصاف القلب فمن فقدوه فهو لما سواه أفتقد ومن وجد في قلبه فماله إلى خير ولذلك وصفه الله عز وجل بالخيرية كما في قوله تعالى: (يأئبها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)^(٤) عن ابن عباس قوله: (يأئبها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى...) الآية وكان العباس^(٥) أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب

(١) جامع البيان ٢٦/٢٨-٢٧

(٢) انظر جامع البيان ٢٧/٢٨

(٣) انظر مفاتيح الغيب ٢٩/٢٧٧

(٤) آية ٧٠ من سورة الأنفال.

(٥) هو العباس بن عبدالمطلب بن هاشم أبو الفضل من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله

فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله خصلتين مأحب أن لي بهما الدنيا أني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فأتاني أربعين عبداً وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله. (١)

وقد قال ابن جرير رحمه الله عن معنى خيراً: إسلاماً. (٢)

وليس المراد بالخير هو مجرد الميل بل المراد ما يترتب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله تعالى: (ويغفر لكم). (٣)

ومن الأمور التي نستفيد منها من هذه الآية الكريمة أن الإسلام إنما يستبقى الأسرى لديه ليلمس في قلوبهم مكانم الخير والرجاء والصلاح وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقى والتأثر والاستجابة للهدى لا ليستذلهم انتقاماً ولا ليسخرهم استغلالاً كما كانت تتجه فتوحات الأجناس والأقوام. (٤)

وكذلك في الآية بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ماداموا قوامين بأسباب النصر المعنوية والمادية والعلمية والعملية. (٥)

ومما ينبغي أن يعلم أن حب الإيمان واستقراره بالقلب إنما هو فضل من الله عز وجل ومنة، وقد ثمن الله عز وجل على عباده بذلك كما في

(=) وشهد حنين والفتح وعمى في آخر عمره وكانت وفاته في المدينة سنة ٣٢هـ.

انظر السير ٧٨/٢، والاستيعاب ٨١٠/٢

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٤٩/١٠

(٢) جامع البيان ٤٩/١٠

(٣) التحرير والتنوير ٨٠/١٠

(٤) انظر في ظلال القرآن ١٥٥٣/١٠

(٥) تفسير المنار ١٠١/١٠-١٠٢

قوله تعالى: (ولكن الله حبيب إليكم الإيمن وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم)^(١) وهذه الآية جاءت في معرض الحث على التثبت في الأخبار^(٢) وفيها يبين الله عز وجل لعباده أنه تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم أو محبوباً لديهم فلا يقع منهم إلا ما يوافقهم ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع في الأخبار وعدم التثبت فيها.

- (١) جزء من الآية ٧ والآية ٨ بتمامها من سورة الحجرات.
- (٢) فقد جاء في الآية التي قبلها قوله تعالى: (يأيتها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (الحجرات: ٦). وسبب نزول هذه الآية والآيتين بعدها ماساقه الواحدى بسنده إلى الحارث بن ضرار أنه قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت في الإسلام وأقررت فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها فقلت: يارسول الله أرجع إلى قومي فأدعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لى جمعت زكاته فترسل لإبان كذا وكذا لآتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث بن ضرار ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد أن يبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله ورسوله فدعا سروات قومه فقال لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان وقت لى وقتاً ليرسل إلى ليقبض ماكان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف، ولا أرى حبس رسول الله إلا من سخطه، فانطلقوا فنأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن الحارث يقبض ماكان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فقال: يارسول الله، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة، فلقىهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فرجع إليه فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق مارأيتته ولا أتانى،

وفيها أيضاً تذكير بما يقتضيه الإيمان وتوجيه محبته وتحسينه للذات جعلهما الله في قلوبهم بفضلته وتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه من الأقوال والأفعال. (١)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذى حُب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء كقوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) (٢) وقوله تعالى: (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه). (٣) وقوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم قائلين هم الخسرون) (٤) وقوله تعالى: (ونفس وما سوّرها. فأنهها فجورها وتقورها) (٥) والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة نرجوا الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا. (٦)

(=) فلما أن دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ قال: لا والذى بعثك بالحق مارأيت رسولك ولا أتانى، ولا أقبلت إلا حين احتبس على رسولك خشية أن تكون سخطة من الله ورسوله، قال: فتزلت في الحجرات: (يأيتها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) إلى قوله تعالى: (فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم).

أسباب النزول للواحدى ص ٣٩١-٣٩٢

- (١) انظر فتح القدير ٦٠/٥
- (٢) جزء من الآية ١٧ سورة الكهف.
- (٣) جزء من الآية ٩٧ سورة الإسراء.
- (٤) آيه ١٧٨ من سورة الأعراف.
- (٥) الآيتان ٧ و ٨ من سورة الشمس.
- (٦) أضواء البيان ٦٢٨/٧

المبحث الخامس

اليقين

اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو

موقن ويقن واليقين تقيض الشك والعلم تقيض الجهل.^(١)

قال الراغب: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها

يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم.^(٢)

وهو من الإيمان بمثلة الروح من الجسد فيه تفاضل العارفون وفيه

تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمل القوم إنما كان عليه

وإشاراتهم كلها إليه وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة

في الدين قال تعالى وبقره يهتدي المهتدون (وجعلنا منهم أئمة يهدون

بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون)^(٣) وماذا لك إلا لأن الصبر واليقين

هما أصلاً التوكل.

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين فقال وهو

أصدق القائلين (وفي الأرض آيات للموقنين)^(٤) وخص أهل اليقين

بالهدى والفلاح من بين العاملين فقال: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما

أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك

هم المفلحون).^(٥)

قال صاحب الظلال: واليقين بالأخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش

(١) اللسان (يقن) ٤٥٧/١٣

(٢) المفردات (يقن) ص ٥٥٢

(٣) آيه ٢٤ من سورة السجدة.

(٤) آيه ٢٠ من سورة الذاريات.

(٥) الآيتان ٤ و ٥ من سورة البقرة.

بين جدران الحس المغلقة ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب، بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ماله في هذا الوجود وبين من يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود.^(١)

وقد أخبر الله عز وجل عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين فقال تعالى: (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين).^(٢)

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك؟ وأسخر لك الحيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع؟^(٣) فيقول: بلى، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فإني أنساك كما نسيتني.^(٤)

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح فإنه لا يترك هوى نفسه إلى طاعة الله عز وجل إلا من استقر اليقين في قلبه، فإن النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة، وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك هواه، ولهذا قال تعالى: (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى).^(٥) (٦)

(١) في ظلال القرآن ٤١/١

(٢) آيه ٣٢ من سورة الجاثية.

(٣) تربيع: أى تأخذ ربع الغنيمة، يريد ألم أجعلك رئيساً مطاعاً لأن الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه ويسمى ذلك الربع المرباع.

انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (ربع) ١٨٦/٢

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٧٩/٤-٢٢٨٠ كتاب الزهد والرقائق (٥٣) حديث رقم (١٦-٢٩٦٨).

(٥) آيه ٤٠ من سورة النازعات

(٦) انظر الفتاوى ١٨٢/١٦

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلاً نوراً وإشراقاً وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلاً محبة لله وخوفاً منه ورضاً به وشكراً له وتوكلاً عليه وإنابة إليه. وهو على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: علم اليقين:

وهو ما علمه بالسمع والخبر والقياس والنظر مثل من أخبر أن هناك عسلاً فصدق المخبر أو رأى آثار العسل واستدل على وجوده.

وهذه الدرجة تشمل الإيمان بأشرف علوم الخلائق علم الأمر والنهي وعلم الأسماء والصفات والتوحيد وعلم المعاد واليوم الآخر.

الدرجة الثانية: عين اليقين:

وهي ما شاهده وعينه بالبصر مثل من رأى العسل وشاهده وعينه وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة".^(١)

فعلّمنا الآن بالجنة والنار علم يقين فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق وبرزت الجحيم للغاوين وعانيتها الخلائق فذلك عين اليقين.

الدرجة الثالثة: حق اليقين:

وهو ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى

(١) رواه أحمد ٢١٥/١ وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسنَد ١٨٤٢/٣

في النار". (١)

وقال صلى الله عليه وسلم: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً
وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً". (٢)

والناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه
على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه أو يبلغه ما أخبر
به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

الثانية: من شاهد ذلك وعينه مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة
بالله عز وجل والصدق واليقين ما يعرف به ما يجدونه من طعم للإيمان وإن
كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجوده ولكن شاهد ما دل عليه لكن
هو أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم.

الثالثة: أن يحصل له في نفسه ما كان سمعه كما قال بعض الشيوخ لقد
كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال
إنهم لفي عيش طيب. (٣)

والناس إذا باشروا ما أخبروا به من أمر الآخرة فدخل أهل الجنة
الجنة وذاقوا ما كانوا يوعدون ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب من كره أن يعود في
الكفر كما يكره أن يلقي في النار من الإيمان (١٤) حديث رقم (٢١) ومسلم في
صحيحه ٦٦/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة
الإيمان (١٥) حديث رقم (٤٣/٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٦٢/١ كتاب الإيمان (١) باب الدليل على أن من رضى
بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن (١١)
حديث رقم (٣٤/٥٦).

(٣) انظر الفتاوى ٦٤٥/١٠ - ٦٤٦ - ٦٤٧

فذلك حينئذ حق اليقين.

نعم قد يحصل للناس حق اليقين في هذه الدنيا بالنسبة لحقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب وأعمالها فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق يقين وأما في أمور الآخرة والمعاد ورؤية الله جهرة عياناً وسماع كلامه بلا واسطة فحظ المؤمن منه في هذه الدار الإيمان وعلم اليقين، وأما حق اليقين فإنه يتأخر إلى وقت اللقاء. (١)

المبحث السادس

المحبة

الحب تقيض البغض، والحب الوداد والمحبة، وكذا الحب بالكسر، وأحبه فهو مُحِبٌ وهو مُحَبُّوبٌ على غير قياس، هذا الأكثر، وقد قيل مُحِبٌ على القياس. (١)

قال ابن القيم رحمه الله: لا تحدد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، فلا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهداها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، فتنوعت لهم العبارات وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة. (٢)

والمحبة هي المتزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلمِهَا شَمَّرَ السابقون، وعليها تَفَانَى المحبون، وِبِرَّوْحٍ نسيمها تَرَوَّحَ العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في جحر الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهى روح الإيمان والأعمال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، تبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا

(١) اللسان: عند مادة حب ٢٨٩/١

(٢) مدارج السالكين ٩/٣

لولاها داخلها، وهي مطايا القوم^(١) التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب.^(٢) فيالها من نعمة على المحبين سابعة، تالله لقد سبق القوم الساعة، وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل، وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل تشي رويداً وتجي في الأول أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حى على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضا والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.^(٣) واعلم أن المحبة قسمان: محبة خاصة، ومحبة مشتركة.

فالقسم الأول المحبة المشتركة: وهي ثلاثة أنواع: أحدها: محبة طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ونحو ذلك، وهذه لاتستلزم التعظيم.

(١) المطية هى الدابة تخطو أى تجد في سيرها. انظر القاموس المحيط عند مادة (مطا) (ص ١٧٢٠).

(٢) كما في حديث ابن مسعود أنه قال: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال: المرء مع من أحب".

أخرجه البخارى في صحيحه ١٢٣/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب علامة الحب في الله (٩٦) حديث رقم (٦١٦٩) ومسلم في صحيحه ٢٠٣٤/٤ كتاب البر (٤٥) باب المرء مع من أحب (٥٠) الحديث رقم (٢٦٤٠/١٦٥).

(٣) انظر مدارج السالكين ٦/٣، ٧

النوع الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

النوع الثالث: محبة أنس وإلف، وهى محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر، بعضهم بعضاً، كمحبة الإخوة بعضهم بعضاً، فهذه الأنواع الثلاث هى المحبة التى تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله، ولهذا "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل"^(١) و"كان أحب الشراب إليه الحلو البارد"^(٢) وكان يعجبه من اللحم الذراع^(٣) وكان يحب نساءه، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن إليه ويحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق.^(٤)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٤١/٣ كتاب الأطعمة (٧٠) باب الحلوى والعسل (٣٢) حديث رقم (٥٤٣١) ومسلم في صحيحه ١١٠١/٢ كتاب الطلاق (١٨) باب

وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (٣) حديث رقم (١٤٧٤/٢١).
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٨/٦ والترمذى في السنن ٣٠٧/٤ كتاب الأشربة (٢٧)

باب ماجاء أى الشراب كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢١) حديث رقم (١٨٩٥) وقال: هكذا روى غير واحد عن ابن عيينة مثل هذا عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة والصحيح ماروى عن الزهرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا.

وقد صحح المرفوع فضيلة الشيخ ناصر الدين الألبانى في صحيح الترمذى ١٧٤/٢ حديث رقم (١٥٤٥-١٩٧٤).

وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرک ١٣٧/٤ كتاب الأشربة وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضى الله عنه وفيه "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة، فرفعت إليه الذراع وكانت تعجبه ...".

أخرجه البخارى في صحيحه ٣٧١/٦ كتاب الأنبياء (٦٠) باب قول الله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) (٣) حديث رقم (٣٣٤٠) ومسلم في صحيحه

١٨٤/١ كتاب الإيمان (١) باب أدنى أهل الجنة منزله (٨٤) حديث رقم (١٩٤/٣٢٧).

(٤) كما ورد في الصحيحين عن أبي عثمان "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ==

القسم الثاني: المحبة الخاصة، وهى التى لاتصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لا يغفره الله، فهى محبة العبودية، المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً، وهى التى سَوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين ءامنوا أشد حباً لله)^(١) والمعنى فى أصح القولين^(٢) يحبونهم كما يحبون الله، وسَوَّوْا بين الله وبين أندادهم فى المحبة، ثم نفى ذلك عن المؤمنين، فقال: (والذين ءامنوا أشد حباً لله) فالذين آمنوا وأخلصوا حبهم لله لم يشركوا فيه معه غيره، فأما المشركون فلم يخلصوا لله، دل على ذلك قوله تعالى فى آية أخرى (تالله إن كنا لفي ضلل مبين إذ نسويكم برب العلمين)^(٣) فهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات حيث اعتقدوا أنها مساوية لله فى أفعاله وصفاته، وإنما كانت

(=) بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل قال فأتيته فقلت: أى الناس أحب إليك ؟ قال: عائشة، قلت: من الرجال ؟ قال: أبوها، قلت: ثم من ؟ قال: عمر، فعد رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلني فى آخرهم".

أخرجه البخارى فى صحيحه ١٦٤/٣ كتاب المغازى (٦٤) باب غزوة ذات السلاسل (٦٣) حديث رقم (٤٣٥٨).

ومسلم فى صحيحه ١٨٥٦/٤ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب من فضائل أبي بكر الصديق رضى الله عنه (١) حديث رقم (٢٣٨٤/٨).

(١) جزء من الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

(٢) والقول الثانى أن الذين اتخذوا هذه الأنداد من دون الله يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله، ثم أخبرهم أن المؤمنين أشد حباً لله من متخذى هذه الأنداد لأندادهم. جامع البيان ٦٦/٢ والقول الأول تشهد له آيات أخرى كما هو موضح فى المتن.

(٣) الآيتان ٩٧ و ٩٨ من سورة الشعراء.

تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، وتصحيح ذلك هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها، أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً فتكون أهم الأشياء عنده وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها، قال تعالى: (فوربك لنسئلنهم أجمعين. عما كانوا يعملون)^(١) وهذه التسوية كذلك هي العدل المذكور في قوله تعالى: (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)^(٢) على أصح القولين. (٣)(٤)

وقد جعل الله لأهل محبته علامات:

أولها: اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيل الله عز وجل، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، وقد قال الله تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأق الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين).^(٥) وقال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم).^(٦)

(١) الآيتان ٩٢ و ٩٣ من سورة الحجر.

(٢) جزء من الآية ١ من سورة الأنعام.

(٣) والقول الثاني أن الباء بمعنى (عن) والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوى، إذ لا تقول العرب عدلت بكذا أى عدلت عنه وإنما جاء هذا في فعل السؤال نحو: سألت بكذا أى عنه كأنهم ضمنوه اعتنيت به واهتممت. انظر مدارج السالكين ٢١/٣

(٤) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٩، وتيسير العزيز الحميد

ص ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩

(٥) آيه ٢٤ من سورة التوبة.

(٦) آيه ٣١ من سورة آل عمران.

وهذه الآية تسمى آية المحنة، قال أبو سليمان الداراني^(١): لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).^(٢)

وقوله تعالى: (يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، ودليلها وعلامتها اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منفية.

العلامة الثانية والثالثة: الواردتان في قوله تعالى: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)^(٣) فهم أذلة على المؤمنين.

ومعناه أرقاء رحماء مشفقون عاطفون عليهم ولما ضمن أذلة هذا المعنى عداه بأداة على، قال بعض السلف بالمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (أشداء على الكفار رحماء بينهم).^(٤)

العلامة الرابعة: أنهم لاتأخذهم في الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم عن محبوه، فليس بمحب على الحقيقة كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه اللوم

(١) هو: عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسى أبو سليمان الداراني زاهد مشهور

رحل إلى بغداد وأقام بها له أخبار كثيرة في الزهد، توفي سنة ٢١٥هـ.

انظر وفيات الأعيان ١٣١/٣، وحلية الأولياء ٢٥٤/٩

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ٢١/٣

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٤) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

قال تعالى: (يأيتها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) (١)(٢)

وقال تعالى: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً) (٣)
ذكر تعالى في هذه الآية مقامات الحب الثلاثة، ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربته، وحب قربته تبع لمحبة ذاته، فمحبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، وعند الجهمية (٤) والمعتلة (٥) مامن ذلك كله شيء فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء ولا يقرب من ذاته شيء، فلا يحب لذاته ولا يحب، فأنكروا حياة القلوب ونعيم الأرواح وبهجة النفوس وقرّة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضربت دونهم ودون الله حجب عن معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها، وحسب ذى البصيرة وحي القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله عز وجل ومعرفته وتوحيده، والله المستعان. (٦)

(١) جزء من الآية ٥٤ سورة المائدة.

(٢) انظر العبودية ص ٢٨، ومدارج السالكين ٢١/٣-٢٢.

(٣) آية ٥٧ من سورة الإسراء.

(٤) الجهمية: هم أصحاب الجهم بن صفوان وهو من الجيرية الخالصة ظهرت بدعته

بترمذ وقتله مسلم بن أحوز المازنى بمزو في آخر ملك بنى أمية وافق المعتزلة في

نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء. انظر الملل والنحل ٨٦/١

(٥) المعتزلة هم جميع من تعرض لصفات الله عز وجل بتأويل أو نفى أو تحريف.

(٦) انظر مدارج السالكين ٢٢/٣-٢٣ بتصرف.

وقال تعالى: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون وجهه). (١)

وقال أحبابه وأولياؤه (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا). (٢)

وقال تعالى: (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى). (٣)

فجعل غاية أعمال الأبرار والمحبين إرادة وجهه.

وقال تعالى: (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً) (٤) فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة.

كما في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفذ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهدين" (٥) وقد اشتمل هذا الحديث الشريف على

(١) جزء من الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٩ من سورة الإنسان.

(٣) الآية ١٩ و ٢٠ و ٢١ من سورة الليل.

(٤) الآية ٢٩ من سورة الأحزاب.

(٥) أخرجه النسائي في السنن ٥٤/٣-٥٥ كتاب السهو (١٣) باب رقم (٦٢) حديث

رقم (١٣٠٥) وقد صححه الشيخ الألباني في صحيح النسائي ٢٨٠/١-٢٨١ حديث

رقم (١٢٣٧).

ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه، وعند
الجهمية لا وجه له - سبحانه - ولا ينظر إليه فضلاً أن يحصل به لذة، كما
سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال: "ويحك ! هب أن له وجهاً
أفتلتذ بالنظر إليه؟" (١).

ومتى تمكنت محبة الله تعالى من القلب أدى ذلك إلى أن يؤثر المحب
محبوبه على كل حظوظ نفسه بل حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحي بنفسه
في سبيل محبوبه كحال سحرة فرعون لما سكنت المحبة قلوبهم سمحوا ببذل
نفوسهم وقالوا لفرعون (فاقض ماأنت قاض) (٢) ومتى تمكنت المحبة من
القلب لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب، وهذا هو معنى قوله تعالى في
الحديث القدسي (٣) "وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا
أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش
بها، ورجله التي يمشي بها" (٤).

والمعنى أن محبة الله تعالى إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم
تنبعث الجوارح إلا إلى مرضي الرب، وصارت النفس حينئذ مطمئنة بإرادة

(١) انظر مدارج السالكين ٢٢/٣-٢٤

(٢) جزء من الآية ٧٢ من سورة طه.

(٣) للعلماء رحمهم الله تعالى قولان في الأحاديث القدسية الأول أنها من كلام الله
تعالى وليس للنبي صلى الله عليه وسلم إلا حكايتها عن ربه عز وجل وذلك
لكونها أضيفت إلى الله فقيل قدسية والهيبة ولكونها اشتملت على ضمائر التكلم
الخاصة به كقوله يا عبادي ولأنها تروى عن الله تعالى متجاوزاً فيها النبي
صلى الله عليه وسلم والثاني أنها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه كالأحاديث
النبوية وحكمة إضافتها إليه تعالى على هذا القول دون بقية الأحاديث زيادة
الاهتمام بمضمونها وتوجيه النفوس إلى ما اشتملت عليه من المعاني والآداب،
والله أعلم. انظر الحديث والمحدثون ص ١٦-١٨

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٢/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب التواضع (٣٨)

مولاهما عن مرادها وهوها. (١)

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم كقوله تعالى: (والله يحب الصّبرين) (٢) (والله يحب المحسنين) (٣) (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (٤) (إن الله يحب الذين يقتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) (٥) (فإن الله يحب المتقين). (٦)

وقوله في ضد ذلك: (والله لا يحب الفساد) (٧) (والله لا يحب كل مختال فخور) (٨) (والله لا يحب الظالمين) (٩) (إن الله لا يحب كل مختال فخور). (١٠)

وكم في السنة: أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا... وإن الله ليحب كذا وكذا، كقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل". (١١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها

-
- (١) انظر كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب ص ٤٣
 - (٢) جزء من الآية ١٤٦ من سورة آل عمران.
 - (٣) جزء من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
 - (٤) جزء من الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.
 - (٥) الآية ٤ من سورة الصف.
 - (٦) جزء من الآية ٧٦ من سورة آل عمران.
 - (٧) جزء من الآية ٢٠٥ من سورة البقرة.
 - (٨) جزء من الآية ٢٣ من سورة الحديد.
 - (٩) جزء من الآية ٥٧ من سورة آل عمران.
 - (١٠) جزء من الآية ١٨ من سورة لقمان.
 - (١١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٠/١ كتاب الإيمان (٢) باب أحب الدين إلى الله أدومه (٣٢) حديث رقم (٤٣).
- ومسلم في صحيحه ٥٤٠/١-٥٤١ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب فضيلة العمل الدائم (٣٠) حديث رقم (٧٨٢/٢١٥).

وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها". (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت". (٢) وأضعاف أضعاف ذلك، وفرحه العظيم بتوبة عبده الذى هو أشد فرح يعلمه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله فإنها روح كل مقام وموتلة كل عمل، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها بل هى حقيقة الإخلاص، بل هى نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لاهبة له لا إسلام له البتة، بل هى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى يألهه العباد حباً وذكلاً، وخوفاً ورجاءً، وطاعةً له، بمعنى مألوه وهو الذى تأله القلوب أى تحبه وتذل له، وأصل التأله التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، يقال عبّده الحب وتيّمه، إذا ملكه وذلكه لمحوبه، فالمحبة حقيقة الألوهية، وهل تكن الإنابة بدون المحبة؟ وكذلك الرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء؟ وهل الصبر فى الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب فى حصول محابه ومراضيه، وكذلك الزهد فى الحقيقة هو زهد المحبين، فإنهم يزهدون فى محبة ماسوى محبوبهم لمحبتهم، وكذلك الحياء فى الحقيقة، إنما هو حياء المحبين، فإنه يتولد من بين الحب العظيم، وأما مالا يكون عن محبة فذلك خوف محض، وكذلك الشوق إلى الله تعالى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ٤٦٤/١ كتاب المساجد (٥) باب فضل الجلوس فى مصلاه

بعد الصبح وفضل المساجد (٥٢) حديث رقم (٦٧١/٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ١٦٨٥/٣ كتاب الآداب (٣٨) باب كراهة التسمية (٢)

حديث رقم (٢١٣٧/١٢).

ولقائه فإنه لب المحبة وسرها فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب معطل لذلك كله وحجابه أكثف الحجب وقلبه أقسى القلوب وأبعدها عن الله وهو منكر خلعة إبراهيم عليه السلام فإن الخلعة كمال المحبة، فلا بالخلعة أقر المنكرون، ولا بالعبودية ولا بتوحيد الألوهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان، ولهذا ضحى خالد بن عبدالله القسرى^(١) بمقدم هؤلاء وشيخهم الجعد بن درهم^(٢) وقال في يوم عيد الله الأكبر عقب خطبته: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه فشكر المسلمون سعيه ورحمه الله وتقبل منه.^(٣) وللمحبة عشر مراتب:

أولها: العلاقة: وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحجوب.

الثانية: الإرادة: وهي ميل القلب إلى محبوه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة: وهي انصباب القلب إليه، بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام: وهو الحب الملازم للقلب، الذي لا يفارقه بل يلازمه كملازمة

(١) هو خالد بن عبدالله بن يزيد القسرى من بجيلة أبو الهيثم أمير العراقيين وأحد خطباء العرب من أهل دمشق ولى مكة والكوفة والبصرة وأقام بالكوفة فأطال المدة بها وتوفي سنة ١٢٦هـ. انظر وفيات الأعيان ٢/٢٢٦، والبداية والنهاية ١٠٥/٣

(٢) هو الجعد بن درهم مبتدع له أخبار في الزندقة وقال بخلق القرآن والقدر من الموالي سكن الجزيرة الفراتية هلك سنة ١١٨هـ. انظر الكامل ٥/١٦٠، وميزان الاعتدال ١/٣٩٩

(٣) انظر مدارج السالكين ٣/٢٥-٢٧ بتصريف.

الغريم لغريمه.

الخامسة: الوداد: وهو صفو المحبة وخالصها ولبها.

السادسة: الشغف: وفيه ثلاثة أقوال: أنه الحب المستولى على القلب بحيث يحجبه عن غيره. والثانى: أنه الحب الواصل إلى داخل القلب.

والثالث: انه الحب الواصل إلى غشاء القلب.

السابعة: العشق: وهو الحب المفرط، الذى يخاف على صاحبه منه.

الثامنة: التتيم: وهو التعبد والتذلل، يقال: تيمم الحب أى ذلله وعبدته وتيم الله عبد الله.

التاسعة: التعبد: وهو فوق التتيم، فإن العبد هو الذى قد ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيء من نفسه البتة، بل كله عبد لمحبوبة ظاهراً وباطناً، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن أكمل ذلك فقد أكمل مرتبتها، ولما أكمل سيد ولد آدم هذه المرتبة، وصفه الله بها في أشرف مقاماته مقام الإسرائء، كقوله (سبحن الذى أسرى بعبده) (١) ومقام الدعوة كقوله (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) (٢) ومقام التحدى كقوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) (٣) وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة. وحقيقة العبودية الحب التام مع الذل التام والخضوع للمحبوب.

العاشرة: مرتبة الخلعة: وهى التى انفرد بها الخليلان، إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(١) جزء من الآية ١ من سورة الإسرائء.

(٢) جزء من الآية ١٩ من سورة الجن.

(٣) جزء من الآية ٢٣ من سورة البقرة.

"لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخى وصاحبى
وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً". (١)

والخللة هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه
موضع لغير المحبوب. (٢)

وفي الختام يحسن بنا أن نذكر المواطن التي يُعرَف بها تعلق القلب
بمحبوبه، وهذه المواطن أربعة:

الموطن الأول: عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه عن
الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحب فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل
قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر
محبوبه فإنه إذا استيقظ وردت إليه روحه رد معها إليه ذكر محبوبه الذي
كان قد غاب منه في النوم.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان
الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه، ومقدار قربه من الله
ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه،
فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألد لقلبه ولا أنعم لعيشه منها، إذا كان محباً،
فإنه لاشيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له،
ومثوله بين يديه، وقد أقبل محبوبه عليه، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح
واستراح، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال (٣) رضى الله عنه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٥٥/٤ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب من فضائل
أبي بكر رضي الله عنه (١) حديث رقم (٢٣٨٣/٣).

(٢) انظر مدارج السالكين ٣/٢٧-٣٠.

(٣) هو بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق وأمه حمامة وهو مؤذن ==

"يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها" (١) ولم يقل أرحنا منها كما يقول المبطلون الغافلون.

الموطن الرابع: عند الشدائد والأحوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوه الأعظم عنده، ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبون عند الحرب واللقاء وهو كثير في أشعارهم. ولهذا قال تعالى: (يأيتها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون). (٢)

والسر في هذا والله أعلم أنه عند مصاعب الشدائد والأحوال، يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياء إليه، وهى حياته التى لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوه، فهو إنما يحب حياته لتعمه بمحبوه، فإذا خاف فواتها بادر إلى قلبه ذكر محبوه الذى يفوت بفوات حياته.

ولهذا فمن كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبه في حال حياته، وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، مالم تدركه عناية من ربه، فلأجل هذا كان جديراً بالعقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التى إن فاتت شقي شقاوة الأبد. (٣)

(=) رسول الله صلى الله عليه وسلم من السابقين الأولين الذين عذبوا في الله، شهد بداراً وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم على التعيين بالجنة وحديثه في الكتب، توفي سنة ٢٠هـ، وقيل غير ذلك. انظر السير ٣٤٧/١، الإصابة ١٦٩/١ برقم (٧٣٦).

(١) رواه أبو داود في السنن ٢٩٦/٤ كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة حديث رقم (٤٩٨٥) وأحمد في المسند ٣٦٤/٥

وقد صححه الشيخ الألبانى في صحيح سنن أبي داود ٩٤١/٣ حديث رقم (٤١٧١).

(٢) الآية ٤٥ من سورة الأنفال.

(٣) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتین (ص ٥٠٤-٥٠٧).

المبحث السابع

الرجاء والخوف

اعلم أن الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما تقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود^(١) فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقیل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب، ومشاق الجوارح والأعضاء، إلا أزمة^(٢) الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الألم مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات^(٣) التعنيف^(٤).

والقلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر: المحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحين فهو عرضه لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف^(٥).

(١) عقبة كؤود: صعبة. انظر القاموس المحيط عند مادة (كأد) ص ٤٠١

(٢) الزمام: مازم أى ماشد به من حبل وغيره. انظر اللسان عند مادة (زمم)

٢٧٢/١٢

(٣) سطوات: جمع سطوة وهي القهر والصول. انظر القاموس المحيط عند مادة

(سطا) ص ١٦٧٠

(٤) إحياء علوم الدين ١٤٩/٤

(٥) مدارج السالكين ٥١٧/١

قال المرداوى: (١)

ورجح على الخوف الرجاء عند بأسه

ولاق بحسن الظن ربك تسعد (٢)

وليس معنى هذا خلو القلب حال الشدة من الخوف، بل لابد من اجتماع الخوف والرجاء، وإن كانت الغلبة للرجاء، يدل على ذلك ما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو بالموت فقال: "كيف تجدك؟ قال: والله يارسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف". (٣) ومما يدل على تغليب الرجاء حال المصائب قوله تبارك وتعالى:

(١) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوى بن بدران بن سعد الله المقدسي المرداوى الصالحى الحنبلى أبو عبدالله ولد سنة ٦٣٠هـ بمرو .

وسمع الحديث وتفقه وبرع في العربية واللغة واشتغل ودرس وأفتى وصنف، كان حسن الديانة دمث الأخلاق كثير الإفادة مطرحاً للتكلف وله روايات وحكايات ونوادير، فقيه حنبلى، توفي بدمشق سنة ٦٩٩هـ له منظومة الآداب.

انظر شذرات الذهب ٤٥٢/٥، والأعلام ٢١٤/٦

(٢) منظومة الآداب مع شرحها غذاء الألباب للسفارينى الحنبلى رحمه الله ٤٦٠/١

(٣) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٣/٣١١ كتاب الجنائز (٨) باب (١١) حديث

رقم (٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب وقد روى بعضهم هذا الحديث عن

ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا.

وأخرجه ابن ماجه في السنن ٢/١٤٢٣ كتاب الزهد (٣٧) باب ذكر الموت

والاستعداد له (٣١) حديث رقم (٤٢٦١).

وقد حسن الشيخ الألبانى هذا الحديث كما في صحيح سنن الترمذى ٢٨٩/١

حديث رقم (٧٨٥).

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون). (١)

فَقوله تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنهم بالبأساء) يعنى الفقر والضييق في العيش (والضراء) هى الأمراض والأسقام والآلام (لعلهم يتضرعون) أى يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون. قال الله تعالى: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا. وتمسكنوا إلينا (ولكن قست قلوبهم) أى مارقت ولا خشعت (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) أى من الشرك والمعاصي. (٢)

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (ولقد أخذنهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) (٣) وقوله تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسءأبنا الضراء والسراء فأخذنهم بغتة وهم لا يشعرون). (٤)

وهذه الآية الأخيرة كما أنها دلت على ما دلت عليه الآيتان السابقتان من غلبة الرجاء في حال الشدة، لأن التضرع دعاء وابتتهال فيه رجاء. فكذاك دلت أيضاً على تغليب حال الخوف عند انفتاح النعم وتحسن الأحوال، فإن الله عز وجل قد ذكر لنا في هذه الآية أنه بعد أن ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذى أراد منهم، قلب الحال إلى

(١) الآيتان ٤٢ و ٤٣ من سورة الأنعام.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٥١/٣

(٣) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.

(٤) الآيتان ٩٤ و ٩٥ من سورة الأعراف.

الرخاء ليختبرهم حتى كثرت أموالهم وأولادهم فلما لم ينجح فيهم هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر. (١)
وهذا مشعر بأن المؤمن عليه أن يظل في حال الخوف وذلك عند انفتاح النعم فإنه لا يأمّن أن يكون ذلك استدراجاً من الله تعالى. نسأل الله السلامة والعافية.

والرجاء من الأمل تقيض اليأس (٢) وهو ظن يقتضى حصول مافيه مسرة. (٣) وقد عرفه الراغب بأنه توقع محبوب عن أمانة مظنونة أو معلومة. (٤)

ولا يكون الرجاء إلا مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز ولا يكون أبداً مع تعطيل الأسباب الموصله إليه، قال تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجهوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم) (٥) فطوى سبحانه وتعالى بساط الرجاء إلا عن هؤلاء. (٦)

فالعبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ومآتماها إلا بدخول الجنة والنظر إلى وجه الله ذي الجلال والإكرام.

وكذلك العاصي إذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٤٦/٣

(٢) اللسان عند مادة (رجا) ٣٠٩/١٤

(٣) المفردات عند مادة (رجا) ص ١٩٠

(٤) المفردات عند مادة (خوف) ص ١٦١

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

(٦) الروح ص ٣٣٠-٣٣١

بأن يرجو قبول التوبة وأما قبل التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس (١) والآيات والأحاديث في الرجاء كثيرة جداً فمنها: قوله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً). (٢)

وقوله تعالى: (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت). (٣) وكذلك تلك الآيات التى فيها ذكر لسعة رحمة الله تعالى وهى آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم). (٤) وقوله تعالى: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم). (٥) وغير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فمنها قوله تعالى في الحديث القدسى: "أنا عند ظن عبدي بي". (٦)

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٥٠-١٥١

(٢) جزء من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٣) جزء من الآية ٥ من سورة العنكبوت.

(٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٥) جزء من الآية ٦ من سورة الرعد.

(٦) أخرجه البخارى في صحيحه ٤/٣٨٤ كتاب التوحيد (٩٧) ==

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار". (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فكاكك (٢) من النار". (٣)

وأما الخوف فهو في اللغة الفرع خافه يخافه خوفاً وخيفة وخافة. (٤)

وقد عرفه الراغب بأنه توقع مكروهه عن أمانة مظنونة أو معلومة. (٥)

وقال الغزالي: (٦) الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع

-
- (=) باب قوله تعالى: (ويحذركم الله نفسه) (١٥) حديث رقم (٧٤٠٥).
- ومسلم في صحيحه ٢٠٦١/٤ كتاب الذكر (٤٨) باب الحث على ذكر الله تعالى (١) حديث رقم (٢٦٧٥/٢).
- (١) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٥/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب الرجاء مع الخوف (١٩) حديث رقم (٦٤٦٩).
- ومسلم في صحيحه ٢١٠٨/٤ كتاب التوبة (٤٩) باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٤) حديث رقم (٢٧٥٢/١٧) و(١٨) و(١٩) و(٢٠).
- (٢) الفكاك: الخلاص. انظر القاموس المحيط عند مادة (فكك) ص ١٢٢٧
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١١٩/٤ كتاب التوبة (٤٩) باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٨) حديث رقم (٢٧٦٧/٤٩).
- (٤) اللسان عند مادة (خوف) ٩٩/٩
- (٥) المفردات عند مادة (خوف) ص ١٦١
- (٦) هو الشيخ الإمام البحر زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي الغزالي صاحب التصانيف والذكاء المفرط تفقه في بلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين وبرع في الفقه والكلام والجدل وأخذ في تأليف الأصول والفقه له كتاب الإحياء، توفي عام ٥٠٥هـ. انظر السير ٣٢٢/١٩، طبقات الشافعية للسبكي ١٠١/٤ إلى ١٨٢

مكروه في الاستقبال.(١)

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الخوف والوجل والخشية والرغبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة، فالخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور بالألم والفرع وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله، والوجل والفرع أخص منه فالوجل هو الشعور بالخوف يلم بالقلب والخشية أخص كذلك من الخوف فإنها للعلماء بالله قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (٢) فهي خوف مقرون بمعرفة، فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون .

وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه، وأما الهيبة فهي خوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ماتكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال تعظيم مقرون بالحب، فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. (٣) والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف ممدوح مأمور به وهو الخوف من الله تبارك وتعالى وهو ماتقدمت الأدلة عليه.

الثاني: خوف مذموم منهى عنه وهو نوعان:

الأول: ما يسمى بخوف السر وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو

طاغوت أن يصيبه بما يكره كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام أنهم

(١) إحياء علوم الدين ١٦٣/٤

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٣) انظر مدارج السالكين ٥١٢/١-٥١٣

قالوا له: (إن نقول إلا اعتراك بعض ءالھتنا بسوء قال إني أشھد اللھ واشھدوا أني بریء مما تشركون من دونه فکیدونی جميعاً ثم لا تنظرون) (١) وقال تعالی: (ویخوفونك بالذین من دونه) (٢)

وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان یخافونها ویخوفون بها أهل التوحید إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة للھ وهذا النوع ینافی التوحید بالكلية.

وقد قال إبراهیم علیہ الصلاة والسلام عندما خوفوه من آلهتهم الباطلة (وكیف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم باللھ ما لم یزل به علیكم سلطاناً فأی الفريقین أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) (٣) إنه منطق المؤمن الواقف المدرك لحقائق هذا الوجود أنه إن كان أحد حریاً بالخوف فلیس هو إبراهیم ولیس هو المؤمن الذی ترعاه عین اللھ، وكیف یخاف آلهة عاجزة كائنة ماكانت هذه الآلهة والتی تبندی أحياناً فی صورة جبارین فی الأرض بطاشین وهم أمام قدرة اللھ مهزومون مغلوبون، وكیف یخاف إبراهیم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ولا یخافون هم أنهم أشركوا باللھ ما لم یزل به علیهم سلطاناً، فأی الفريقین أحق بالأمن، الذی یؤمن به تعالی وحده ویكفر بالشركاء، أم الذی یشرك به تعالی بلا سلطان ولا قوة؟ أی الفريقین أحق بالأمن لو كان لهم شیء من العلم والفهم وحينئذ یتزل الجواب ویقضى اللھ عز وجل بحكمه فی هذه القضية (الذین ءامنوا ولم یلبسوا إیمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون). (٤) (٥)

(١) الآيتان ٥٤ و ٥٥ من سورة هود.

(٢) جزء من الآية ٣٦ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٨١ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

(٥) انظر فی ظلال القرآن ١١٤٢/٧

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد وهذا هو سبب نزول قوله تعالى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ). (١)

فقد أخرج الواحدى (٢) عن عمرو بن دينار (٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر الناس بعد أحد حين انصرف المشركون فاستجاب له سبعون رجلاً فطلبهم، فلقي أبو سفيان (٤) عيراً من خزاعة فقال لهم: إن لقيتم محمداً يطلبني فأخبروه أني في جمع كثير فلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم فسألهم عن أبي سفيان فقالوا لقيناه في جمع كثير ونراك في قلة ولا نأمن عليك فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يطلبه فسبقه أبو سفيان فدخل مكة فأنزل الله تعالى فيهم: (الذين استجابوا

(١) الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) هو الإمام العالم الأستاذ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدى النيسابورى الشافعى صاحب التفسير إمام علماء التأويل لزم الثعلبي وأكثر عنه وأخذ العربية وصنف التفاسير الثلاثة البسيط والوسيط، والوجيز، وله كتاب أسباب النزول، مات بنيسابور سنة ٤٦٨هـ. انظر السير ٣٣٩/١٨، والكامل لابن الأثير ١٠١/١٠

(٣) هو عمرو بن دينار الإمام الحافظ أبو محمد الجمحي مولا هم المكي الأثرم أحد الأعلام، ولد في إمرة معاوية سنة ٤٥ أو ٤٦ وسمع من ابن عباس وجابر وابن عمر وأنس وغيرهم من الصحابة والتابعين، وكان من الحفاظ المقدمين، أفتى بمكة ثلاثين سنة وكان فقيهاً. انظر طبقات ابن سعد ٤٧٩/٥، وسير أعلام النبلاء ٣٠٠/٥

(٤) هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب رأس قريش وقائدهم يوم أحد والخندق تداركه الله بالإسلام يوم الفتح فأسلم شبه مكره ثم بعد أيام صلح إسلامه شهد قتال الطائف واليرموك وأبلى بلاءً حسناً، توفي بالمدينة سنة ٣١ وقيل غير ذلك وله تسعون سنة. انظر سير

لله والرسول... حتى بلغ... فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (١)(٢)
القسم الثالث: الخوف الطبيعي وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك فهذا لا يذم فاعله كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: (فخرج منها خائفاً يترقب). (٣)(٤) والخوف المحمود الصادق ماحال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. (٥)

وهناك منزلة أخص من الخوف وهي ذات ارتباط وثيق بها وهي منزلة الإشفاق وهي رقة الخوف، فالإشفاق خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه فتسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة فإنها ألطف الرحمة وأرقها فيشفق على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) (٦) وهي الأعمال التي كانت لغير الله أو على غير أمره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويخاف

(١) الآيات ١٧٢ إلى ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الواحدى في أسباب النزول ص ١٣٠-١٣١ هكذا مرسلًا.

ويشهد له ما اتفق عليه الشيخان من حديث عائشة رضى الله عنها في قوله تعالى: (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم). (آل عمران: ١٧٢) قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبوبكر لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبوبكر والزبير.

أخرجه البخارى في صحيحه ١١٠/٣ كتاب المغازى (٦٤) باب "الذين استجابوا لله والرسول" (٢٥) حديث رقم (٤٠٧٧).

ومسلم في صحيحه ١٨٨١/٤ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب من فضائل طلحة والزبير رضى الله عنهما (٦) حديث رقم (٢٤١٨/٥١) و(٥٢).

(٣) جزء من الآية ٢١ من سورة القصص.

(٤) انظر هذه الأقسام الثلاثة في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٥٢-٣٥٣

(٥) انظر مدارج السالكين ٥١٤/١

(٦) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل إما بتركه وإما بمعاص تفرقه وتخطئه فيذهب ضائعاً ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى فيها: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهر له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيت لعلكم تتفكرون)^(١) ويشفق على وقته أن يضيع في غير مايرضى الله ويشفق على قلبه أن يزاحمه عارض من شبهة أو شهوة.

واعلم أن من أعظم مايعين على الرجاء والخوف التفكير في آيات الله عز وجل وكثرة ذكره تبارك وتعالى، قال تعالى: (لآيت لقوم يتفكرون)^(٢) وقال كذلك: (لآيت لأولى الألب. الذين يذكرون الله قِيماً وقعوداً وعلى جنوبهم...)^{(٣)(٤)}

(١) الآية ٢٦٦ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة الرعد.

(٣) جزء من الآيتان ١٩٠ و ١٩١ من سورة آل عمران.

(٤) انظر الرعية لحقوق الله ص ٦٤-٦٥

المبحث الثامن

الوجل

الوجل استشعار الخوف يقال وجل يوجل فهو وجل^(١) وجمعه وجال، والأنتى وجله، ولا يقال وجلاء، وقوم وجلون ووجال.^(٢) وهناك من عرّف الوجل بالخوف والفرع^(٣) ولكن هذه الألفاظ متقاربة غير مترادفة كما يقول ابن القيم رحمه الله،^(٤) فالخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور بالألم والفرع وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله، فالوجل والفرع أخص منه، فالوجل هو الشعور بالخوف يلم بالقلب، وقد يكون هذا الخوف من العقوبة المجهولة، وقد يكون من الإجلال والهيبة، والظن بأن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب لا يصدر إلا ممن لم يذق طعم الخشية، والوجل من هيبة الله وعظمته وكبريائه وعزه وسلطانه وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته، وممن لم يقرأ قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٥)، وممن لم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ويفيض دمه من ذكر أسماء الله في آخر سورة الحشر^(٦) أو في غيرها من الآيات.^(٧)

-
- (١) المفردات ص ٥١٣ عند مادة (وجل).
 - (٢) اللسان عند مارة (وجل) ٧٢٣-٧٢٢/١١
 - (٣) انظر البيضاوى ٣٧٤/١، وفتح القدير ٢٨٥/٢ والتحرير والتنوير ٢٥٦/٩
 - (٤) انظر مدارج السالكين ٥١٢/١
 - (٥) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.
 - (٦) وهو قوله تعالى: (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى سبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (الحشر: ٢٢-٢٤).

وقد ورد ذكر الوجل في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).^(١)

وفي هذه الآية يثنى ربنا تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله عز وجل وجلت قلوبهم وانقادوا لأمره وخضعوا لذكره خوفاً منه وفرقاً من عقابه، وإذا قرأت عليهم آيات كتابه صدقوا بها وأيقنوا أنها من عند الله فازدادوا بتصديقهم ذلك بما كان قد بلغهم منه قبل ذلك تصديقاً وذلك هو زيادة ماتلي عليهم من آيات الله إياهم إيماناً، وباللله يوقنون في أن قضاءه فيهم ماض فلا يرجون غيره ولا يرهبون سواه.^(٢)

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) قال: "المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله سبحانه أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف المؤمنين فقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) فأدوا فرائضه وإذا تليت عليهم ءايته زادتهم إيماناً" يقول تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول: لا يرجون غيره.^(٣)

وروى كذلك عن مجاهد (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال:

(١) الآية ٢ من سورة الأنفال.

(٢) انظر جامع البيان ١٧٨/٩

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٨/٩-١٧٩

فرقت. (١)(٢)

وروى كذلك عن السدى في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهيم بمعصية أحسبه قال: فيترع (٣) عنه. (٤)

وروى كذلك عن أبي الدرداء (٥) في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) قال: الوجل في القلب كإحراق السعفة (٦)، أما تجد له قشعريرة؟ (٧) قال: بلى قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله فإن الدعاء يذهب بذلك. (٨) فالوجل إذا ارتعاشه وجدانية تنتاب القلب المؤمن حين يذكر الله في أمر أو نهى فينبعث إلى العمل. (٩)

وروى ابن جرير كذلك عن قتادة في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا

(١) فرقت: أي فزعت. انظر القاموس المحيط عند مادة (فرق) ١١٨٣

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٣) يترع عنه: أي يترك ما هم به من الذنب ونزع عن الأمور نزوعاً انتهى عنها. انظر القاموس المحيط عند مادة (نزع) ص ٩٨٩

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٥) هو أبو الدرداء الإمام القدوة قاضي دمشق صاحب رسول الله عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي حكيم هذه الأمة وسيد القراء بدمشق وروى عن النبي عدة أحاديث وجمع القرآن وتصدر للإقراء في خلافة عثمان من العلماء والفقهاء، توفي سنة ٣٢ هـ. انظر السير ٣٣٥/٢ وطبقات ابن سعد ٣٩١/٧-٣٩٣

(٦) السعفة: واحدة السعف، محرّكة، جريد النخل. انظر القاموس المحيط عند مادة (سعف) ص ١٠٥٨

(٧) اقشعر جلده: أخذته قشعريرة: أي رعدة. القاموس المحيط عند مادة (قشعر) ص ٥٩٤

(٨) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٩) انظر في ظلال القرآن ١٤٧٥/٩

ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: "فرقاً من الله ووجلاً من الله وخوفاً من الله تبارك تعالى". (١)

وهذه صفة المؤمن حقاً الذى إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه ففعل أو امره وترك زواجه كقوله تعالى: (والذين إذا فعلوا فحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (٢) وكقوله تعالى: (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى). (٣)

ولهذا قال سفيان الثوري (٤) سمعت السدى يقول في قول تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهيم بمعضية فيقال له: اتق الله فيجل قلبه. (٥)

وقال تعالى في آية أخرى مادحاً المؤمنين المختين (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصبرين على ما أصابهم والمقيمي الصلوة ومما رزقنهم ينفقون). (٦)

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٢) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآيتان ٤٠ و ٤١ من سورة النازعات.

(٤) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري شيخ الإسلام أبو عبدالله الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع، ولد سنة ٩٧هـ وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده المحدث الصادق، مات سنة ١٦١هـ كان ينوه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه وحدث وهو شاب وكان يلقب بأمر المؤمنين في الحديث. انظر السير

٢٢٩/٧، والجرح والتعديل ٢٢٢/٤

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٦) الآية ٣٥ من سورة الحج.

وهذه الآية تفسر معنى الإخبات الوارد قبلها^(١) فهي تشتمل على نعوت صدرت بوجل القلب عند ذكر الله عز وجل.

وقد روى ابن جرير عند هذه الآية عن ابن زيد^(٢) في قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال: لا تقسوا قلوبهم.^(٣)

ومما سبق تبين لنا أن الوجل يتضمن الخوف ويدل عليه ويدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحذور.

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: (والذين يؤتون مائة ألفاً وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون)^(٤).

وقد قالت عائشة رضى الله عنها عند هذه الآية: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: (والذين يؤتون مائة ألفاً وقلوبهم وجلة) أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: "لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات".^(٥)

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب

أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)^(٦) فأخير

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٢١/٥

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمرى المدني فيه لين وكان صاحب قرآن

وتفسير جمع تفسيراً في مجلد وكتاباً في الناسخ والمنسوخ توفي سنة ١٨٢هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٨، شذرات الذهب ٢٩٧/١

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ١٦٢/١٧

(٤) الآية ٦٠ من سورة المؤمنون.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢٠٥، ١٥٩/٦ والترمذى في السنن ٣٢٧/٥ كتاب تفسير

القرآن (٤٨) باب ومن سورة المؤمنون (٢٤) حديث رقم (٣١٧٥).

وابن ماجه في السنن ٤٠٤/٢ كتاب الزهد (٣٧) باب التوقي على العمل (٢٠)

حديث رقم (٤١٩٨).

وصححه الشيخ الألباني كما في صحيح سنن الترمذى ٨٠-٧٩/٣ حديث رقم

(٣٤٠١-٢٥٣٧)

(٦) الآية ١٥٤ من سورة الأعراف.

أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله.

وعلى هذا يحمل ماروى عن السدي قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهيم بمعصية أحسبه قال فينزع عنه. (١)

وهؤلاء هم الذين قال الله عز وجل فيهم: (ولمن خاف مقام ربه جنتان). (٢)

قال مجاهد عند هذه الآية: هو الرجل يهيم بالذنب فيذكر مقام ربه فينزع. (٣)

وكذا قال إبراهيم (٤): إذا أراد أن يذنب أمسك مخافة الله. (٥)
وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون). (٦)

وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى: (آلم ذلك الكتب لاريب فيه هدى للمتقين). (٧)

وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى: (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى). (٨)

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٧٩/٩

(٢) الآية ٤٦ من سورة الرحمن.

(٣) رواه الطبرى في تفسيره ١٤٥/٢٧

(٤) هو الإمام الحافظ فقيه العراق أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى اليماني الكوفى أحد الأعلام مفتي أهل مكة وصيرفى الحديث توفى وله ٤٩ سنة وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، مات سنة ٩٦هـ. انظر السير ٥٢٠/٤، والخلية ٢١٩/٤

(٥) رواه الطبرى في تفسيره ١٤٦/٢٧

(٦) الآية ٥ من سورة البقرة.

(٧) الآيتان ١ و ٢ من سورة البقرة.

(٨) جزء من الآية ١٢٣ من سورة طه.

وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يشق فهو مرحوم.

وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم وأهل الهدى ليسوا ضالين فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب.

وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب.

ومما يدل على هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ). (١)

والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم كما قال في الآية الأخرى: (أَمِنْ هُوَ قُلْتُ أَنَاءَ اللَّهُ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُونَ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ). (٢)

والخشية أبداً متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطاً كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمناً فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله تبارك وتعالى.

والمقصود أن الخوف يستلزم فعل الواجب كما دل عليه قوله تعالى: (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ). (٣)

وقوله تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ) (٤) فوعد بنصر الدنيا

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٢) جزء من الآية ٩ من سورة الزمر.

(٣) جزء من الآية ١٣ والآية ١٤ بتمامها من سورة إبراهيم.

(٤) الآية ٤٦ من سورة الرحمن.

وبشواب الآخرة لأهل الخوف وذلك إما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله. وكل خائف من الله فهو عالم مطيع وكل عاص لله فهو جاهل وذلك لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعص، فإن الخوف من الله يستلزم العلم به، والعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه. (١)

ومما ذكر أهل التفسير عند الآيات التي ورد فيها ذكر وجل القلب الجمع بين حالتي الوجل والاطمئنان اللتين أثبتهما الله عز وجل للقلب المؤمن عند ذكر الله عز وجل كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ). (٢)

وقوله تعالى: (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ). (٣)

ووجه الجمع هو أن الطمأنينة بذكر الله تعالى تكون بانسراح الصدر بمعرفة التوحيد وصدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فطمأنينتهم بذلك قوية لأنها لم تتطرق إليها الشكوك ولا الشبه والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى وعدم تقبل الأعمال كما قال تعالى عن الراسخين في العلم: (رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) (٤) وقال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ

(١) انظر كتاب الإيمان من ١٦ إلى ٢١

(٢) جزء من الآية ٢ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٤) جزء من الآية ٨ من سورة آل عمران.

يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله). (١)
ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: "يامقلب القلوب
ثبت قلبي على دينك" (٢)(٣)

قال القرطبي (٤) رحمه الله في ذلك: "وقد جمع الله بين المعنيين في
قوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود
الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى تسكن
نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله فهذه حالة
العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعل جهال العوام
والمبتدعة الطغام (٥) من الزعيق والزئير ومن النهاق الذى يشبه نهاق الحمير
فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي
حال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٥٧، ١١٢/٣ والترمذى في السنن ٤٤٨/٤ كتاب القدر
(٣٣) باب ماجاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن (٧) الحديث رقم (٢١٤٠)
وقال: هذا حديث حسن.

وصححه الشيخ الألبانى كما في صحيح سنن الترمذى ٢٢٥/٢ حديث رقم
(١٧٣٩-٢٢٤٠).

وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على
طاعتك" ٢٠٤٥/٤ كتاب القدر (٤٦) باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء
(٣) حديث رقم (٢٦٥٤/١٧).

(٣) انظر أضواء البيان ٦٩٤/٥-٦٩٥

(٤) هو محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى الخزرجى الأندلسى أبو عبد الله
القرطبي من كبار المفسرين، صالح متعبد من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق وتوفي
فيه، من كتبه الجامع لأحكام القرآن، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر نفح الطيب ١/٤٢٨،
الأعلام ٣٢٢/٥

(٥) الطغام: أوغاد الناس وأحمقهم وأرذلهم. انظر القاموس المحيط عند مادة (طغم)

والخوف منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً منه تعالى ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فآكتبنا مع الشاهدين)^(١) فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم فمن كان مستنأ فليستن ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً والجنون فنون.

روى مسلم ^(٢) عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة ^(٣) فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: سلوني لاتسألوني عن شيء إلا بينته لكم مادمت في مقامى هذا، فلما سمع ذلك القوم أرموا ^(٤) ورهبوا أن يكون بين يدى أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يمينا وشمالاً فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكى وذكر الحديث. ^(٥)

(١) الآية ٨٣ من سورة المائدة.

(٢) هو الإمام الكبير الحافظ المجود أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صاحب الصحيح، ولد سنة ٢٠٤هـ سمع بمكة والكوفة والعراق والحرمين ومصر، كان ثقة من الحفاظ، وتوفي سنة ٢٦١هـ بنيسابور عن بضع وخمسين. انظر السير ١٨٢/٨، الجرح والتعديل ٥٥٧/١٢

(٣) أحفوه في المسألة: أى ألحوا عليه بها. انظر القاموس المحيط عند مادة (حفا) ص ١٦٤٦

(٤) أرموا: سكتوا. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (رهم) ٢٦٧/٢

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٣٤/٤ كتاب الفضائل (٤٢) باب توقيه صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف ومالا يقع ونحو ذلك (٣٧) حديث رقم (١٣٧).

والبخارى في صحيحه ٣١٩/٤ كتاب الفتن (٩٢) باب التعوذ من الفتن (١٥)

حديث رقم (٧٠٨٩).

وروى الترمذى وصححه عن العرباض بن سارية^(١) قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب... الحديث"^(٢) ولم يقل زعقنا^(٣) ولا رقصنا ولا زفنا^(٤) ولا قمنا^(٥).

(١) هو العرباض بن سارية أبو بجير السلمي الصحابي كان من أهل الصفة وهو من البكائين نزل الشام وسكن حمص، وتوفي سنة ٧٥هـ. انظر تهذيب اللغات والأسماء ١٣٣/١، الإصابة ٤٦٦/٢

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٢٦/٤-١٢٧) والدارمي في السنن ٤٤/١-٤٥ المقدمة باب اتباع السنة، وأبو داود في السنن ١٣/٥-١٥ كتاب السنة (٣٤) باب لزوم السنة (٦) حديث رقم (٤٦٠٧) والترمذى في السنن (٤٤/٥) كتاب العلم (٤٢) باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (١٦) حديث رقم (٢٦٧٦) وقال: "هذا حديث حسن صحيح" وابن ماجه في السنن ١٦/١، المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٦) حديث رقم (٤٣).

وصححه الشيخ الألبانى كما في صحيح سنن الترمذى ٣٤١/٢-٣٤٢ حديث رقم (٢١٥٧-٢٨٢٨).

(٣) الزعق: الصياح. انظر اللسان عند مادة (زعق) ١٠/١٤٢

(٤) زفن يزفن: رقص. انظر القاموس المحيط عند مادة (زفن) ص ١٥٥٣

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧/٣٦٦

المبحث التاسع

الخشوع

الخشوع أصله من خشع يخشع خشوعاً واختشع وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغطه وخفض صوته. (١)

والخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن. (٢)

والخشوع والخضوع متقاربان وقيل الخضوع في البدن والخشوع في الصوت والبصر، والخشوع السكون والتذلل والضراعة والسكوت وقيل أكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. (٣)(٤)

فالخشوع في أصل اللغة إذاً هو الانخفاض والذل والسكون قال تعالى: (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) (٥) أى سكنت وذلّت وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو ييسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات قال تعالى: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت). (٦)

والخشوع في الشرع هو تذلل القلوب لعلام الغيوب وحله القلب وثمرته تظهر على الجوارح. (٧)

-
- (١) لسان العرب مادة (خشع) ٧١/٨
 (٢) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (خشع) ٣٤/٢
 (٣) بصائر ذوى التمييز ٥٤١/٢ وانظر المفردات ص ١٤٨ عند مادة (خشع).
 (٤) وهذا في الغالب وإلا فالخشوع يطلق أيضاً على ما يوجد في القلب كما في قوله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) (الحديد: ١٦).

- (٥) جزء من الآية ١٠٨ من سورة طه.
 (٦) جزء من الآية ٣٩ من سورة فصلت.

- (٧) مدارج السالكين ٥٢٠/١-٥٢١

فالأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده والخشوع عبادة
قلبية إذا لم يقم القلب بها فالأعضاء أولى بأن لا تقوم بها بل حتى وإن
قامت بها من غير قيام القلب بذلك فإنه لا يعتد بها قال تعالى: (فويل
للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون..)^(١) وليس المراد بالسهو عنها
تركها وإلا لم يكونوا مصلين وإنما هو السهو عن واجبها إما عن الوقت
وإما عن الحضور والخشوع والصواب أنه يعم النوعين^(٢)، وقد قال تعالى:
(قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون)^(٣). ووصف به الذين
أوتوا العلم فقال تعالى: (وقرأنا فرقله لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه
تزيلا قل ءامنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى
عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحن ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا
ويخرون للأذقان يبيكون ويزيدهم خشوعاً).^(٤)

وفي الحديث: "إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو
ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرين".^(٥)

وقد جاء كذلك في الحديث "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلم
أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه".^(٦)

-
- (١) الآيتان ٤ و ٥ من سورة الماعون.
 - (٢) انظر مدارج السالكين ٥٢١/١
 - (٣) الآيتان ١ و ٢ من سورة المؤمنون
 - (٤) الآيات ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ من سورة الإسراء.
 - (٥) أخرجه أبو داود ٢١١/١ كتاب الصلاة، باب ماجاء في نقصان الصلاة برقم ٧٩٦ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ١٥١/١ برقم ٧١٤
 - (٦) أخرجه الترمذی في الجامع الصحيح ٥١٧/٥ كتاب الدعوات (٤٩) باب (٦٦) حديث رقم (٣٤٧٩) وقال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه سمعت عباساً العنبري يقول: اكتبوا عن عبدالله بن معاوية الجمحي فإنه ثقة، وحسنه الألباني في صحيح الترمذی (١٧٤/٣) حديث رقم (٢٧٦٦).

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله عز وجل من القلب الذى لا يخشع^(١) وليس معنى ذلك أن الخشوع يكون من القلب فقط بل لابد من ظهور أثر ذلك على الجوارح ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه "خشع لك سمعى وبصرى ونحى وعظمى وعصبى"^(٢) إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه ومن أعظمها القلب الذى هو ملك الجوارح، والأعضاء كلها تابعة له ولخشوعه. وقد أورد ابن أبي حاتم^(٣) رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)^(٤) أربعة آثار: أولها: عن ابن عباس رضى الله عنهما يقول: المصدقين بما أنزل الله^(٥) وهذا من مقتضيات الخشوع.

والثانى: عن مجاهد قال: المؤمنين حقاً^(٦) وهذا أعم.

(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يستجاب له" أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٨٨/٤ كتاب الذكر (٤٨) باب التعوذ من شر ما عمل (١٨) حديث رقم (٢٧٢٢/٧٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٥٣٥/١ كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٦) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٢٦) حديث رقم (٧٧١/٢٠١).

(٣) هو العلامة الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الغطفاني كان بحراً لا تكدره الدلاء وكان زاهداً تقياً، له كتاب نفيس في الجرح والتعديل وكتاب الرد على الجهمية وتفسير كبير في عدة مجلدات، من أحسن التفاسير، توفي رحمه الله سنة ٣٢٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣، وشذرات الذهب ٣٠٨/٢.

(٤) الآية ٤٥ من سورة البقرة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٦/١ رقم الأثر (٤٩٣).

(٦) المرجع السابق نفسه ورقم الأثر (٤٩٤) وصحح المحقق فضيلة الشيخ الدكتور

والثالث: عن أبي العالية^(١) قال: يعنى الخائفين^(٢) وهذا من مقتضيات الخشوع أيضاً.

والرابع: عن مقاتل بن حيان^(٣) قال: يعنى به المتواضعين^(٤). وهذا أقرب المعاني للخشوع. وذلك لأن الذل والانكسار والتواضع بين يدي الله عز وجل تقتضى التصديق بما أنزل الله والاستسلام لأحكامه عز وجل الكونية والشرعية ومراقبه الله عز وجل والخوف منه تعالى ومن عذابه. وهذه الآية تدل على أن الصبر والصلاة ثقيلان إلا على الخاشعين أى المتواضعين لله المتذللين له المصدقين بما أنزل، الخائفين من غضبه وعقابه فهي تظهر لنا إذاً ثمرة الخشوع التى هى الأعمال الصالحة.

ولما كان الخشوع بهذه المنزلة العظيمة فقد عاتب الله عز وجل أخص عباده المؤمنين لأنهم لم يصلوا إلى تلك المرتبة التى يريدونها لهم وذلك بقوله تعالى: (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)^(٥) ولوح لهم في هذه الآية بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق في الأعمال وحذرهم من هذا المآل الذى انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم مع فتح باب الأمل أمامهم بتذكيرهم بعون الله عز وجل الذى يجي القلوب كما يحي الأرض

(١) هو أبو العالية رفيع بن مهران الإمام المرقىء الحافظ المفسر الرياحى البصرى أحد الأعلام أدرك زمان النبي وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر وسمع من عمر وعلي وأبي ذر وحفظ القرآن وتصدر لإفادة العلم وبعد صيته، مات سنة ١١٢هـ. انظر الطبقات ١١٢/٧

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٦/١ رقم الأثر (٤٩٥) الحلية ٢١٧/٢

(٣) هو مقاتل بن حيان بن دوال دور الأمام العالم المحدث الثقة أبو بسطام النبطى البلخى الخراز طوف وجال وحدث عن الشعبي ومجاهد هرب من خراسان إلى كابل فدعاهم إلى الله فأسلم على يده خلق، توفي حدود الخمسين ومائة. السير ٣٤٠/٦، تهذيب التهذيب ٢٧٧/١٠

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٧/١ رقم الأثر (٤٩٦).

(٥) الآية ١٦ في سورة الحديد.

بعد موتها. (اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون). (١)(٢)

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها من فضله فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ونزل عليها الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر.

عتاب فيه الود وفيه الحض وفيه الاستجابة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره وتلقى منازل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام مع راحة الاستبطاء في السؤال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق).

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة وبيان لما يغشى القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء وماتنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله وحين لا تخشع للحق.

(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون).

وليس وراء قسوة القلب إلا الفسق والخروج.

إن هذا القلب البشري سريع التقلب سريع النسيان وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ويرف كالشعاع فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبرد وقسا، وانطمست إشراقته وأظلم وأعم فلابد من تذكير لهذا

(١) الآية ١٧ في سورة الحديد.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٣٤٨٨/٢٧

القلب حتى يتذكر ويخشع، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة.

ولكن لا بأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله، فالله يحيي الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة وتزخر بالنبت والزهر وتمنح الأكل والثمار وكذلك القلوب حين يشاء الله (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) ففي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تُحيا الأرض وما يدها بالغذاء والري (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون).^(١)

وقد قال عبدالله بن مسعود^(٢) رضى الله عنه عند هذه الآية: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين".^(٣)

فالله أكبر أربع سنوات فقط يعاتب الله عز وجل بعدهن أخص عباده على عدم بلوغهم المرتبة التي يريدونها لهم.

ومن الأمور التي ينبغي أن تعلم أن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذلاً وكان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك وهذا هو الخشوع المحمود.

وأما الخشوع المذموم فهو الذي يتكلف صاحبه التباكي ومطأطأة

(١) في ظلال القرآن ٣٤٧٩/٢٧

(٢) هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي المكي المهاجري البصري حليف بني زهرة، كان من السابقين الأولين ومن النجباء العاملين، شهد بدرًا وغيرها، وهاجر الهجرة، روى علماً كثيراً، توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين.

انظر السير ٤٦١/١، وشذرات الذهب ٣٨/١

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٣١٩/٤ كتاب التفسير (٥٤) باب في قوله تعالى: (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) (١) حديث رقم ٣٠٢٧-٢٤.

الرأس كما يفعله الجاهل ليروا بعين البر والإجلال وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان. (١)

فالخشوع إذاً خشوع إيمان وخشوع نفاق والفرق بينهما كما بين قبل قليل أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجنایاته هو فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع (٢)

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا خشوع الإيمان وأن يحمينامن خشوع النفاق.

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/٣٧٤-٣٧٥

(٢) الروح ص (٣١٢).

المبحث العاشر

الإخبات

الخبث ما اتسع من بطون الأرض وجمعه أخبات وخبوت، قال ابن الأعرابي: (١) الخبت ما اطمأن من الأرض واتسع. (٢)

وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد. (٣)

وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى اختلاف أهل التأويل في معنى الإخبات في قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) (٤) فنقل عن بعضهم أن معناه (وأناوبوا إلى ربهم) (٥) ونقل عن آخرين بأن معنى ذلك: خافوا. (٦) ونقل عن بعضهم بأن معنى ذلك: اطمأنوا. (٧) ونقل عن آخرين بأن معنى ذلك: خشعوا وتواضعوا. (٨)

ثم قال ابن جرير رحمه الله: وهذه الأقوال متقاربة المعاني وإن اختلفت ألفاظها لأن الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس الإخبات عند العرب الخشوع والتواضع. (٩)

(١) هو إمام اللغة أبو عبدالله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي مولا هم النسابة ولم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه كان صالحاً زاهداً ورعاً له مصنفات أدبية وكان صاحب سنة واتباع توفي سنة ٢٣١ هـ. انظر سير أعلام

النبل ٦٨٧/١٠، وتاريخ بغداد ٢٨٢/٥

(٢) لسان العرب عند مادة (خبت) ٢٧/٢

(٣) المفردات عند مادة (خبت) ص ١٤١

(٤) جزء من الآية ٢٣ من سورة هود

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ٢٤/١٢

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ٢٤/١٢

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن مجاهد ٢٤/١٢

(٨) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن قتادة ٢٤/١٢

(٩) أنظر جامع البيان ٢٤/١٢-٢٥

وهذه الأقوال جميعها تدور على معنيين كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: التواضع والسكون إلى الله عز وجل ولذلك عدى بإلى تضميناً لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله. (١)

والإخبات أول منازل الطمأنينة، فالسالك إلى ربه مسافر سافر إليه على مدى أنفاسه لا ينتهى مسيره إليه مادام نفسه يصحبه، شبه حصول الإخبات له بالماء العذب الذى يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله فيرويه مورده ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام سفره أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر، فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردد وخاطر الرجوع كذلك السالك إذا ورد مورد الإخبات تخلص من التردد والرجوع ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره وجد في السير. (٢)

ولما كان الإخبات ثمرة من ثمار الإيمان جيء به بعده في قوله تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) (٣) أي تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن وكل ميسر لما خلق له. (٤)

(١) انظر مدارج السالكين ٣/٢

(٢) مدارج السالكين ٣/٢-٤

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٤) مفاتيح الغيب ٥٦/٢٣

المبحث الحادى عشر

الإنبابة

النوب رجوع الشىء مرة بعد أخرى يقال ناب نوباً ونوبة وأناب إليه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة ونابته نائبة أى حادثة من شأنها أن تنوب دائماً، والإنابة إلى الله تعالى الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل.^(١)

فإذا استقرت قدم العبد في منزلة التوبة نزل بعدها منزلة الإنابة. وقد أمر الله تعالى بها في كتابه وأثنى على خليله بها فقال تعالى: (وَأُنَبِّئُكَ إِلَى رَبِّكَ) ^(٢) وقال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) ^(٣) وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة فقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا - إِلَى أَنْ قَالَ - تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ^(٤) وقال تعالى كذلك: (هُوَ الَّذِي يَرْيَكُمُ أَيْلَتَهُ وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) ^(٥) وقال تعالى: (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...) ^(٦) وقال تعالى عن نبيه داود: (فَاسْتَغْفِرْ رَبِّهِ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ). ^(٧)

وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الحشية والإنابة فقال: (وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ

(١) انظر لسان العرب عند مادة (نوب) ١/٧٧٤-٧٧٥، والمفردات عند مادة (نوب)

ص ٥٠٧-٥٠٨

(٢) جزء من الآية ٥٤ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٧٥ من سورة هود.

(٤) الآيات ٦ و ٧ و ٨ من سورة ق.

(٥) الآية ١٣ من سورة غافر.

(٦) جزء من الآية ٣١ من سورة الروم.

(٧) جزء من الآية ٢٤ من سورة ص

للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلم^(١) وأخير سبحانه أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة (والذين اجتنبوا الطغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى)^{(٢)(٣)}

والإنابة نوعان:

النوع الأول: إنابة لربوبية الله تعالى وهذه الإنابة يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال تعالى: (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه)^(٤) وهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الأصل^(٥).

وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء: (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون. ليكفروا بما ءاتينهم)^(٦) فهذا حالهم بعد الإنابة.

والنوع الثاني: إنابة لإلهيته تعالى وهى إنابة عبودية ومحبة وهى تتضمن محبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع وتفسير السلف لهذه اللفظة

(١) الآيات ٣١ و ٣٢ و ٣٣ بتمامها وجزء من الآية ٣٤ من سورة ق .

(٢) جزء من الآية ١٧ من سورة الزمر.

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٤٣٣-٤٣٤

(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة الروم.

(٥) أما مشركوا زماننا من القبوريين فهم لم يحققوا حتى هذا النوع من التوحيد فهم لا يدعون الله ولا يضرعون إليه إلا في الرخاء أما إذا اشتد بهم الكرب أو ضاق بهم مسلك أو تعذر عليهم مطلب فإنهم ينسون الله سبحانه وتعالى ويذكرون أولياءهم فيجعلون منهم آلهة فيتقربون إليهم في ضراعة وخشوع بالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. انظر كيف نفهم التوحيد ص ١٦

(٦) جزء من الآية ٣٣ وجزء من الآية ٣٤ من سورة الروم.

يدور على ذلك. (١)

فقد روى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: (ان إبراهيم حليم أَوَّاه منيب) (٢) قال القانت الرجاء. (٣)

وروى كذلك عن قتادة في قوله تعالى: (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) (٤) قال مقبل. (٥)

ولما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته كان من تتمة ذلك مايلي:

أولاً: الرجوع إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته كما قال تعالى: (إلا من تاب وءامن وعمل عملاً صالحاً) (٦) وقال تعالى: (إلا الذين تابوا وأصلحوا) (٧)

يكره، وفعل لما يجب، تخل عن معصيته، وتخل بطاعته.

ثانياً: الرجوع إليه بالوفاء بعهده فطالما أنك رجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً فعليك بالرجوع بالوفاء بماعاهدته عليه ثانياً والدين كله عهد ووفاء فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم وعلى هؤلاء بالتعلم ومدح

(١) انظر مدارج السالكين ٤٣٤/١

(٢) الآية ٧٥ من سورة هود.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨٠/١٢

(٤) الآية ٣٣ من سورة ق.

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٧٣/٢٦

(٦) جزء من الآية ٧٠ من سورة الفرقان.

(٧) جزء من الآية ١٦٠ من سورة البقرة.

الموفين بالعهد وأخير بما لهم عنده من الأجر فقال: (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)^(١) وقال: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئلاً)^(٢) وقال: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)^(٣) وغير ذلك من الآيات.

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخلق وأخير النبي صلى الله عليه وسلم أن من علامات النفاق الغدر بعد العهد.^(٤)

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

ثالثاً: الرجوع إليه حالاً كما رجعت إجابة فهو سبحانه وتعالى قد دعاك فأجبتة بلييك وسعديك قولاً فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه بالحال.^(٥)

واعلم أن الإنابة مفتاح لخير كثير فإن القلب إذا نزل منزلة الإنابة نزل

(١) جزء من الآية ١٠ من سورة الفتح.

(٢) جزء من الآية ٣٤ من سورة الإسراء.

(٣) جزء من الآية ٩١ من سورة النحل.

(٤) كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٢٨ كتاب الإيمان (٢) باب علامة المنافق (٢٤) حديث رقم (٣٤).

ومسلم في صحيحه ١/ ٧٨ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال المنافق (٢٥) حديث رقم (١٠٦-٥٨).

(٥) انظر مدارج السالكين ١/ ٤٣٥-٤٣٦

بعد ذلك منازل كثيرة منها:

منزلة التذكر: وهى قرينة الإنابة قال تعالى: (وما يتذكر إلا من ينيب) ^(١) وقال تعالى: (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ^(٢).

والتذكر تفعل من الذكر وهو ضد النسيان وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب واختير له بناء الفعل لحصوله بعد مهلة وتدرج كالتبصر والتفهم والتعلم.

وجعل الله التبصر والتذكر لأهل الإنابة لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر فاستدل بها على ماهى آيات له فزال عنه الإعراض بالإنابة والعمى بالتبصرة والغفلة بالتذكر. ^(٣)

ومنها وهى أعظمها منزلة الهداية فالإنابة طريق إلى الهداية قال تعالى: (قل إن الله يضل من يشاء ويهذى إليه من أناب) ^(٤).

والإنابة مما اتصف به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قال تعالى: (وظن داود أنما فتنه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) ^(٥) وقال تعالى عن سليمان (ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) ^(٦) وقال تعالى: (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ^(٧) وغير ذلك من الآيات. والناس مأمورون بالاعتداء بالأنبياء والمرسلين. قال تعالى: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ^(٨).

جعلنا الله من المنيبين إليه المخلصين له المقتدين بأنبيائه ورسوله.

(١) جزء من الآية ١٣ من سورة غافر.

(٢) الآية ٨ من سورة ق.

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٤٤٠-٤٤٢.

(٤) جزء من الآية ٢٧ من سورة الرعد.

(٥) جزء من الآية ٢٤ من سورة ص.

(٦) الآية ٣٤ من سورة ص.

(٧) الآية ٧٥ من سورة هود.

(٨) جزء من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

المبحث الثانى عشر

التقوى

التقوى اسم وفعلها وقى وقاه الله وقياً ووقاية وواقية: صانه.
وتوقى واتقى بمعنى وقد توقيت واتقيت الشئ تقيه وتقاه: حذرتة. (١)
وفي حديث معاذ (٢) "وتوق كرائم أموالهم" (٣) أى تجنبها لاتأخذها في الصدقة.

والاسم التقوى والتاء مبدلة من الواو والواو بدل من الياء. (٤)
قال صاحب المفردات الوقاية حفظ الشئ مما يؤذيه ويضره
والتقوى جعل النفس في وقاية (٥) مما يخاف هذا تحقيقه. (٦)
وأما في الشرع فالتقوى: هى عبارة عن امتثال المأمورات واجتناب

(١) لسان العرب عند مادة (وقى) ٤٠١/١٥ - ٤٠٢

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدى بن كعب بن عمر بن
أدى بن سعد الخزرجى السيد الإمام المقدم في الحلال والحرام، أبو عبدالرحمن
الأنصارى الخزرجى المدنى البدرى، شهد المشاهد كلها وروى أحاديث بعثه النبي
صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وقدم منها في خلافة أبى بكر الصديق
رضى الله عنه، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة ١٧هـ أو التى بعدها، وله
٣٤ سنة وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء ٤٤٣/١، الإصابه ٤٠٦/٣ برقم
(٨٠٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٠/١ كتاب الإيمان (١) باب الدعاء إلى الشهادتين
وشرائع الإسلام (٧) حديث رقم (٣١-٣٩).
وأخرجه البخارى في صحيحه ٣٥٧/٣ كتاب الزكاة (٢٤) باب أخذ الصدقة من
الأغنياء (٦٣) حديث رقم (١٤٩٦) بلفظ (فإياك وكرائم أموالهم).

(٤) لسان العرب عند مادة (وفي) ٤٠٢/١٥

(٥) لعل الأولى أن يقول في حفظ أو صيانة حتى لا يكون في التعريف دور.

(٦) المفردات ص ٥٣٠

المنهيات. (١)

وقد أخرج بن جرير بسنده إلى ابن عباس في تعريف المتقين قال:
الذين يحذرون من الله عز وجل عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى
ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به. (٢)

وعن الحسن أنه قال في قوله تعالى: (للمتقين): اتقوا ما حرم الله
عليهم وأدوا ما افترض عليه. (٣)

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن التقوى ثلاث مراتب:

الأولى: حماية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حمايتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول ومالايعى.

ثم قال رحمه الله: فالأولى تعطى العبد الحياة، والثانية تفيده صحته
وقوته، والثالثة تكسبه سرور وفرحه وبهجته. (٤)

ومن حقق هذه المراتب فإنه يرجى له أن يكون قد قام بما أمر الله
به بقوله: (يأياها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته). (٥)

وقد أخرج البخارى (٦) عن ابن عمر رضى الله عنهما تعليقاً قال:

(١) بصائر ذوى التمييز ٢٥٧/٥

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٩٩/١

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٩٩/١

(٤) انظر الفوائد ص ٦٥-٦٦

(٥) جزء من الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.

(٦) هو الإمام الحجة محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، ولد في

شوال سنة ١٩٤هـ وألهم حفظ الحديث وهو في الكتاب سمع ببخارى ومكة

والمدينة وبلاد كثيرة، وروى عنه خلق كثير منهم الترمذى وأبو حاتم، كتب عن

ألف شيخ وأكثر وأثنى عليه العلماء، كان ورعاً سمحاً كريماً صاحب الصحيح

والتاريخ والتصانيف. انظر سير أعلام النبلاء ٣٩١/١٢، تاريخ بغداد ٣٣، ٤/٢

"لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ماحاك في الصدر". (١)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود في تفسير قوله تعالى:
(اتقوا الله حق تقاته) قال: أن يُطاع فلا يُعصى وأن يُذكر فلا يُنسى وأن
يُشكر فلا يُكفر. (٢)

ومن أعظم علامات تقوى القلوب تعظيم شعائر الله عز وجل قال
تعالى: (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) (٣) وقد اختار
ابن جرير رحمه الله أن شعائر الله هي ما جعله الله أعلاماً لخلقه فيما
تعبدهم به من مناسك حجهم من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض
عليهم منها عندها والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم. (٤)

ولعل الراجح أنه يدخل في شعائر الله كل ما جعل عَلمًا لاطاعة الله عز
وجل سواء كان من مناسك الحج أو غيرها، بمعنى أنها الدين كله وقد نسب
الماوردي (٥) هذا القول إلى الحسن. (٦) ولذلك جعل الله عز وجل تعظيم
النبي صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت في حضرته صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البخارى في صحيحه معلقاً ١٩/١ كتاب الإيمان (٢) باب قول النبي

صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس" (١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠٢/٢ وقد ذكر ابن كثير هذا الأثر في تفسيره

بنفس الإسناد ثم قال: وهذا إسناد صحيح موقوف ٧١/٢

(٣) الآية (٣٢) من سورة الحج.

(٤) جامع البيان ١٥٧/١٧

(٥) هو العلامة القاضى أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى الماوردي

الشافعي صاحب التصانيف الحسان في مختلف الفنون وهو متهم بالاعتزال

ويوافقهم في القدر له كتاب الحاوى والنكت في التفسير والأحكام السلطانية

وغیرها، توفي سنة ١٤٥هـ وله (٨٦ سنة). انظر سير إعلام النبلاء ٦٤/١٨ شذرات

الذهب (٢٨٥-٢٨٧).

(٦) النكت والعيون ٧٩/٣

من الأمور التي يتميز بها القلب المتقوى من غيره قال تعالى: (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى).^(١) ففي هذه الآية يقول الله تعالى ذكره هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها فاضطفاها وأخلصها للتقوى يعنى لإلتقاءها بأداء طاعته واجتناب معاصيه كما يمتحن الذهب بالنار فيخلص جيده ويبطل خبيثه وبمثل هذا القول قال: مجاهد في قوله تعالى: (امتحن الله قلوبهم) قال: أخلص، وقال قتادة: أخلص الله قلوبهم فيما أحب.^(٢)

وبهذا يتبين لنا أن التقوى من أعظم أوصاف القلب المؤمن إذ بها يعظم القلب حرمة الله عز وجل وبها يفعل الطاعات ويجتنب المحرمات وبالله التوفيق.

(١) جزء من الآية (٣) من سورة الحجرات.

(٢) كما أخرج ذلك ابن جرير في جامع البيان ١٢٠/٢٦

المبحث الثالث عشر

المراقبة

الرقيب الحفيظ وهو اسم من أسماء الله عز وجل ورقبه يرقبه رقبة ورقبانياً بالكسر فيهما ورقوباً وترقبه وارتقبه انتظره ورصده. (١) والمراد بالمراقبة هنا دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله وأنه مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين فالمراقبة هي مقتضى التعبد بأسمائه تعالى الرقيب الحفيظ السميع العليم البصير. (٢) قال تعالى: (إن الله كان عليكم رقيباً) (٣) أى مطلعاً على العباد في حال حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع الأحوال مراقباً لهم فيها مما يوجب مراقبته وشدة الحياء منه ولزوم تقواه (٤) وقال تعالى: (وكان الله على كل شيء رقيباً) (٥) وقال تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) (٦) وقال تعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى) (٧) وقال تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور). (٨)

ولن يحقق هذا الوصف العظيم إلا من بلغ مرتبة الإحسان التي قال في تعريفها نبينا صلى الله عليه وسلم كما في حديث جبريل المشهور:

(١) اللسان عند مادة (رقب) ٤٢٥/١

(٢) انظر مدارج السالكين ٦٥/٢-٦٦

(٣) جزء من الآية ١ من سورة النساء.

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن ٣/٢

(٥) جزء من الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

(٦) جزء من الآية ٤ من سورة الحديد.

(٧) الآية ١٤ من سورة العلق.

(٨) الآية ١٩ من سورة غافر.

"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (١) ومعنى ذلك أن العبد يظل دائماً مع الله عز وجل فينتج عنه سرور قلبه بالله وفرحه به وقرّة عينه به لا يشبه ذلك شيء من نعيم الدنيا أبداً وليس له نظير يقاس به وهو حال من أحوال أهل الجنة حتى قال بعضهم: وإنه لتمر بى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، فلا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان. (٢)

قال ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه فإن الرب تعالى شكور، يعنى أنه تعالى يشيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرّة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول. (٣) والمراقبة توجب صيانة الباطن والظاهر فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطن التي منها رفض معارضة أمر الله عز وجل وخيره فيتجرد الباطن من كل شهوة تعارض أمره ومن كل إرادة تعارض إرادته ومن كل شبهة تعارض خبره ومن كل حجة تزاحم محبته وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله تعالى به. (٤)

-
- (١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٣٧) رقم الحديث (٥٠).
 ومسلم في صحيحه ٤٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) رقم الحديث (١٠/٧).
 (٢) انظر مدارج السالكين ٦٧/٢
 (٣) انظر مدارج السالكين ٦٨/٢
 (٤) انظر مدارج السالكين ٦٨/٢

المبحث الرابع عشر

الحياء

فإذا نزل العبد منزلة المراقبة وأيقن أن الله عز وجل مطلع عليه عليم سميع بصير بكل حركاته وسكناته يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور نزل بعد ذلك منزلة الحياء، وقد ورد في الصحيح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: "دعه فإن الحياء من الإيمان".^(١)

وعن عمران بن حصين^(٢) رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحياء لا يأتي إلا بخير"^(٣)، وعن أبي هريرة^(٤) رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الإيمان بضـع

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٧٤/١ كتاب الإيمان (٢) باب الحياء من الإيمان (١٦) رقم الحديث (٢٤).

ومسلم في صحيحه ٦٣/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (١٢) حديث رقم (٥٩-٣٦).

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف القدوة الإمام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو نجيد الخزاعي أسلم هو وأبوه في وقت واحد سنة سبع وله عدة أحاديث ولى قضاء البصرة وبعثه عمر إلى أهلها ليفقههم وقد غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة وكان ينزل ببلاد قومه ويتردد على المدينة وكان ممن اعتزل الفتنة في سنة (٥٥٢هـ). انظر سير أعلام النبلاء ٥٠٨/٢، أسد الغابة ٢٨١/٤

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه (٥٢١/١٠) كتاب الأدب (٧٨) باب الحياء (٧٧) رقم الحديث (٦١١٧).

ومسلم في صحيحه (٦٤/١) كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان... (١٢) رقم الحديث (٣٧/٦٠).

(٤) هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوهريرة الدوسي اليماني سيد الحفاظ الأثبات اختلف في اسمه على أقوال ==

وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان".^(١) وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه".^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: "وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت"^(٣) وفي هذا قولان:

أحدهما: أنه أمر تهديد ومعناه الخبر أى من لم يستح صنع ما شاء. والثاني: أنه أمر إباحة أي انظر إلى الفعل الذى تريد أن تفعله فإن كان مما لا يستحي منه فافعله. والأول أصح وهو قول الأكثرين.^(٤) وفي الترمذى مرفوعاً: "استحيوا من الله حق الحياء قالوا: إنا نستحي يارسول الله، قال: ليس ذلكم ولكن من استحي من الله حق الحياء فليحفظ

(=) جملة أرجحها عبدالرحمن بن صخر وكذا في اسم أبيه أقوال كان كثير العبادة والذكر حسن الأخلاق ولى إمرة المدينة مسنده أربعة وسبعون وثلاثمائة وخمسة آلاف حديث، توفى عام (٥٧٧هـ) وقيل (٥٥٨هـ) بالمدينة. انظر سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢، شذرات الذهب ٦٣/١

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٥١/١ كتاب الإيمان (٢) باب أمور الإيمان (٣) حديث رقم (٩) ومسلم في صحيحه ٦٣/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد شعب الإيمان (١٢) حديث رقم (٣٥-٥٨).

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٥٦٦/٦ كتاب المناقب (٦١) باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم (٢٣) حديث رقم (٣٥٦٢) ومسلم في صحيحه ١٨٠٩/٤ كتاب الفضائل (٤٣) باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم (١٦) حديث رقم (٢٣٢٠-٦٧).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه (٥٢٣/١٠) كتاب الأدب (٧٨) باب إذا لم تستح... (٧٨) حديث رقم (٦١٢٠).

(٤) انظر مدارج السالكين ٢٥٩/٢ وانظر كذلك النهاية في غريب الحديث والأثر

الرأس وما وعى. وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء". (١)

والحياء الحشمة وقد حيي منه حياء واستحى واستحيا. (٢)

قال الراغب: والحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها. (٣)

وقد جعل الحياء من الإيمان وذلك أن المستحى ينقطع بجيائه عن المعاصي فصار كالإيمان الذى يقطع بينها وبينه وإنما جعل بعضه لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله به وانتهاء عما نهى الله عنه فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان. (٤) وقد قسم ابن القيم رحمه الله تعالى الحياء على عشرة أوجه:

حياء جنائية ومنه حياء آدم عليه السلام لما فر هارباً في الجنة قال الله تعالى: (يا آدم منى تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء). (٥)

وحياء التقصير ومنه حياء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

أجمعين من الله تبارك وتعالى كما في حديث الشفاعة الكبرى. (٦)

(١) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٦٣٧/٤ كتاب صفة القيامة (٣٨) باب (٢٤) حديث رقم (٢٤٥٨) وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن اسحاق عن الصباح بن محمد. وقد حسنه الشيخ الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٢٩٩/٢ رقم الحديث (٢٥٨٨-٢٥٠٠).

(٢) اللسان عند مادة (حيا) ٢١٧/١٤

(٣) المفردات ص ١٤٠ عند مادة (حيي).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٧٠/١

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٢٩/١ حديث رقم (٣٩٢) وقد صحح محقق هذا الجزء الدكتور أحمد بن عبدالله الزهرانى إسناده بمجموع طرقه.

(٦) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٩/٣-١٩٠ كتاب التفسير (٦٥)

وحياء الإجلال وهو حياء المعرفة فعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم كحياء النبي صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم لوليمة زينب (١) فأطالوا عليه الحديث بعدما أكلوا وشبعوا فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يستحي منهم أن يقول لهم شيئاً. (٢)

وحياء الحشمة كحياء ابن عمر رضى الله عنهما عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن شجرة لاتسقط ورقها وأنها مثل المسلم - فعرف أنها النخلة ولكنه استحي. (٣)

وحياء الاستحقار واستصغار النفس كحياء العبد من ربه حين يسأله حوائجه احتقاراً لشأن نفسه واستصغاراً لها.

كما حصل لعائشة رضى الله عنها في حادثة الإفك (٤) وأنها كانت

(=) سورة البقرة (٢) باب قول الله (وعلم آدم الأسماء كلها) (١) حديث رقم (٤٤٧٦).

(١) هى زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم وابنة عمته تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث وقيل خمس من الهجرة ونزلت بسببها آية الحجاب وكانت قبله عند زيد وفيها نزلت (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) فكانت تفخر على نساء النبي بأنه زوجها الله من فوق سبع سموات توفيت سنة عشرين رضى الله عنها. انظر الإصابة ٣٠٧/٤ برقم (٤٧٠)، أعلام النساء ٥٩/٢

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٠٥٢/٢ كتاب النكاح (١٦) باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (١٥) حديث رقم (١٤٢٨/٩٥).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٨/١ كتاب العلم (٣) باب قول المحدث (حدثنا) أو (أخبرنا) و (أنبأنا) (٤) حديث رقم (٦١).

(٤) الإفك: الكذب. اللسان عند مادة (أفك) ٣٩٠/١٠

والمراد من حادثة الإفك ما حصل من المنافقين من اتهام لأم المؤمنين الطاهرة المطهرة عائشة بنت الصديق بالزنا كذباً وزوراً فبرأها الله عز وجل

تسأل ربها تبارك وتعالى أن ينزل براءتها وكانت تقول: والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيأ يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى. (١)

وحياء المحبة وهو حياء المحب من محبوه.

وحياء العبودية وهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده وأن قدره أعلى وأجل منها فعبوديته له توجب استحياؤه منه لا محالة.

وحياء الشرف والعزة وهو حياء النفس العظيمة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان:

أحدهما: هذا. والثاني: استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهة من يعطي حياء منه. وحياء المرء من نفسه وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون فيجد نفسه مستحياً من نفسه حتى كأن له نفسين يستحي بإحدهما من الأخرى وهذا أكمل ما يكون من الحياء فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر. (٢)

(=) من فوق سبع سموات بقوله تعالى: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم...) الآيات (النور: ١١-٢٦).

وقد أخرج حديث الإفك مطولاً البخارى في صحيحه ٤٥٢/٨-٤٥٥ كتاب التفسير (٦٥) سورة النور (٢٤) باب (لولا إذ سمعتموه قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) (٦) رقم الحديث (٤٧٥٠).

(١) جزء من حديث الإفك الذى تقدم تخريجه.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢٦١/٢-٢٦٣

المبحث الخامس عشر

الصدق

الصدق تقيض الكذب صدق يصدق صِدْقاً وَصِدْقاً وتصادقاً^(١) وهو الطريق الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، به تميز أهل النفاق من أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران وهو سيف الله في الأرض الذي ما وضع على شيء إلا قطعه ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، وهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبين والصدّيقين والشهداء والصالحين فقال تعالى: (يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ)^(٢) وقال تعالى: (وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشّٰهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)^(٣) وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له فقال: (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)^(٤) وأخبر تعالى عن أهل البر وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان والإسلام والصدقة والصبر وأخبر بأنهم أهل الصدق فقال: (ولكن البر من

(١) اللسان عند مادة (صدق) ١٩٣/١٠.

(٢) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٦٩ من سورة النساء.

(٤) جزء من الآية ٢١ من سورة محمد.

بأمن بالله واليوم الآخر والملئكة والكتب والنبيون وعاقى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمسلكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وعاقى الزكوة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصليرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون^(١) وهذا صريح في أن الصدق له تعلق بالأعمال الظاهرة والباطنة وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقد قسم الله الناس إلى صادق ومنافق قال تعالى: (ليجزى الله الصديقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم)^(٢) فالإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخير سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه قال تعالى: (قال الله هذا يوم ينفع الصديقين صدقهم لهم جنت تجرى من تحتها الأنهر خلودين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم)^(٣) وقال تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)^(٤) فالذى جاء بالصدق من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله. فالصدق في هذه الثلاثة:

أولاً: الصدق في الأقوال وهو استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

ثانياً: الصدق في الأعمال وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

(١) جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة.

(٤) الآية ٣٣ من سورة الزمر.

ثالثاً: الصدق في الأحوال وهو استواء أعمال القلوب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة فبذلك يكون العبد من الذين جاؤا بالصدق وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقيته ولذلك كان لأبي بكر الصديق^(١) رضى الله عنه وأرضاه ذروة سنام الصديقية وسمى الصديق على الإطلاق والصديق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق فأعلى مراتب الصدق الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم مع كمال الإخلاص للمرسل.^(٢)

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: (يأيتها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصّديقين) أى: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل الله لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.^(٣)

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً".^(٤)

(١) هو عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي أبوبكر الصديق صحب النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به، ورافقه في الهجرة، وفي الغار، وفي المشاهد كلها، أول الخلفاء الراشدين ومناقبه كثيرة جداً، مات سنة ١٣هـ رضى الله عنه. انظر صفة الصفوة ١/٢٣٥، الإصابة ٢/٣٣٣ برقم (٤٨١٧).

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/١٧٠

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٤/١٠٩ كتاب الأدب (٧٨) باب قول الله تعالى:

(يأيتها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) الحديث رقم (٦٠٩٤) ومسلم في صحيحه ٤/٢٠١٣ كتاب البر (٤٥) باب قبح الكذب... (٢٩) حديث

رقم (٢٦٠٧/١٠٥).

قال ابن عباس رضى الله عنهما عند قوله تعالى: (والذى جاء بالصدق وصدق به) قال: والذى جاء بالصدق: من جاء بلاإله إلا الله وصدق به يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ^(١) وقال مجاهد: والذى جاء بالصدق وصدق به: الذين يجيئون يوم القيامة بالقرآن فيقولون هذا الذى أعطيتمونا فاتبعنا بما فيه. ^(٢) قال ابن كثير: وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به والرسول صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. ^(٣)

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأله أن يجعل مُدخله ومُخرجه على الصدق فقال تعالى: (وقل رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً). ^(٤) وأخبر عن خليفه إبراهيم صلى الله عليه وسلم أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال تعالى: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين). ^(٥)

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: (وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم). ^(٦) وقال: (إن المتقين في جنّٰتٍ ونهرٍ. في مقعد صدق عند مليك مقتدر). ^(٧)

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣/٢٤

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤/٢٤

(٣) تفسير القرآن العظيم ٩٠/٧

(٤) الآية ٨٠ من سورة الإسراء.

(٥) الآية ٨٤ من سورة الشعراء.

(٦) جزء من الآية ٢ يونس

(٧) الآيتان ٥٤ و ٥٥ من سورة القمر.

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق،
وقدم الصدق، ومقعد الصدق، وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق
الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله وهو ما كان به وله من الأقوال
والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة، فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن
يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول
المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها ولا له
ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر ومخرج الصدق كمخرجه
صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة وكذلك مدخله صلى الله
عليه وسلم المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله فاتصل
به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة بخلاف مدخل
الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن
بالله ولا لله بل كان محادة لله ورسوله فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار،
فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله وهو مدخل
صدق ومخرج صدق، وما ذكر ابن جرير عن ابن عباس وغيره من السلف (١)
أن معنى مدخل الصدق هو مدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة
حين هاجر إليهم ومخرج الصدق مخرجه من مكة وغير ذلك من الأقوال إنما
هو على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه
صلى الله عليه وسلم وإلا فمدخله كلها مداخل صدق ومخارجه مخارج
صدق إذ هي لله وبالله وبأمره ولا ابتغاء مرضاته (٢) وأما لسان الصدق فقد

(١) كما أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن

وقتادة وابن زيد ١٤٨/١٥-١٤٩

(٢) انظر مدارج السالكين ٢٧٠/٢-٢٧١

قال بعض السلف في قوله تعالى: (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) (١)
 قال: اللسان الصدق: الذكر الصدق والثناء الصالح والذكر الصالح فى
 الآخرين من الناس، من الأمم. (٢) وذلك كما فى قوله تعالى عن إبراهيم
 وذريته من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (وجعلنا لهم لسان
 صدق عليا) (٣) فلما كانت أداة إبراز الصدق اللسان أطلق الله سبحانه
 السنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقاً وعبر به عنه (٤) وأما قدم
 الصدق فقد فسرهم بعضهم بثواب الأعمال الصالحة (٥) وفسره بعضهم بما سبق
 فى اللوح المحفوظ من السعادة (٦) وفسره بعضهم بمحمد صلى الله عليه
 وسلم (٧) وقد اختار ابن جرير رحمه الله قول من قال معناه أن لهم أعمالاً
 صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب وذلك أنه محكى عن العرب:
 هؤلاء أهل القدم فى الإسلام، أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيراً فكان لهم فيه
 تقديم ويقال له عنده قدم صدق وقدم سوء وذلك ما قدم إليه من خير أو
 شر ومنه قول حسان بن ثابت (٨) رضى الله عنه:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا فى طاعة الله تابع

قال رحمه الله: فتأويل الكلام إذاً وبشر الذين آمنوا أن لهم تقدمة

-
- (١) الآية (٨٤) من سورة الشعراء.
 (٢) كما أخرج ذلك ابن جرير بسنده إلى ابن زيد فى تفسيره ٨٦/١٩
 (٣) جزء من الآية ٥٠ من سورة مريم.
 (٤) انظر مدارج السالكين ٢٧٢/٢
 (٥) كما أخرج ذلك ابن جرير فى تفسيره ٨١/١١-٨٢ عن ابن عباس رضى الله
 عنهما، والضحاك والربيع بن أنس.
 (٦) كما أخرج ذلك ابن جرير فى تفسيره ٨٢/١١ عن ابن عباس رضى الله عنهما.
 (٧) كما أخرج ذلك ابن جرير أيضاً فى تفسيره عن قتادة أو الحسن وزيد ابن أسلم
 ٨٢/١١
 (٨) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمر بن زيد مناة بن عدى بن عمرو
 بن مالك بن النجار سيد الشعراء المؤمنين المؤيد بروح القدس
 ==

خير من الأعمال الصالحة عند ربهم.^(١) وقد قال ابن القيم رحمه الله: وحقيقة القدم ما قدموه وما يقدمون عليه يوم القيامة وهم قدموا الأعمال والإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك فمن فسر بالجنة أراد ما يقدمون عليه ومن فسر بالأعمال والنبي صلى الله عليه وسلم فلأنهم قدموها و قدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قدم صدق.^(٢) وأما مقعد الصدق فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق ودوامه ونفعه وكمال عائده فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله فهو صدق غير كذب وحق غير باطل ودائم غير زائل ونافع غير ضار وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل^(٣) ومما ينبغي أن يذكر في هذا المقام أن الصادق مطلوبه رضا ربه وتنفيذ أوامره وتبعية محابه فهو متقلب فيها يسير معها أينما توجهت ركائبها ويستقل معها أينما استقلت مضاربها فيينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان إلى الخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع ثم في أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة أو نصر مظلوم إن أمكن إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع فكل أعماله وحركاته وسكناته لله وفي الله.^(٤)

(=) أبو الوليد الأنصارى الخزرجي النجاري المدني شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، عاش ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام كان يضع له النبي صلى الله عليه وسلم منبراً في المسجد يقوم عليه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي سنة ٥٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥١٢/٢، الإصابة ٢٣٧/٢

وانظر البيت في ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه ص ١٥٥

(١) جامع البيان ٨٢/١١-٨٣

(٢) مدارج السالكين ٢٧٢/٢

(٣) مدارج السالكين ٢٧٢/٢

(٤) انظر مدارج السالكين ٢٨٥/٢

المبحث السادس عشر

التوكل

التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، والاسم التكلان، يقال توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أى أُلجأت إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه. (١)

والتوكل في الشرع اعتماد القلب على الله، واستناده وسكونه إليه، وحسن الظن والثقة به، وتفويض الأمر له، والرضا بما قدر تعالى مع بذل الأسباب المشروعة.

وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما جاء في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب (٢) فالتوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانه وعبادة فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ولذلك أمر الله به في غير آية من كتابه، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان

(١) اللسان عند مادة (وكل) ٧٣٦/١١ والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢٢١/٥

(٢) كما في حديث ابن عباس رضى الله عنهما المرفوع وفيه "قرأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل: هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً قد امهم يدخلون الجنة بغير حساب، هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون".

أخرجه البخارى في صحيحه ٤٦/٤ كتاب الطب (٧٦) باب من لم يرق (٤٢) حديث رقم (٥٧٥٢) ومسلم في صحيحه ١٩٩/١ كتاب الإيمان (١) باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٩٤) رقم الحديث (٢٢٠/٣٧٤).

والإسلام عند انتفائه، كما في قوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين). (١)

قال سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه. (٢)

وكما في قوله تعالى: (وقال موسى يلقوم إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٣) أى إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا وبوعده فثقفوا إن كنتم في إيمانكم مستسلمين مذعنين بالفعل وإثماً يكون الإيمان يقيناً إذا صدقه العمل وهو الإسلام. (٤)

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه وعنصر القوة الذى يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة، أمام الجيروت الطاغى، فإذا هي أقوى وأثبت، فقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام وجعل التوكل على الله مقتضياً لهذا وذاك، ومقتضياً للاعتقاد في الله ومقتضياً لإسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد. (٥)

وكما في قوله تعالى (ولله غيب السموت والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون) (٦) فقرن في هذه الآية التوكل بالعبادة، وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بينهما كما في

(١) جزء من الآية ٢٣ من سورة المائدة.

(٢) في ظلال القرآن ٨٧٠/٦

(٣) الآية ٨٤ من سورة يونس.

(٤) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ٤٧٠/١١

(٥) انظر في ظلال القرآن ١٨١٥/١١

(٦) الآية ١٢٣ من سورة هود.

قوله تعالى: (قل هو الرحمن ءامنا به وعليه توكلنا) (١) وقوله تعالى: (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) (٢) وأمر الله المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات عديدة (إياك نعبد وإياك نستعين) (٣) (٤) وماذا لك إلا لما قدمنا من أن التوكل نصف الدين والنصف الآخر العبادة وكما في قوله تعالى: (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) (٥)

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: أى في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، الدائم الباقي السرمدي الأبدى، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذكرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: (يأيتها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) (٦) (٧)

وغير ذلك من الآيات، وفي الحديث "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً" (٨)

-
- (١) جزء من الآية ٢٩ من سورة الملك.
 - (٢) الآية ٩ من سورة المزمل.
 - (٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة.
 - (٤) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٢٣/٤
 - (٥) الآية ٥٨ من سورة الفرقان.
 - (٦) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة.
 - (٧) تفسير القرآن العظيم ١٢٨/٦
 - (٨) أخرجه أحمد في المسند ٥٢، ٣٠/١ وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ٢٤٣/١ رقم الحديث (٢٠٥) وأخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٥٧٣/٤ كتاب الزهد (٣٧) باب في التوكل على الله (٣٣) حديث رقم (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألبانى في صحيح الترمذى ٢٧٤/٢ رقم الحديث (٢٤٦١-١٩١١).

وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل). (١)(٢)

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون". (٣)

فما سبق كله يدل على أن التوكل على الله شرط في الإيمان ينتفى الإِيمان عند انتفائه، فمن لا توكل له لا إيمان له. (٤)

قال ابن القيم رحمه الله: وأفضل التوكل التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسع وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مسألة دينية أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغبة، ومن

(١) جزء من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٢١١/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة آل عمران (٣) باب (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم...) الآية (١٣) رقم الحديث (٤٥٦٣).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ١٥٦/٤ كتاب الدعوات (٨٠) باب الدعاء إذا انتبه من الليل (١٠) رقم الحديث (٦٣١٧) ومسلم في صحيحه ٢٠٨٦/٤ كتاب الذكر... (٤٨) باب التعوذ من شر ما عمل... (١٨) رقم الحديث (٢٧١٧/٦٧).

(٤) انظر مدارج السالكين ١٢٩/٢، وتيسير العزيز الحميد ٤٩٥-٤٩٦-٤٩٧.

صدق توكله على الله في حصول شىء ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً ميغوضاً كان ماحصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته. (١)

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين ثمان درجات للتوكل: (٢)

الدرجة الأولى: معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات فمن ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمر الله. (٣) فالالتفات إلى الأسباب قدح في التوحيد، وحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل،

(١) مدارج السالكين ١١٤/٢

(٢) انظر هذه الدرجات في مدارج السالكين ١١٧/٢ إلى ١٢٣

(٣) وهذه المسألة سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاب عنها بما لا تحتاج بعده إلى إيضاح كما في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فيسير لعمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فيسير لعمل الشقاوة ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) الآية". أخرجه البخارى في صحيحه ٤١٨/١-٤١٩ كتاب الجنائز (٢٣) باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (٨٢) رقم الحديث (١٣٦٢). ومسلم في صحيحه ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر (٤٦) باب كيفية الخلق الآدمى ... (١)

رقم الحديث (٢٦٤٧/٦).

والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلمها مع التوكل على الله، كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس لباس الحرب، ولا يكتفى في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد والاستعداد له، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم.

قال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان". (١)

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل، فعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبس السكون إلى مسببها وعلامة هذا أنه لا يبالى لإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره، لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٥٢/٤ كتاب القدر (٤٦) باب في الأمر بالقوة وترك

العجز (٨) رقم الحديث (٢٦٦٤/٣٤).

من خوفها ورجائها.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعية كلها إليه، وقطع منازعاته كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده.

الدرجة السابعة: التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو اللقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته، وتام كفايته وحسن ولايته، وتديره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه وقيامه بمصالحه وتولية لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتولية لها، فلا يجد له أصح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها، وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته.

الدرجة الثامنة: درجة الرضا، وهى ثمرة التوكل بل هى أجل ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله، وهذا كما فى دعاء الاستخارة ^(١): "اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم" فهذا توكل وتفويض، ثم قال: "فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب" فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه به

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ٣٦١/١ كتاب التهجد (١٩) باب ما جاء فى التطوع

مثنى... (٢٨) رقم الحديث (١١٦٦).

المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحة عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذه هي حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: "واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به" وقد اشتمل هذا الدعاء العظيم على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية، التي من جملتها التوكل، والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بماقضى له، فتفويضه معلول فاسد، قد قال صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً" (١) وقد تضمن هذا الحديث الرضى بربوبية الله وألوهيته والرضى برسوله والالتقياد له والرضى بدينه والتسليم له ومن اجتمعت له هذه الأربع فهو الصديق حقاً وهي سهلة بالدعوى واللسان ولكنها من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ولاسيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، والرضى بالوحيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه فهو يتضمن عبادته والإخلاص له، والرضى بربوبيته يتضمن الرضى بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به، فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني يتضمن رضاه بما يقدر عليه، وأما الرضا بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الالتقياد له والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقن الهدى إلا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٦٢/١ كتاب الإيمان (١) باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن (١١) رقم

من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه ولا يحكم عليه غيره ولا يرضى بحكم غيره البتة لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ولا في شيء من حقائق الإيمان ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه ولا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلا بحكمه، وأما الرضى بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضى كل الرضى ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليمًا ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواه أو قول مقلده وشيخه وطائفته وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد فإنه والله عين العزة. (١)

وأما بالنسبة لحكمه فالرضى بالقضاء الدينى الشرعى واجب، فهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض.

قال الله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (٢) فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليماً وهذا حقيقته الرضى بحكمه فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان والتسليم في مقام الإحسان فمتى خالط القلب بشاشة الإيمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيى بروح الوحي وتمهدت طبيعته وانقلبت النفسُ الأمارَةُ مطمئنةً راضيةً موادعةً وتلقى أحكام الرب بصدر واسع منشرح مسلم فقد رضى كل الرضى بهذا القضاء الدينى المحبوب لله ولرسوله. والرضى بالقضاء الكونى القدرى الموافق لمحبة العبد

(١) انظر مدارج السالكين ١٧٢/٢-١٧٣

(٢) الآية ٦٥ من سورة النساء.

وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له وليس في الرضى به عبودية بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التى يحب الله أن توضع فيها وأن لا يعصى المنعم بها وأن يرى التقصير في جميع ذلك وأما الرضى بالقضاء الكوني القدرى الجارى على خلاف مراد العبد ومحبتة مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره فهو مستحب وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان: وهذا كالمريض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك، وأما الرضى بالقدر الجارى عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان فهو حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه فكيف تنفق المحبة ورضى ما يسخطه الحبيب. (١)

(١) انظر مدارج السالكين ١٩٢/٢ - ١٩٣ .
وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين ١٧١/٢ إلى ٢٤٢ كلاماً
جليلاً في منزلة الرضا فليرجع إليه.

المبحث السابع عشر

الشكر

وهو من الأوصاف العظيمة فهو فوق وصف الرضى لأن الرضا مندرج في الشكر وقد أمر الله عز وجل به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزاء وجعله سبباً للمزيد من فضله وحارساً وحافظاً لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته فاشتق لهم اسماً من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور فهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً قال تعالى: (وكان الله شاكراً عليماً)^(١) وهو غاية العبد من ربه وأهله هم القليل من عباد الله تعالى: (واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون)^(٢) وقال تعالى: (واشكروا لي ولا تكفرون)^(٣) وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه)^(٤) وقال عن نبيه نوح عليه السلام: (إنه كان عبداً شكوراً)^(٥) وقال تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)^(٦) وقال تعالى كذلك: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)^(٧).

قال سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: ونقف نحن أمام هــ

-
- (١) جزء من الآية ١٤٧ من سورة النساء.
 - (٢) جزء من الآية ١٧٢ من سورة البقرة.
 - (٣) جزء من الآية ١٥٢ من سورة البقرة.
 - (٤) الآية ١٢٠ بتمامها وجزء من الآية ١٢١ من سورة النحل.
 - (٥) جزء من الآية ٣ من سورة الإسراء.
 - (٦) الآية ٧٨ من سورة النحل.
 - (٧) الآية (٧) من سورة إبراهيم.

الحقيقة الكبيرة حقيقة زيادة النعمة بالشكر والعذاب الشديد على الكفر نقف نحن أمام هذه الحقيقة نطمئن إليها قلوبنا لأول وهله لأنها وعد من الله صادق فلا بد أن يتحقق على أية حال فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ونبحث عن أسبابها المدركة لنا فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب.

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة... والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والذنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها فيكونون له عوناً ويصلح روابط المجتمع فتتموا فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفى لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أم لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها، أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي، كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامهما بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد.. وكله كفر بنعمة الله.

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة عيناً بذهابها، أو سحق آثارها على العبد، فكم من نعمة تكون بذاتها تقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين! وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله، ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء،

ذلك لأن الشكر لا تعود على الله عائدته، وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره فالله غنى محمود بذاته لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه. (١)

قال تعالى: (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم). (٢) قال ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية: يقول: ومن شكر نعمة الله عليه وفضله عليه فإنما يشكر طلب نفع نفسه، لأنه ليس ينفع بذلك غير نفسه، لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خلقه، وإنما دعاهم إلى شكره تعريضاً منه لهم للنفع، لا لاجتلاب منه بشكرهم إياه نفعاً إلى نفسه، ولا دفع ضرر عنها، (ومن كفر فإن ربي غنى كريم) يقول: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه لنفسه ظلم وحظها بخس، والله غنى عن شكره، لا حاجة به إليه، لا يضره كفر من كفر به من خلقه، كريم ومن كرمه إفضاله على من يكفر نعمه ويجعلها وصلة يتوصل بها إلى معاصيه. (٣)

والشكر عرفان الإحسان ونشره والشكور: الكثير الشكر يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح. (٤)

قال الراغب: الشكر هو تصور النعمة وإظهارها، قيل وهو مقلوب عن الكشر أى الكشف ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها.

ثم قال: والشكر ثلاثة أضرب:

الأول: شكر القلب وهو تصور النعمة.

الثاني: شكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

(١) انظر في ظلال القرآن ٢٠٨٨/١٣-٢٠٨٩

(٢) جزء من الآية ٤٠ من سورة النمل.

(٣) جامع البيان ١٦٥/١٩

(٤) انظر لسان العرب عند مادة (شكر) ٤٢٣/٤-٤٢٤، والقاموس المحيط عند مادة

(شكر) (ص ٥٤٧).

الثالث: شكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه (اعملوا آل داوود شكراً). (١)(٢)

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله إن حقيقة الشكر في العبودية ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً وعلى قلبه شهوداً ومحبة وعلى جوارحه انقياداً وطاعة. ثم قال: والشكر مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، ووجه له، واعترافه بنعمته وثنائؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر وبنائؤه عليها فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور. (٣)

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن إمام الشاكرين هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيحين أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً". (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بسؤال الله عز وجل الإعانة على الشكر فقال لمعاذ رضى الله عنه: "يامعاذ إني لأحبك فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي

(١) جزء من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٢) المفردات عند مادة (شكر) ص ٢٦٥

(٣) انظر مدارج السالكين ٢/٢٤٤

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٩٣/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة التفتح (٤٨)

باب (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك) (٢) رقم الحديث (٤٨٣٦) ومسلم في صحيحه ٢١٧١/٤ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب إكثار الأعمال

والاجتهاد في العبادة (١٨) رقم الحديث (٢٨١٩/٧٩).

يارسول الله وأنا أحبك قال: أوصيك يامعاذ لاتدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".^(١)

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٤/٥-٢٤٥ وأبو داود ٨٦/٢ كتاب الصلاة باب في الاستغفار رقم الحديث (١٥٢٢).
وصححه ابن حجر العسقلاني رحمه الله في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار ٢٨٢/٢
وصححه كذلك الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢٨٤/١ برقم (١٥٢٢/١٣٤٧).

المبحث الثامن عشر

الاعتصام

العصمة في كلام العرب المنع عصمه يعصمه عصماً منعه ووقاه. (١)
والعصمة الحفظ يقال: عصمته فانعصم واعتصمت بالله إذا امتنعت
بلطفه من المعصية وعصمه الطعام منعه من الجوع وهذا طعام يعصم أى
يمنع من الجوع. (٢)

قال ابن القيم رحمه الله: الاعتصام افتعال من العصمة وهو التمسك
بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف والعصمة الحمية والاعتصام
الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها. (٣)
وهو نوعان:

اعتصام بالله، واعتصام بجبل الله.

قال تعالى: (واعتصموا بجبل الله جميعاً ولا تفرقوا). (٤)

وقال تعالى: (واعتصموا بالله هو مولىكم فنعم المولى ونعم
النصير). (٥)

فأما الاعتصام بجبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من
الهلكة فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى
هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول الأمرين
فلاعتصام بجبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل والاعتصام بالله

(١) اللسان عند مادة (عصم) ٤٠٣/١٢

(٢) المرجع نفسه ٤٠٤/١٢

(٣) مدارج السالكين ٤٦٠/١

(٤) جزء من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٥) جزء من الآية ٧٨ من سورة الحج.

يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسير بها في طريقه ولهذا
اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا
المعنى. (١)

وقد قال ابن جرير رحمه الله عند قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله
جميعاً ولا تفرقوا): يعنى بذلك جل ثناؤه وتعلقوا بأسباب الله جميعاً يريد
بذلك تعالى ذكره وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به وعهده الذي عهده
إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله. (٢)
وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم
ثلاثاً فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله
جميعاً ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال". (٣)
قال النووي (٤) رحمه الله عند شرح هذا الحديث: "وأما الاعتصام
بحبل الله فهو التمسك بعهده وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده والتأدب
بأدبه. (٥)

وقد أخرج الطبري عن قتادة والسدي والضحاك (٦) أن المراد بحبل

(١) انظر مدارج السالكين ١/٤٦٠-٤٦١

(٢) جامع البيان ٣٠/٤

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١٣٤٠/٣ كتاب الأقضية (٣٠) باب النهي عن كثرة
المسائل من غير حاجة... (٥) رقم الحديث (١٧١٥/١٠).

(٤) هو الشيخ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي سار في الآفاق ذكره
وعلا بين الناس قدره صاحب التصانيف المشهورة المباركة النافعة ، ولد بنوا قرية
من الشام عام ٦٣١هـ وتفقّه على جماعة منهم المقدسي والإربلي وكان عاملاً
زاهداً من مصنفاته المجموع والأذكار وغيرها، مات سنة ٦٧٦هـ ودفن ببلده.
انظر طبقات الشافعية للأسنوى ٤٧٦/٢، تذكرة الحافظ ٢٥٠/٤

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١١/١٢

(٦) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد وقيل أبو القاسم صاحب التفسير ==

الله هو القرآن. (١)

وعن ابن مسعود: أن المراد بجبل الله الجماعة. (٢)

وعن أبي العالية: أن المراد بجبل الله الإخلاص لله وحده. (٣)

وعن ابن زيد: أن المراد بالحبل الإسلام. (٤)

وهذا اختلاف تنوع يجمعه كلام النووى المتقدم والله تعالى أعلم. وأما الاعتصام به تعالى فهو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه فإن ثمة الاعتصام به هو الدفع عن العبد والله يدافع عن الذين آمنوا فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضى به إلى العطب ويحميه منه فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها فيدفع عنه قدره بقدره وإرادته بإرادته ويعيده به منه. (٥)

قال تعالى: (فأقيموا الصلوة وءاتوا الزكاة واعتصموا بالله هو

مولكم فنعم المولى ونعم النصير). (٦)

(=) كان من أوعية العلم وليس بالموجود لحديثه وهو صدوق في نفسه وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وحديثه في السنن لا في الصحيحين وضعفه يحيى بن سعيد القطان، وقيل إنه لم يصح له سماع من الصحابة ولا من ابن عباس، توفي (١٠٢هـ) وقيل (١٠٥هـ) وقيل (١٠٦هـ) فالله أعلم. انظر سير أعلام

النبلاء ٥٩٨/٤، البداية والنهاية ٢٣١/٩

(١) أخرج هذه الآثار الطبرى في تفسيره ٣١/٤

(٢) أخرجه الطبرى في تفسيره ٣٠/٤

(٣) أخرجه الطبرى في تفسيره ٣١/٤

(٤) أخرجه الطبرى في تفسيره ٣٢/٤

(٥) انظر مدارج السالكين ٤٦٢/١

(٦) جزء من آية ٧٨ من سورة الحج.

قال ابن جرير رحمه الله عند قوله: (واعتصموا بالله) يقول: واتقوا الله وتوكلوا عليه في أموركم. (١)

وقال ابن كثير رحمه الله: أى اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به، ولهذا قال عز وجل بعد ذلك هو مولاكم أى حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم (فنعم المولى ونعم النصير) يعنى نعم المولى ونعم الناصر من الأعداء. (٢)

(١) جامع البيان ٢٠٩/١٧

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٥٣/٥

المبحث التاسع عشر

الرأفة والرحمة

ومن أوصاف القلب السليم الرأفة والرحمة.

والرأفة هي الرحمة وقيل أشد الرحمة^(١) رأف به يرأف ورئف ورؤف رأفة ورآفة.^(٢) وفي التزويل (ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله).^(٣) والرحمة: الرقة والتعطف^(٤) قال صاحب البصائر: الرحمة رقة تقتضي الإحسان للمرحوم.^(٥) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله^(٦) أن صفة الرحمة ينشأ عنها الرقة في القلب ثم قال: إذا أشرق في القلب نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلاً من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيماً رفيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره، فضلاً عن بني جنسه فهذا أقرب القلوب إلى الله. والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة وأبدل له بهما الغلظة والقسوة. وفي الحديث: "لا تتزع الرحمة إلا من شقى"^(٧) وفيه: "من لا يرحم

(١) قال الألويسي رحمه الله: والرأفة في المشهور الرحمة لكن قال بعض الأفاضل:

إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ورأب الصدع وبالرحمة ما فيه جلب الخير ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح. روح المعاني ٢٧/١٩٠

(٢) اللسان عند مادة (رأف) ١١٢/٩

(٣) جزء من الآية (٢) من سورة النور.

(٤) اللسان عند مادة (رحم) ٢٣٠/١٢

(٥) بصائر ذوى التمييز ٥٣/٣

(٦) انظر الروح ص ٣٣٧

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٢/٢ وأبو داود في السنن ٢٣٢/٥ كتاب الأدب ==

لا یرحم". (١)

وفیه: "أرحموا من فی الأرض یرحمکم من فی السماء". (٢)

وفیه: "أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحیم رقیق القلب لكل ذی قری ومسلم، وعفیف متعفف ذو عیال". (٣)
والرب تعالی هو الرؤوف الرحیم وأقرب الخلق إلیه أعظمهم رأفة ورحمة كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته. (٤)

والقول بأن الرحمة ضعف وخور فی الطبیعة وتألم على المرحوم باطل لأن الضعف والخور مذمومان من الآدمیین والرحمة ممدوحة وقد قال تعالی: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنین). (٥)

وندب النبی صلی الله علیه وسلم إلیها كما فی الأحادیث السابقة

(=) (٣٥) باب فی الرحمة (٦٦) رقم الحدیث (٤٩٤٢). والترمذی فی السنن کتاب البر (٢٨) باب ماجاء فی رحمة المسلمین (١٦) رقم الحدیث (١٩٢٣). وحسنه الألبانی فی صحیح أبی داود ٩٣٣/٣ برقم (٤٩٤٢/٤١٣٣).

(١) أخرجه البخاری فی صحیحه ٩١/٤ کتاب الأدب (٧٨) باب رحمة الولد (١٨) رقم الحدیث (٥٩٩٧) ومسلم فی صحیحه ١٨٠٨/٤-١٨٠٩ کتاب الفضائل (٤٣) باب رحمة النبی صلی الله علیه وسلم (١٥) رقم الحدیث ٢٣١٨/٦٥

(٢) أخرجه أحمد فی المسند ١٦٠/٢، وأبو داود فی السنن ٢٣١/٥ کتاب الأدب (٣٥) باب الرحمة (٦٦) برقم (٤٩٤١). والترمذی فی السنن ٣٢٣-٣٢٤ کتاب البر (٢٨) باب ماجاء فی رحمة المسلمین (١٦) برقم ١٩٢٤، وصححه الألبانی فی صحیح أبی داود ٩٣٣/٣ برقم ٤٩٤١-٤١٣٢

(٣) أخرجه مسلم فی صحیحه ٢١٩٧/٤-٢١٩٨ کتاب الجنة... (٥١) باب الصفات التي یعرف بها فی الدنیا... (١٦) رقم الحدیث (٢٨٦٥/٦٣) ضمن رواية مطولة.

(٤) الروح ٢٣٧-٢٣٨

(٥) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

والتي منها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تنزع الرحمة إلا من شقي". (١)
ومحال أن يقول: لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي ولكن لما كانت
الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور - كما في رحمة
النساء ونحو ذلك - ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً. (٢)

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) انظر الفتاوى ١١٧/٦

المبحث العشرون

الاستقامة

الاستقامة الاعتدال وقام الشئ واستقام اعتدل واستوى .

قال كعب بن زهير: (١)

وهم صرفوكم حين جزتم عن الهدى

بأسيافهم حتى استقمتم على القيم (٢)

وهى فى الشرع لزوم المنهج القويم. (٣)

قال ابن القيم رحمه الله: وهى القيام بين يدى الله على حقيقة

الصدق والوفاء بالعهد وهى تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات

والاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله (٤) وقد أمر الله عز وجل

رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستقامة فقال: (فاستقم كما أمرت

ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير). (٥)

(١) هو كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر المشهور صحابى معروف آذى المسلمين بشعره فأهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمه فأسلم كعب وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدة بانت سعاد فقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم وكساه بردة له.

وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر القصيدة وأنه ورد فى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه بردته حين أنشده القصيدة قال رحمه الله: وهذا من الأمور المشهورة جداً ولكن لم أر ذلك فى شئ من هذه الكتب المشهورة - يعنى الكتب التى ذكرته كدلائل النبوة وسيرة ابن إسحاق وغيرها - بإسناد أرتضيه فالله أعلم. انظر الإصابة ٢٧٩/٣، والبداية والنهاية

٣٦٧/٤

(٢) اللسان مادة (قوم) ٤٩٨/١٢

(٣) بصائر ذوى التمييز ٣١١/٤

(٤) مدارج السالكين ١٠٥/٢

(٥) الآية ١١٢ من سورة هود.

قال ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية: يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم أنت يا محمد على أمر ربك والدين الذي ابتعثك به والدعاء إليه كما أمرك ربك (ومن تاب معك) يقول: ومن رجع معك إلى طاعة الله والعمل بما أمره به ربه من بعد كفره (ولا تطغوا) يقول: ولا تعدوا أمره إلى مانهاكم عنه (إنه بما تعملون بصير) يقول إن ربكم أيها الناس بما تعملون من الأعمال كلها طاعتها ومعصيتها بصير ذو علم بها لا يخفى عليه منها شيء وهو لجميعها مبصر يقول تعالى ذكره فاتقوا الله أيها الناس أن يطلع عليكم ربكم وأنتم غافلون بخلاف أمره فإنه ذو علم بما تعملون وهو لكم بالمرصاد. (١)

وكان سفيان يقول في قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت) قال: استقم على القرآن. (٢)

قال سيد قطب رحمه الله: وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه من يقظة وتخرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر والله يريد دينه كما أنزله ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء. (٣)

(١) جامع البيان ١٢/١٢٦

(٢) المرجع السابق نفسه ١٢/١٢٦

(٣) في ظلال القرآن ٤/١٩٣١

ولما كانت الاستقامة أمراً يحتاج إلى جهد عظيم وعمل شاق فقد قال صلى الله عليه وسلم لما قال له أبو بكر رضى الله عنه: يارسول الله قد شئت قال: "شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت" ^(١) وماذا لك إلا لما ذكرنا ولما في هذه السور من أهوال يوم القيامة والمثلثات ^(٢) النوازل بالأمم الماضية فإنه أخذ منه مأخذه صلى الله عليه وسلم حتى شاب قبل أوامه. ^(٣)

وقد ذكر الله تعالى في كتابه جزاء المستقيمين فقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون). ^(٤)

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في وقت تنزل الملائكة على المستقيمين بالبشرى ثلاثة أقوال:

الأول: أن ذلك يكون عند الموت. ونسبه إلى مجاهد والسدى وزيد بن أسلم ^(٥) وابنه ويشهد لهذا القول حديث البراء. ^(٦)

(١) أخرجه الترمذى ٤٠٢/٥ كتاب تفسير القرآن (٤٨) الباب السابع والخمسون حديث رقم (٣٢٩٧). وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. وصححه الألبانى في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥).

(٢) المثلة: نعمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً يرتدع به غيره، وجمعه مثلثات ومثلثات. انظر المفردات مادة (مثل) ص ٤٦٣

(٣) انظر تحفة الأحوذى ١٩٣/٤

(٤) الآية (٣٠) من سورة فصلت.

(٥) هو الإمام الحجة القدوة أبو عبدالله العدوي العمري المدني الفقيه، حدث عن والده أسلم مولى عمر، كان من العلماء العاملين، توفي في ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومئة. انظر سير أعلام النبلاء ٣١٦/٥، وشذارت الذهب ١٩٤/١

(٦) انظر حديث البراء في مسند الإمام أحمد ٢٨٧/٤-٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٩، وسنن أبي داود ١١٤-١١٦ كتاب السنة (٣٤) باب المسألة في القبر (٢٧) رقم الحديث

(٤٧٥٣) وقد صححه الألبانى في صحيح أبى داود ٩٠١/٣ برقم ٣٩٧٩

الثاني: أن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. وقد حكى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما. (١)

القول الثالث: أن ذلك يكون عند موته وفي قبره وحين يبعث. كما نقل ذلك ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم.

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذه الأقوال وهذا القول -يعنى الأخير- يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع. (٢)

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضى الله (٣) عنه قال: قلت: يارسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لاأسأل عنه أحداً غيرك ؟ قال: "قل آمنت بالله ثم استقم". (٤)

وفيه عن ثوبان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" (٥) فالمطلوب من العبد الاستقامة وهى السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت

(١) انظر جامع البيان ١١٦/٢٤

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ١٦٥/٧-١٦٦

(٣) هو سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة بن الحارث بن مالك الثقفي الطائفي أسلم مع الوفد، استعمله عمر على صدقات الطائف وشهد حينئذ. انظر الإصابة ٥٣/٢

(٤) أخرجه مسلم فى الصحيح ٦٥/١ كتاب الإيمان (١) باب جامع أوصاف الإسلام (١٣) رقم الحديث (٣٨/٦٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه فى السنن ١٠٢، ١٠١/١ كتاب الطهارة (١) باب المحافظة على الوضوء (٤) الحديث (٢٧٧).

يارسول الله؟ قال: ولأنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل".^(١) فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهى السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال وأخبر في حديث ثوبان^(٢) أنهم لا يطبقونها فنقلهم إلى المقاربة وهى أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذى يرمى إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا "فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله".^(٣)

وحتى تتحقق الاستقامة لأبد من أصليين وهما: الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الاتقياء للسنة أخرجه عن الاعتصام بها وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها ولم يظفر به من باب اقتطاعه عنها أمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاورة حد الاقتصاد فيها قائلاً له إن هذا خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تم مع أهل النوم فلا يزال يحشه ويحرضه حتى يخرجته عن الاقتصاد فيها

(١) أخرجه البخارى في الصحيح ١٨٤/٤ كتاب الرقاق (٨) باب القصد والمداومة (١٨) حديث رقم (٦٤٦٣).

وأخرجه مسلم في الصحيح ٢١٦٩/٤ كتاب صفات المنافقين (٥٠) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (١٧) رقم الحديث (٢٨١٦/٧١).

(٢) هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سبي من أرض الحجاز فاشتراه النبي صلى الله عليه وسلم وأعتقه، فلزم النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظ عنه كثيراً من العلم، وطال عمره، واشتهر ذكره، شهد فتح مصر، توفي سنة أربع وخمسين. انظر سير أعلام النبلاء ١٥/٣، وشذرات الذهب ٥٩/١

(٣) انظر مدارج السالكين ١٠٥/٢

فيخرج عن حدها، فكما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذلك هذا الآخر خارج عن الحد الآخر، وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم. فكل الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة لكن أحدهما إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بشيء إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط ولا يبالى بأيهما ظفر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما^(١) تنبيهاً على ذلك: "يا عبدالله بن عمرو إن لكل عامل شره ولكل شره فتوه فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر"^(٢) وقد قال له ذلك حين أمره بالاعتصام بالعمل فكل الخير في اجتهد باقتصاد وإخلاص مقرون بالاتباع.^(٣)

(١) هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد القرشي السهمي إمام حبر عابد أسلم قبل أبيه، وله مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل، توفي سنة ثلاث وستين، وقيل سنة خمس وستين. انظر سير أعلام النبلاء ٧٩/٣، شذرات الذهب ٧٣/١

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨٨/٢ وصححه إسناده أحمد شاكر ٤٠/١١ برقم ٦٧٦٤

(٣) انظر مدارج السالكين ١٠٧/٣-١٠٨

المبحث الحادي والعشرون

الإيثار

آثره: أكرمه ورجل أثير مكرم والجمع أثراء والأثني أثيرة وآثره عليه فضله وآثرت فلاناً على نفسه من الإيثار أى فضلته وقدمته. (١)
 فالإيثار ترجيح شىء على غيره بمكرمة أو منفعة. (٢) والإيثار ضد الشح فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح حريص على ماله بيده فإذا حصل بيده شىء بخل بإخراجه فالبخل ثمة الشح والشح يأمر بالبخل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا". (٣)
 فالبخل من أجاب داعى الشح والمؤثر من أجاب داعى الجود. (٤)
 والإيثار أعلى مراتب الجود فإن مراتب الجود ثلاثة:
 أحدها: أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه فهو منزلة السخاء.
 الثانية: أن يعطى الأكثر ويبقى له شيئاً أو يبقى مثل ما أعطى فهو الجود.

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشىء مع حاجته إليه وهو مرتبة الإيثار، وعكس الإيثار الأثرة وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه وهى المرتبة التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار رضى الله عنهم

(١) انظر اللسان في مادة (أثر) ٧/٤

(٢) التحرير والتنوير ٩٣/٢٨

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح ١٩٩٦/٤ كتاب البر (٤٥) باب تحريم الظلم (١٥) برقم

٢٥٧٨/٥٦

(٤) انظر مدارج السالكين ٢٩١/٢

"إنكم ستلقون بعدى أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".^(١)
والأنصار هم الذين وصفهم الله عز وجل بالإيثار في قوله تعالى:
(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)^(٢) فوصفهم بأعلى مراتب السخاء وكان ذلك فيهم معروفاً.^(٣)
قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) يعنى حاجة أى يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفضل الصدقة جهد المقل"^(٤)^(٥) وهذا المقام أعلى من حال الذين وصفهم الله بقوله: (ويطعمون الطعام على حبه)^(٦) وقوله: (وءاتى المال على حبه)^(٧) فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ماتصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ماأنفقوا، ومن هذا المقام تصدق الصديق رضى الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- (١) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١/٣ كتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" (٨) برقم ٣٧٩٣، ومسلم في صحيحه ٤٧٢/٣ كتاب الإمارة ٣٣ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٠) برقم ١٨٤٣/٤٥
- (٢) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر.
- (٣) مدارج السالكين ٢٩٢/٢
- (٤) جهد المقل: أى قدر مايحتمله حال القليل المال. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (جهد) ٣٢٠/١
- (٥) أخرجه أبو داود ٧٩/٢ كتاب الصلاة أبواب الوتر برقم ١٤٤٩، والنسائى ٥٨/٥ كتاب الزكاة (٢٣) باب جهد المقل (٤٩) برقم ٢٥٢٦، وأحمد في المسند ٣٥٨/٢، وصححه الألبانى في صحيح أبى داود ٢٧١/١-٢٧٢ برقم (١٤٤٩/١٢٨٦).
- (٦) جزء من الآية ٨ من سورة الإنسان.
- (٧) جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

"ما أبقيت لأهلك؟" فقال: "أبقيت لهم الله ورسوله".^(١)

ومنه أيضاً ما رواه البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يارسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندى إلا قوت الصبية قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن وتعالى فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة فأنزل الله عز وجل: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (٢) (٣) (٤).

ومما ينبغى أن يعلم أنه لا يحل إيثار يؤدى إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين مثل أن تؤثر بمالك وتقعّد كلاً مضطراً مستشرفاً للناس أو سائلاً وكذلك الإيثار بكل ما يجرمه على المؤثر دينه لأنه سفه وعجز، يذم المؤثر به عند الله وعند الناس، وكذلك لا يحل إيثار يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك وتوجهك إلى الله فتكون

(١) أخرجه أبو داود في السنن ٣١٢/٢-٣١٣ كتاب الزكاة (٣) باب في الرخصة في ذلك (٤٠) برقم ١٦٧٨، والترمذى في السنن ٦١٤/٥-٦١٥ كتاب المناقب (٥٠) باب في مناقب أبي بكر (١٦) برقم ٣٦٧٥ وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الألبانى في صحيح الترمذى ٢٠٢/٣-٢٠٣ برقم ١٩٠٢، ٣٩٣٩

(٢) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر.

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٢/٣ كتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب قول الله (ويؤثرون على أنفسهم) (١٠) برقم ٣٧٩٨

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم ٩٦/٨-٩٧

قد آثرته على الله وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار فيكون مثلك
 كمثّل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه فأخذ يحدثه ويلهيه حتى
 فاته الرفاق، وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره وما أقل المؤثرين الله
 تعالى على غيره، وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح أيضاً،
 وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهمات الناس ومصالحهم التي
 لا تتعين على المرء على الفكر النافع واشتغال القلب بالله ونظائر ذلك لا تحفى
 وذلك حال الخلق والغالب عليهم فكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك
 ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحداً فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان
 على الله وأنت لاتعلم، ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب وقالوا: إنه
 مكروه أو حرام لمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو أو يؤثره بقربه
 من الإمام يوم الجمعة أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة أو يؤثره بعلم يحرمه
 نفسه ويدفعه عليه فيفوز به دونه. (١)

المبحث الثاني والعشرون

الصفاء

أصل الصفاء خلوص الشيء من الشوب ومنه الصفاء الحجارة الصافية قال تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله) (١)(٢)

والمقصود هنا خلوص القلب من كل ما قد يشوب سلامته فيخلص توحيده لله عز وجل في المعرفة والإثبات والقصد والطلب من كل شرك صغيره وكبيره، ويخلص علمه المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل شبهة ويخلص قلبه من كل شهوة.

فيالها من صفة عظيمة رفيعة القدر أنعم الله عز وجل على أنبيائه الكرام بها، قال تعالى: (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) (٣) وقال تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) (٤) وقال تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وءال إبراهيم وءال عمران على العالمين) (٥).

واصفاء الله تعالى بعض عباده قد يكون بإيجاده إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر ذلك من الأول.

والصفى والصفية ما يصفيه الرئيس لنفسه. (٦)

ولا يتم هذا الوصف للعبد المسلم إلا بملازمة الكتاب والسنة وترك

(١) جزء من الآية ١٥٨ من سورة البقرة.

(٢) المفردات عند مادة (صفو) ص ٢٨٣

(٣) الآية ٤٧ من سورة ص

(٤) جزء من الآية ٧٥ من سورة الحج.

(٥) الآية ٣٣ من سورة آل عمران.

(٦) انظر المفردات عن مادة (صفو) ص ٢٨٣

الأهواء والبدع والافتداء بالسلف وترك ما أحدثه الآخرون والإقامة على
ماسلكه الأولون. (١)(٢)

-
- (١) انظر مدارج السالكين ١٤٢/٣
(٢) وأما بالنسبة لاختيار الأنبياء ليكونوا أنبياء وإعدادهم لذلك فهذا اختيار خاص
خاضع لمشئة الله تعالى ولا يمكن لأحد أن يكتسبه مهما بلغ في إيمانه وتقواه
قال تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار) (القصص: ٦٨).

المبحث الثالث والعشرون

الفرح

الفرح تقيض الحزن فرح فرحاً ورجل فرح وفرح ومفروح. (١)
 قال ابن القيم رحمه الله: وهو لذة تقع في القلب لإدراك المحبوب
 ونيل المشتى فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور كما أن الحزن
 والغم من فقد المحبوب فإذا فقدته تولد من فقدته حالة تسمى الحزن
 والغم. (٢)

وقد جاء الفرح في القرآن الكريم على نوعين: (٣)
 مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء في الذم كقوله تعالى: (لا تفرح إن الله لا يحب
 الفرحين) (٤) وقوله تعالى: (إنه لفرح فخور). (٥)
 وقد قال ابن عباس عند قوله تعالى: (إن الله لا يحب الفرحين) يقول:
 المرحين. (٦)

وقال مجاهد: المتبذخين الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على
 ما أعطاهم. (٧)

وقال كذلك: يعنى به البغى. (٨)

(١) اللسان مادة (فرح) ٥٤١/٢

(٢) مدارج السالكين ١٥٧/٣

(٣) انظر مدارج السالكين ١٥٧/٣ - ١٥٨

(٤) جزء من الآية ٧٦ من سورة القصص.

(٥) جزء من الآية ١٠ من سورة هود.

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١١١/٢٠

(٧) المرجع نفسه.

(٨) جامع البيان ١١١/٢٠

والمقيد نوعان أيضاً:

الأول: مقيد بالدنيا ينسى صاحبه فضل الله ومنتته وهو مذموم وهو المذكور في قوله تعالى: (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون). (١)
قال صاحب الظلال رحمه الله عند هذه الآية حتى إذا فرحوا بما أوتوا غمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها بلا شكر ولا ذكر وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع بعد فساد القلوب والأخلاق وجر هذا وذاك إلى نتائج طبيعية من فساد الحياة كلها عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل (أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون) فكان أخذهم على غرة وهم في سهوة وسكرة فإذا هم حائرون منقطعوا النجاة في الرجاء عاجزون عن التفكير في أي اتجاه فإذا هم مهلكون مجلتهم حتى آخر واحد منهم فقطع دابر القوم الذين ظلمون والحمد لله رب العالمين. (٢)

والثاني مقيد بفضل الله وبرحمته وهو نوعان أيضاً

فرح بالسبب وفرح بالمسبب

فالأول: كقوله تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو

خير مما يجمعون). (٣)

قال ابن القيم رحمه الله: ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل

الله ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهـدى

(١) جزء من الآية ٤٤ من سورة الأنعام.

(٢) الظلال ١٠٩٠/٧

(٣) الآية ٥٨ من سورة يونس.

والرحمة، فأخبر سبحانه أن مآق عبادته من الموعظة التي هى الأمر والنهى المقرون بالترغيب والترهيب وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغى والسفه فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها أى هذا الذى ينبغى أن يُفرَحَ به ومن فرح به فقد فرح بأجلّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا فيها فإنه ليس بموضع للفرح لأنه عرضة للآفات ووشيك الزوال ووخيم العاقبة وهو طيف خيال زار الصب في المنام ثم انتضى المنام وولى الطيف وأعقب مزاره الهجران. (١)

وقال صاحب الظلال: والإسلام لا يحقر أغراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها إنما هو يزننها بوزنها ليستمتع الناس بها وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد مطمئحهم أعلى من هذه الأغراض وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض، الإيمان عندهم هو النعمة وتأدية مقتضيات الإيمان هى الهدف والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لاسلطان لها عليهم. (٢)

ثم قال أيضاً رحمه الله: إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين في هداه الذى يشفى الصدور ويحرر الرقاب ويعلى من القيم الإنسانية في الإنسان وفي ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذى أعطاه للناس في الأرض وبالتصنيع الذى يوفر الإنتاج المادى وبالتيسيرات المادية التى تقلل من شدة الكدح وبسائر هذه القيم التى تدق الجاهلية حولها الطبول في الأرض وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيمة الحيوية والآلية على حساب القيم الإنسانية العلوية. (٣)

(١) انظر مدارج السالكين ١٥٧/٣

(٢) الظلال ١٧٩٩/١١

(٣) الظلال ١٨٠١/١١

والثاني: هو الفرح بالمسبب كقوله تعالى: (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم).^(١)

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: أى الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يخزنون على ما تركوه وراءهم.^(٢)

وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق^(٣) قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية (لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)^(٤) فقال: أما إنا قد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً فقالوا أى شئ نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى تقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا"^(٥) فهذا فرح بما نالوه بسبب استشهادهم في سبيل الله تعالى.

-
- (١) جزء من الآية ١٧٠ من سورة آل عمران.
- (٢) تفسير ابن كثير ١٤٢/٢
- (٣) هو الإمام القدوة العلم أبو عائشة الوادعي الهمداني الكوفي مسروق بن الأجدع ابن مالك بن أمية يقال إنه سُرق وهو صغير ثم وُجد فُسِمِي مسروقاً من كبار التابعين روى عن عدد من الصحابة مات سنة ٦٢ هـ وقيل ٦٣ هـ. انظر السير ٦٣/٤، شذرات الذهب ٧١/١
- (٤) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.
- (٥) أخرجه مسلم في الصحيح ١٥٠٢/٣، كتاب الإمارة (٣٣) باب بيان أرواح الشهداء (٣٣) الحديث (١٨٨٧/١٢١).

والفرح بالله وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن من أعلى المقامات قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً) (١) وقال تعالى: (والذين ءاتينهم الكتب يفرحون بما أنزل إليك) (٢) فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمها عند صاحبها ومحبة لها وإيثاره لها على غيرها فإن فرح العبد بالشئ عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه فمن ليس له رغبة في الشئ لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته فالفرح تابع للمحبة والرغبة والفرق بينه وبين الاستبشار أن الفرح بالمحبيب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله ولهذا قال تعالى: (فرحين بما ءاتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) (٣)

والفرح صفة كمال ولذلك يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها كفرحه بتوبة التائب (٤). والمقصود أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته فالفرح والسرور نعيمه والهم والحزن عذابه والفرح بالشئ فوق الرضا به فإن الرضا طمأنينة وسكون وانسراح والفرح لذة وبهجة وسرور فكل فرح راضٍ وليس كل راضٍ فرحاً ولهذا كان الفرح ضد الحزن والرضا ضد السخط والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إذا كان مع العجز عن الانتقام. (٥)

-
- (١) جزء من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.
 (٢) جزء من الآية ٣٦ من سورة الرعد.
 (٣) جزء من الآية ١٧٠ من سورة آل عمران.
 (٤) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "لله أشد فرحاً بتوبة عبده.. الحديث أخرجه البخارى في الصحيح ١٥٤/٤ كتاب الدعوات (٨٠) باب التوبة (٤) برقم ٦٣٠٩ ومسلم في صحيحه ٢١٠٤-٢١٠٥ كتاب التوبة (٤٩) باب في الحظ على التوبة (١) برقم (٢٧٤٧/٧)

المبحث الرابع والعشرون

الغَيْرَة

وهى بالفتح مصدر من قولك غار الرجل على أهله وغار الرجل على امرأته والمرأة على بعلمها تغار غَيْرَةً وَغَيْراً وَغَاراً وَغِيَاراً ورجل غيران والجمع غِيَارِي وَغِيَارِي، وَغَيُور والجمع غُيُر. (١)

والغيرة إما أن تكون من الشيء أو عليه، فالغيرة من الشيء هى كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك والغيرة عليه هى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به. والغيرة على أنواع:

أعلاها: غيرة الحق تعالى على عبده وهى أن لا يجعله للخلق عبداً بل يتخذة لنفسه عبداً فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين بل يفردة لنفسه ويضن به على غيره وكذلك يغار عليه أن يقع فيما حرم عليه. قال تعالى: (قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن). (٢)

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش". (٣)

النوع الثانى: غيرة العبد لربه وهى نوعان أيضاً:

غيرة من نفسه، وغيرة من غيره.

فالتى من نفسه أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته

(١) اللسان في مادة (غير) ٤١/٥-٤٢

(٢) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه البخارى ٣٢٨/١ كتاب الكسوف (١٦) باب الصدقة في الكسوف (٢) برقم ١٠٤٤ ومسلم ٢١١٣/٤ كتاب التوبة (٤٩) باب غيرة الله (٦) برقم

وأنفاسه لغير ربه.

وأما التى من غيره فهى أن يغضب لمحارم الله عز وجل إذا انتهكها المنتهكون ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

وغيرة العبد من نفسه أهم من غيرته من غيره لأنك إذا غرت من نفسك صحت لك غيرتك لله من غيرك وإذا غرت له من غيرك ولم تغر من نفسك فالغيرة مدخولة معلولة فتأملها وحقق النظر فيها.

وأما الغيرة على الله فأعظم الجهل وأبطل الباطل وصاحبها من أعظم الناس جهلاً وربما أدت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام وربما كان صاحبها شراً على السالكين إلى الله من قطاع الطريق بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة لكنه أخرج قطع الطريق في قالب الغيرة وإلا فأين هذا من الغيرة لله التى توجب تعظيم حقوقه وتصفية أعماله وأحواله لله فالعارف يغار لله والجاهل يغار على الله. وقد حكى عن واحد من مشهوري الصوفية أنه قال لأستريح حتى لا أرى من يذكر الله يعنى غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم والعجب أن هذا يعد من مناقبه ومحاسنه وغاية هذا أن يعذر فيه لكونه مغلوباً على عقله وهو من أقبح الشطحات وذكر الله على الغفلة وعلى كل حال خير من نسيانه بالكلية والألسن متى تركت ذكر الله الذى هو محبوبها اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه فأى راحة للعارف في هذا وهل هو إلا أشق عليه وأكره إليه؟. وقول آخر لا أحب أن أرى الله ولا أنظر إليه فقليل له كيف قال غيرة عليه من نظر مثلى فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة الدالة على جهل صاحبها مع أنه في خفارة ذله وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه. (١)

المبحث الخامس والعشرون

التواضع

التواضع لغة هو التذلل وتواضع الرجل ذل وتواضعت الأرض:
اخفضت عما يليها. (١)

وهو في الشرع انكسار القلب لله وتلقي سلطان الحق بالخضوع له
والذل والانتقياد وخفض جناح الذل والرحمة لعباد الله فلا يرى له على
أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق
لهم قبله.

ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بضده فقال: "الكبر بطر
الحق وغمط الناس." (٢) فبطر الحق: رده وجحده والدفع في صدره كدفع
الصائل. و"غمط الناس" احتقارهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم،
دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها. (٣)

والتواضع نوعان:

أحدهما: محمود وهو ما تقدم تعريفه.

والثاني: مذموم وهو ضعة (٤) لا تواضع وهو الدناءة والخسة وبذل
النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفلى في نيل شهواتهم
وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه والله تعالى يحب التواضع

(١) اللسان عند مادة (وضع) ٣٩٧/٨

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٩٣/١ كتاب الإيمان (١) باب تحريم الكبر وبيانه (٣٩)
رقم الحديث (٩١/١٤٧).

(٣) انظر الروح ص ٣١٣ ومدارج السالكين ٣٣٣/٢

(٤) الضعة: خلاف الرفعة في القدر وهي الذل والهوان والدناءة.
اللسان عند مادة (وضع) ٣٩٧/٨ والنهاية لابن الأثير باب الضاد مع العين

ويبغض الضعة والمهانة. (١)

وكلامنا سوف يكون بإذن الله عز وجل حول التواضع المحمود على اعتبار أنه أحد أوصاف القلب السليم.

ويشترط للتواضع شرطان حتى يحمد فاعله وهما:

الأول: الإخلاص: لأن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم (٢) وقد جاء مصرحاً بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله". (٣)

الثاني: القدرة: فإن من ترك الشيء لأنه لا يقدر عليه لا يعد متواضعاً قال صلى الله عليه وسلم: "من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها". (٤)

والتواضع على درجتين: (٥)

الدرجة الأولى: التواضع للدين: وهو الاتقياد لما جاء به الرسول

صلى الله عليه وسلم والاستسلام له والإذعان وذلك بثلاثة أمور:

(١) انظر الروح ص ٣١٣-٣١٤

(٢) كما في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه" أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٨٩/٤ كتاب الزهد والرقائق (٥٣) باب من أشرك في عمله غير الله وفي نسخة باب تحريم الرياء (٥) رقم الحديث (٢٩٨٥/٤٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٠١/٤ كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب استحباب العفو والتواضع (١٩) رقم الحديث (٢٥٨٨/٦٩).

(٤) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٦٥٠/٤ كتاب صفة القيامة (٣٨) باب (٣٩) رقم الحديث (٢٤٨١) وقال الترمذى: هذا حديث حسن. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذى ٣٠٣/٢ برقم (٢٦١١-٢٠١٧).

(٥) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين ٣٣٣/٢ إلى ٣٣٨

الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.
 فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل وعزلنا النقل إما عزل تفويض وإما عزل تأويل.
 والله عز وجل بين لنا أن الذى يدفعهم إلى ذلك هو الكبر الذى فى قلوبهم قال تعالى: (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير). (١)

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا إذا تعارض القياس والرأى والنصوص: قدمنا القياس على النص ولم نلتفت إليه.
 والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف الزهد فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال ولم يعبأوا بالأمر.
 والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر، والتواضع التخلص من ذلك كله.
 الثانى: أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه وقد أحسن من قال: (٢)

(١) الآية ٥٦ من سورة غافر.

(٢) هذان البيتان ذكرهما ابن القيم فى مدارج السالكين ٣٣٤/٢

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم
الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً البتة لا بباطنه ولا بلسانه ولا
بفعله واعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه وشيخه ومقلده أو لرأيه
ومعقوله وذوقه وسياسته إن كان عند الله معذرواً - ولا والله ما هو
بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعدر عند الله ورسوله
وملائكته والمؤمنين من عباده. فواعجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص
لعذر من خالفها تقليداً أو تأويلاً أو غير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من
خالف أقواله وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له
الجبائل^(١)، ونعوه الغوائل^(٢)، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالاً من
أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لوأذا، وقذفوه بمصائبهم، وجعلوا
تعظيم المتبوعين ملاذاً لهم ومعاذاً.

واعلم أنه لا يحقق ذلك كله^(٣) إلا من استنارت بصيرته ورزق فرقاناً
يفرق به بين الحق والباطل، ولا يكون ذلك إلا بتقوى الله عز وجل
وإدارة النظر في أعلام الحق وأدلتها والتجرد لله من الهوى، قال تعالى:
(يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَاناً وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).^(٤) وقال تعالى: (يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ
بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).^(٥)

(١) الجبائل: هى المصايد، واحداً منها جبالة بالكسر وهى ما يصاد بها من أي شىء
كان. انظر اللسان ١٣٦/١١ مادة (جبَل).

(٢) الغوائل: هى الدواهي. انظر اللسان ٥٠٧/١١ مادة (غول).

(٣) المراد تحقيق الأمور الثلاثة التى بها يكون التواضع للدين.

(٤) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد.

قال سيد قطب رحمه الله عند آية الأنفال: هذا هو الزاد وهذه هي عدة الطريق زاد التقوى التي تقي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيلة والتوقي، وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على حد البصر فلا تغبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة، ثم هو زاد المغفرة للخطايا، الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفذ الأزواد وتقصّر الأعمار. إنها حقيقة: إن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له متعرجات الطريق ولكن هذه الحقيقة - ككل حقائق العقيدة - لا يعرفها إلا من ذاقها فعلاً! إن الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقها!

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر، والباطل يظل ملتبساً بالحق عند مفارق الطريق! وتظل الحجة تفحم ولكن لا تنفع، وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل، ويظل الجدل عبثاً والمناقشة جهداً ضائعاً.. ذلك ما لم تكن هي التقوى.. فإذا كانت استنار العقل، ووضح الحق وتكشف الطريق واطمأن القلب، واستراح الضمير، واستقرت القدم وثبتت على الطريق.

إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة.. إن هناك اصطلاحاً من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه والذي خلقت به السموات والأرض.. ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة، الهوى هو الذي ينشر الغبش ويحجب الرؤية ويعمي المسالك ويخفي الدروب.. والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى.. تدفعه مخافة الله ومراقبته في السر والعلن.. ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة ويرفع اللبس ويكشف الطريق، وهو أمر لا يقدر بثمن.. ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب، ثم يضيف إليهما "الفضل العظيم".

ألا إنه العطاء العميم الذى لا يعطيه إلا الرب الكريم ذو الفضل العظيم! (١)

الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً وأن لا ترد على عدوك حقاً، وأن تقبل من المعتذر معاذيره. لأن عدم رضاك بمن رضى به خالقك وسيدك عبداً أخاً عين الكبر وأى قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله لا يرضى بأخوته وسيده راض بعبوديته؟

ويترتب على ذلك أن المتكبر غير راض بعبودية سيده إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده، وقد ذكر الله عز وجل أخوة المؤمنين في مواطن عديدة من كتابه وأثنى عليها فقال تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) (٢) وقال تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) (٣) وقال صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم". (٤) وكذلك تشمل هذه الدرجة قبولك الحق ممن تحب وممن تبغض قال تعالى: (يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون). (٥)

وتشمل كذلك قبول معذرة المعتذر فإن هذا من تمام التواضع وحتى

-
- (١) في ظلال القرآن ١٤٩٩/٣
 (٢) جزء من الآية ١٠ سورة الحجرات.
 (٣) جزء من الآية ١٠٣ سورة آل عمران.
 (٤) أخرجه البخارى في صحيحه ١٩٠/٢ كتاب المظالم (٤٦) باب لا يظلم المسلم المسلم (٣) رقم الحديث (٢٤٤٢) ومسلم في صحيحه ١٩٩٦/٤ كتاب البر (٤٥) باب تحريم الظلم (١٥) رقم الحديث (٢٥٨٠/٥٨).
 (٥) الآية ٨ سورة المائدة.

إن رأيت في عذره خللاً لا توقفه عليه ولا تحاجه وقد قال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن غر كريم" (١) والفاجر خب^(٢) لئيم" (٣).
ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إمام المتواضعين ومن أمثلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله" (٤).
وعن أنس رضى الله عنه قال: "ولقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه بشعير، ومشيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخه" (٥)، ولقد سمعته يقول: ما أصبح لآل محمد صلى الله عليه وسلم إلا صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات" (٦).

-
- (١) غر كريم: أي ليس بذئ نكر فهو يتخذ لانقياده ولينه والمراد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه وليس ذلك منه جهلاً ولكنه كرم وحسن خلق. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (غرر) ٣/٣٥٤-٣٥٥.
- (٢) الخب بالفتح الخداع وهو الذي يسعى بين الناس بالفساد وقد تكسر خاؤه وأما المصدر فبالكسر لا غير. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (خب) ٤/٢.
- (٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٩٤، وأبو داود في السنن ٥/١٤٤ كتاب الأدب رقم (٣٥) باب في حسن العشرة (٦) رقم الحديث (٤٧٩٠) والترمذى في الجامع الصحيح ٤/٣٤٤ كتاب البر (٢٨) باب ماجاء في البخيل (٤١) رقم الحديث (١٩٦٤) وقال الترمذى: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وحسنه الشيخ الألبانى في صحيح أبي داود ٣/٩٠٩ برقم (٤٠٠٦-٤٧٩٠).
- (٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٢/٤٩٠ كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم) (٤٨) رقم الحديث (٣٤٤٥).
- (٥) الإهالة السنخة: كل شيء من الأدهان مما يؤتمد به إهالة وقيل هو ما أذيب من الألية والشحم وقيل الدسم الجامد والسنخة المتغيرة الريح. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (أهل) ٨٤/١.
- (٦) أخرجه البخارى في صحيحه ٢/٢١٠ كتاب الرهن (٤٨) باب في الرهن في الحضر... (١) رقم الحديث (٢٥٠٨).

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله أوحى إلى أن
تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد".^(١)
وقال صلى الله عليه وسلم: "ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً
بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله".^(٢)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٩٧/٤-٢١٩٩ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١)
باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا (١٦) رقم الحديث (٢٨٦٥/٦٤).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٨٨)

المبحث السادس والعشرون

الطهر

الطهر تقيض النجاسة والجمع أطهار وقد طهر يطهر وطهر طهراً وطهارة. (١)

والطهارة ضربان: جسمانية ونفسانية وحمل عليهما عامة الآيات. (٢)
فمن الأول: قوله تعالى: (فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن). (٣) وقوله تعالى: (وإن كنتم جنباً فاطهروا). (٤) وغير ذلك من الآيات.

ومن الآخر: قوله تعالى: (وإذا قالت الملائكة يلمريم إن الله اصطفك وطهرك واصطفك على نساء العالمين) (٥) وقوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (٦) وغير ذلك من الآيات.
وطهارة القلب لاريب أنها من الضرب الثاني قال تعالى: (يأيتها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير نظرين إنه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فسئلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن

(١) اللسان عنده ماده (طهر) ٥٠٤/٤

(٢) بصائر ذوى التمييز ٥٢٨/٣

(٣) جزء من الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٥) الآية ٤٢ من سورة آل عمران.

(٦) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً
إن ذلكم كان عند الله عظيماً^(١)

وهذه الآية هي آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية عظيمة.
روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: " لما تزوج
رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم
جلسوا يتحدثون وإذا هو يتأهب للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام فلما
قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا
القوم جلوس ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي صلى الله
عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فالقى الحجاب
بينى وبينه فأنزل الله: (يأيتها الذين ءامنوا لاتدخلوا بيوت النبي) الآية^(٢).
وفي هذه الآية يأمر الله عباده بالتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في دخول بيوته ووضع لدخولهم شرطين الإذن منه صلى الله عليه وسلم
بالدخول وأن يكون الجلوس بمقدار الحاجة لأن الانتظار الزائد كان يؤذى
النبي صلى الله عليه وسلم ويشق عليه حسبهم إياه عن شؤون بيته وأشغاله
فيه فيستحي أن يقول لهم اخرجوا كما هي عادة الناس وخصوصاً أهل
الكرم منهم يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم ولكن الله لا يستحي
من الحق فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً فإن الحزم
اتباعه وأن يجزم بأن ماخالفه ليس من الأدب في شيء، ثم بين تعالى

(١) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٧٨/٣-٢٧٩ كتاب التفسير (٦٥)، تفسير سورة

الأحزاب (٣٣) باب لاتدخلوا بيوت النبي.. الآية (٨) برقم ٤٧٩١

الأدب في مخاطبة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عند الحاجة إلى ذلك بأن يسألن من وراء حجاب أي يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله^(١). ثم ذكر الحكمة في ذلك بقوله: (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) لأنه أبعد عن الريبة وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشرف فإنه أسلم وأطهر لقلبه ثم ذكر الله تعالى القاعدة العامة (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أي أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به. (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) وهذا من جملة ما يؤذيه فإنه صلى الله عليه وسلم له مقام التعظيم والرفعة والإكرام وتزوج أزواجه من بعده خل بهذا المقام وأيضاً فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة والزوجية باقية بعد موته^(٢) فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته (إن ذلكم كان عند الله عظيماً) وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر واجتنبت ما نهى الله عنه ولله الحمد والشكر. (٣)

وقال تعالى: (يأيها المدثر قم فأأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر)^(٤) روى البخارى رحمه الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي أنه قال: "فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا هو الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين

(١) وذلك في قوله تعالى: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً) (الأحزاب: ٣٢).

(٢) وهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وأما غيره فقد يكون من البر به التزوج بامراته بعد موته حفاظاً عليها وعلى أبنائه.

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن ١١٩/٦ - ١٢٠.

(٤) الآيات ١-٥ من سورة المدثر.

السماء والأرض فجئشت منه رعباً. فرجعت فقلت زملوني زملوني فذروني
فأنزل الله تعالى: (يأيها المدثر - إلى - والرجز فاهجر) قبل أن تفرض
الصلاة وهي الأوثان^(١) وقد ذكر العلماء في قوله تعالى: (وثيابك فطهر)
أقوالاً كثيرة ولكنها في رأيي ترجع إلى قولين:

الأول: أن المراد بالثياب القلب.

الثاني: أن المراد بالثياب الملابس في الظاهر.

وبالقول الأول قال ابن عباس رضى الله عنهما^(٢) وهو قول إبراهيم
وقتاده والضحاك والشعبي^(٣) والزهرى^(٤)(٥) وقال سعيد بن جبير^(٦): وقلبك

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣/٣١٧، كتاب التفسير (٦٥) سورة المدثر (٧٤)
باب (وثيابك فطهر) (٤)، رقم الحديث (٤٩٢٥).

(٢) فقد جاءه رجل فقال: أرأيت قول الله: (وثيابك فطهر) قال: لا تلبسها على معصية
ولا على غدره ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

إني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع

أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٩/١٤٥

(٣) هو عامر بن شراحيل الشعبي الحميري أبو عمرو الكوفي علامة الكوفة وكان إماماً
حافظاً أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين أثني عليه
الحفاظ كثيراً، توفي سنة ١٠٩هـ. انظر البداية والنهاية ٩/٢٣٩، وتهذيب التهذيب
٦٥/٥

(٤) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن زهرة الإمام العلم الحافظ أبو بكر
القرشي الزهرى المدني نزيل الشام كان عابداً عالماً بالسنة والحديث، توفي سنة
أربع أو ثلاث وعشرين ومائة رحمه الله تعالى. انظر صفة الصفوة ٢/١٣٦، وسير
أعلام النبلاء ٥/٣٢٦

(٥) انظر جامع البيان ٢٩/١٤٥-١٤٦، وتفسير البغوى ٤/٤١٣، وفتح البارى ٨/٦٧٩

(٦) هو سعيد بن جبير بن هشام الإمام الحافظ المقرئ المفسر أبو محمد ويقال أبو
عبد الله الأسدى الوالى مولا هم الكوفي أحد الاعلام، روى عن ابن عباس وعن
غيره من الصحابة وحدث عنه خلق قتله الحجاج عام ٩٥هـ رحمه الله تعالى

ورضى الله عنه. انظر السير ٤/٣٢١، شذرات الذهب ١/١٠٨

ونيتك فطهر. (١)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق. (٢)

ثم اختار رحمه الله تعالى العموم فقال: الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم وإن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك فإن خبت الملابس يكسب القلب هيئة خبيثة كما أن خبت المطعم يكسبه ذلك ولذلك حرم لبس جلود النمر والسباع بنهى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها. (٣) لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات فإن الملابس الظاهرة تسرى إلى الباطن ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور (٤) لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء. والمقصود أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها. فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها فالمقصود

(١) ذكره البغوى في تفسيره ٤١٣/٤

(٢) إغاثة اللهفان ٥٢/١

(٣) منها حديث معاوية لما قال له المقدام: أنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها قال: نعم .. الحديث أخرجه أبو داود ٦٨/٤ كتاب اللباس باب في جلود النمر والسباع برقم ٤١٣١ وصححه الألبانى في صحيح أبي داود ٧٧٨/٢ برقم (٣٤٧٩).

(٤) كما في حديث علي قال: نهانى رسول الله عن خاتم الذهب وعن لبس القسى والمشيرة الحمراء أخرجه أبو داود ٤٩/٤ كتاب اللباس باب من كره لبس الحرير

برقم ٤٠٥١، وصححه الألبانى في صحيح أبي داود ٧٦٤/٢-٧٦٥ برقم (٣٤١٧).

لنفسه أولى أن يكون مأموراً به.

وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم إلا بذلك فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.^(١)
وقال ابن حجر^(٢) رحمه الله أيضاً بعد أن ذكر الأقوال ويجوز أن يكون المراد جميع ذلك.^(٣)

والطهارة والزكاة متلازمان ولذلك جمع الله بينهما في قوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)^(٤) فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن وبمنزلة الدغل في الزرع وبمنزلة الحث في الذهب والفضة والنحاس والحديد فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا مانع فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجوانب القاسية والمواد الرديئة فإذا تم له ذلك زكا ونما وقوى واشتد وجلس على سريره ملكه ونفذ حكمه في رعيته فسمعت له وأطاعت^(٥)

(١) إغاثة اللهفان ٥٤/١-٥٥

(٢) هو أمير المؤمنين في الحديث حافظ العصر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن

علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر نسبة إلى آل حجر الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد والمنشأ والدار والوفاة الشافعى له الكثير من التصانيف النافعة منها فتح البارى بشرح صحيح البخارى وتهذيب التهذيب والإصابة في تمييز الصحابة والدرر الكامنة وديوان شعر وغيرها، توفي سنة ٨٥٢ هـ رحمه الله. انظر شذرات الذهب، ٢٧٠/٧، معجم المؤلفين ٢٠/٢

(٣) فتح البارى ٦٧٩/٨

(٤) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٥) كما في حديث النعمان بن بشير "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح

الجسد كله.. الحديث

وقد تقدم تخريجه ص (٢٣) .

ولا سبيل إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) (١) فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

وغض البصر وحفظ الفرج فيه خضوع لما أمر الله به وترك لما نهى عنه ففيهما إذاً طهارة للقلب شأنهما شأن باقي الأوامر والنواهي.

ولكننا نلاحظ التركيز على مسألة حفظ الفرج وغض البصر في هذه الآية وفي آية الحجاب المتقدمة إذ أن من أهم حُكْم فرض الحجاب قطع الطريق على العين من أن تنظر إلى الأجنيات مما قد يؤدي إلى مفسدة أعظم وهي الوقوع في الزنا فضلاً عن أن نظر العين إلى ما حرم عليها أن تنظر إليه يعتبر زنى بحد ذاته (٢) وهذا التركيز على ما يبدو إنما هو لما في غض البصر من فوائد عظيمة.

منها حلاوة الإيمان ولذته التي هي أطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه والنفوس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة والعين رائد القلب وقد يرسل القلب رائده فيتعب ويتعب رائده كما قيل: (٣)

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

(١) الآية ٣٠ من سورة التور.

(٢) كما في حديث ابن عباس: إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر... الحديث أخرجه البخاري ١٣٩/٤ كتاب الاستئذان (٧٩) باب زنا الجوارح دون الفرج (١٢) برقم ٦٢٤٣ وأخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٤٦/٤ كتاب القدر (٤٦) باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا (٥) برقم ٢٦٥٧/٢٠

(٣) ذكر هذه الأبيات ابن القيم في إغاثة اللهفان ٤٧/١

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة فمن أطلق لحظاته دامت حسراته.

ومنها نور القلب وصحة الفراسة وقد قال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم (الله نور السموات والأرض) ^(١) وسر هذا أنجزاء من جنس العمل فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنس ما هو خير منه فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى والله أعلم.

ومنها قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصر كما أعطاه بنوره سلطان الحجة فيجمع له بين السانين كما قال تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ^(٢) فلا عز إلا في طاعة الله. وفي دعاء القنوت: ^(٣) "وإنه لا يذل من واليت" ^(٤).

فالمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته قال تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) ^(٥) ذكر الله تعالى ذلك عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) جزء من الآية ٨ من سورة المنافقون.

(٣) القنوت: الطاعة والسكوت والدعاء والقيام في الصلاة وأقنت دعا على عدوه.

القاموس المحيط مادة (القنوت) ص ٢٠٢

والمراد هنا الدعاء في صلاة الوتر.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٩٩/١ وأبو داود في السنن ١٣٣/٢-١٣٤ كتاب الصلاة

(٢) باب القنوت في الوتر (٣٤٠) رقم (١٤٢٥) وصححه الشيخ الألباني في

صحيح أبي داود ٢٦٧/١ برقم (١٢٦٣).

(٥) جزء من الآية ٢١ من سورة النور.

الزانية فدل على أن التزكى يكون باجتناب ذلك واجتناب ذلك طهارة للقلب. (١)

والقلب الطاهر قلب موحد ولذلك فالقلب المشرك لم يترك لأنه لم يظهر بخلاف قلب المؤمن قال تعالى: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة). (٢)

قال ابن القيم رحمه الله: قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: وهى التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان هو الذى به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ماسوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء. (٣)

والقلب الطاهر قلب صادق مقبل على الحق لا يحرف كلام الله عز وجل من بعد مواضعه ولذلك قال تعالى عمن اتصف بعكس هذه الصفات: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) (٤) قال ذلك بعد قوله تعالى: (سمعون للكذب سمعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه). (٥)

والقلب الطاهر مقبل على ربه لا يشبع من كلامه.

قال ابن القيم رحمه الله فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه ولا يتداوى إلا بأدويته بخلاف القلب الذى لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية

(١) انظر إغاثة اللفهان ٤٦/١ إلى ٤٩

(٢) جزء من الآية ٦ وجزء من الآية ٧ من سورة فصلت.

(٣) إغاثة اللفهان ٤٩/١

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٥) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

التي تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة لأنه كالبدن العليل المريض لا تلامه الأغذية التي تلائم الصحيح. (١)

وقد دل قوله تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) على أن قول الباطل وتخريف الحق سبب في عدم طهارة القلب فإنه تعالى لم يرد (٢) أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق. (٣) وقد دلت الآية كذلك على أن من لم يطهر قلبه لا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه ولهذا حرم الله سبحانه وتعالى الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره فإنها دار الطيبين: (طبتم فادخلوها خالدين) (٤) أى ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، قال تعالى: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلم عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (٥) فالجنة لا يدخلها خبيث ولا من فيه شيء من الخبث فمن تطهر في الدنيا ولقى الله طاهراً من نجاسته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينيه كالكاfer لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة (٦) ثم لا يخرج منها حتى إن أهل الإيمان

(١) انظر إغاثة اللهفان ٥٥/١

(٢) لقد أمر الله عز وجل عباده بما تطهر به قلوبهم من توحيده واتباع أوامره واجتناب نواهيه وأراد ذلك منهم شرعاً، ولكنه لم يقع من فريق منهم ومعنى ذلك أنه لم يرده كوناً إذ أن الإرادة الكونية لا يستلزمها الأمر فقد يأمر الله تعالى بما لم يرده كوناً وقدراً كإيمان من أمره ولم يوفقه له فيكون الإيمان هنا مراداً له ديناً لا كوناً. انظر شفاء العليل ٢٨٠-٢٨١

(٣) انظر إغاثة اللهفان ٥٥/١

(٤) جزء من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٥) الآية ٣٢ من سورة النحل.

(٦) وهذا مقيد بمشيئة الله كما هو مذهب أهل السنة والجماعة في أهل الكبائر ==

إذا جاوزوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيهبون وينقون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة ولم توجب لهم دخول النار حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة. ^(١) والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى الجنة موقوفاً على الطيب والطهارة فلا يدخلها إلا طيب طاهر فهما طهارتان: طهارة البدن وطهارة القلب، ولهذا شرع للمتوضيء أن يقول عقب وضوئه: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين" ^(٢) فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه

(=) ممن مات ولم يشرك بالله عز وجل قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (النساء: ١١٦).

(١) كما جاء مصرحاً بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا" أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٨/٤ كتاب الرقاق (٨١) باب القصاص يوم القيامة (٤٨) رقم الحديث (٦٥٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٩/١-٢١٠ كتاب الطهارة (٢) باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٦) رقم الحديث (٢٣٤/١٧) دون قوله "اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين".

وروى الحديث بهذه الزيارة الترمذي ٧٧/١-٧٨ كتاب الطهارة (١) باب فيما يقال بعد الوضوء (٤١) الحديث (٥٥) ثم قال: وهذا حديث في اسناده اضطراب، ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء. وقد صحح حديث الترمذي بزيادته الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٨/١ برقم (٤٨).

ومناجاته. (١) والمقصود أن التوبة والعمل الصالح هما اللذان يحصل بها تطهير القلب قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) (٢) وهذا دليل على أن العمل الصالح يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فقد قاله تعالى بعد قوله: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) (٣) فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية (٤) ولعل فيما تقدم الكفاية والله أعلم.

(١) إغاثة اللفهان ٥٦/١

(٢) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) جزء من الآية ١٠٢ من سورة التوبة.

(٤) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٣٥/١٠

المبحث السابع والعشرون

السلامة

السلام والسلامة البراءة وتسلم منه: تبرأ وقيل: السلامة العافية. (١)
قال تعالى: (ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله
بقلب سليم). (٢)

وهذه الآيات قالها الله عز وجل إخباراً عن قول إبراهيم عليه
الصلاة والسلام طالباً من ربه تبارك وتعالى أن لا يخزيه يوم البعث العظيم،
ذلك اليوم الذي لا ينفع الإنسان فيه ماله ولا بنوه ولا ينفع فيه إلا سلامة
القلب.

روى عبدالرزاق (٣) بسنده عن قتادة في قوله تعالى: (بقلب سليم) قال:
"سليم من الشرك". (٤)

وروى ابن جرير بسنده إلى محمد (٥) قيل له ما القلب السليم؟ قال: أن
يعلم أن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور. (٦)

وروى عن مجاهد (إلا من أتى الله بقلب سليم) قال:

-
- (١) اللسان عند مادة (سلم) ٢٨٩/١٢
(٢) الآيات ٨٧-٨٩ من سورة الشعراء.
(٣) هو عبدالرزاق بن همام بن نافع الحافظ الكبير عالم اليمن أبوبكر الحميري
الصنعاني الثقة الشيعي له كتاب في التفسير، توفي سنة ٢١١هـ. انظر طبقات ابن
سعد ٥٤٨/٥، السير ٥٦٣/٩
(٤) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٧٤/٢
(٥) هو محمد بن سيرين كما في ابن كثير ٢٠/٧ وهو الإمام شيخ الإسلام أبوبكر
الأنصاري البصري مولى أنس بن مالك رضى الله عنه، ولد لستين بقيتا من
خلافة عمر رضى الله عنه سمع بعض الصحابة، كان عالماً ورعاً حليماً عابداً،
توفي سنة ١١٠هـ رحمه الله. انظر السير ٦٠٦/٤، شذرات الذهب ١٣٨/١
(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨٧/١٩

لاشك فيه. (١)

وروى كذلك عن الضحاك في قول الله: (إلا من أتى الله بقلب سليم) قال هو الخالص. (٢)

ومما سبق يتبين لنا أن سلامة القلب هي إخلاصه كله لله وتجرده من كل شائبة ومن كل مرض ومن كل غرض وصفاءه من الشهوات والشبهات والانحرافات وخلوه من التعلق بغير الله. (٣)

وقال تعالى في آية أخرى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (إذ جاء ربه بقلب سليم). (٤) وهذه الآية أيضاً تفسرها الآثار السابقة في الآية الأولى والتي تبين أن المعنى هو السلامة من الشرك ومن كل شائبة. ومعنى مجيئه إلى ربه بقلبه أى أخلص قلبه لربه وجعله خالياً من كل شؤون الحياة الدنيا فلا غش لديه ولا حقد ولا شىء مما يشينه من العقائد الزائفة والصفات القبيحة. (٥) فهو إذاً أقبل على الله بقلب خالص صحيح.

فهذه الآية فيها صورة الاستسلام الخالص من خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام تتمثل في مجيئه لربه وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه. (٦)

وبهذا القلب السليم استذكر عليه الصلاة والسلام ما عليه قومه واستبشعه، استذكار الحس السليم لكل ماتنبو (٧) عنه الفطرة الصادقة من

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٨٧/١٩

(٢) المرجع السابق نفسه

(٣) انظر في ظلال القرآن ٢٦٠٤/٥

(٤) الآية ٨٤ من سورة الصافات.

(٥) انظر تفسير المراغى ٦٩/٢٣، وتفسير الرازى ١٤٦/٢٦

(٦) انظر في ظلال القرآن ٢٩٩٢/٥

(٧) النبوة: هي ما ارتفع من الأرض. انظر اللسان ٣٠٢/١٥ مادة (نبا).

تصور ومن سلوك. (١)

وبهذا القلب السليم سلم من غش الخلق وحسدهم وغير ذلك من مساوىء الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله وبدأ بأبيه وقومه فقال: (إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون). (٢)(٣)

(١) انظر في ظلال القرآن ٢٩٩٢/٥

(٢) الآية ٧٠ من سورة الشعراء.

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن ١٨٩/٦ - ١٩٠

المبحث الثامن والعشرون

الاطمئنان

الطمأنينة والاطمئنان السكون بعد الانزعاج^(١)، واطمئنان القلب أى سكونه واستقراره وهدوؤه.

وهذا الهدوء والسكينة أمر يطلبه الإنسان ويحرص عليه ولكن لن يحصل عليه إلا من سار في الطريق الصحيح إذ أن اطمئنان القلب لا يكون إلا من رب العباد فهو الذى يملك إعطاء ذلك.

وأصل السكينة في القلب ويظهر أثرها على الجوارح وهى على أقسام أعلاها وأخص مراتبها سكينة الأنبياء ويليها ما يكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم وهى سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن وأحوج ما كانوا إليها (هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً)^(٢) وثمره هذه السكينة الطمأنينة للخير تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً فلا تدع شبهة تعارض الخير ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات سوء بالقلب إلا وهى مجتازة من مرور الوسوس الشيطانية التى يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردّها وعدم السكون إليها فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله. ومن السكينة السكينة عند القيام بوظائف العبودية وهى التى تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح

(١) المفردات عند مادة (طمن) ص ٣٠٧

(٢) الآية ٤ من سورة الفتح.

نتيجة خشوع القلب. (١)

ولذلك حرص الصالحون على سؤال الله عز وجل السكينة فهاهو خليل الله ونبيه إبراهيم يقول: (رب أرني كيف تخيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي). (٢) فسؤال إبراهيم ربّه إراءته كيف يخّي الموتى لم يكن لعارض من الشيطان عرض في قلبه كما يرى ذلك ابن جرير رحمه الله. (٣) وإنما ليسكن إلى المعاينة والمشاهدة فإنه أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخير ليس كالمعاينة. (٤) فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان ينشد اطمئنن الأنس إلى رؤية يد الله تعمل واطمئنن التذوق للسر المحجب وهو يجلى ويتكشف ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله ولكنه سأل الكشف والبيان والتعريف بهذا الشوق وإعلانه والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم مع عبده الحليم المنيب. (٥)

وأما حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: (رب أرني كيف تخيي الموتى. قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول مالبت يوسف لأجبت الداعى" (٦) فأحسن ما قيل فيه ما ذكره ابن قتيبة (٧)

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب أعلام الموقعين ١٥٤/٤ - ١٥٥

(٢) جزء من الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

(٣) كما في تفسيره ٥٠/٣

(٤) وبهذا قال عدد من المفسرين كالغوى وابن كثير والقرطبي وابن عطية وغيرهم.

(٥) انظر في ظلال القرآن ٣٠٢/١

(٦) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٦٧/٢ كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب قول الله

عز وجل: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه) الآية (رقم الحديث ٣٣٧٤)

(٧) هو العلامة الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب صاحب التصانيف

والخطابي^(١) بأنه ليس في قوله "نحن أحق بالشك من إبراهيم" اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقوله : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتي فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس".^(٢) أو قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من جميع الأنبياء.^(٣) فمعنى ليطمئن قلبي إذا أي ييقن النظر فاليقين جنسان أحدهما يقين السمع والآخر يقين النظر. ويقين النظر أعلى اليقينين ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المخبر كالمعاين".^{(٤)(٥)} وقد ورد عن عدد من السلف أن المراد ليزداد يقيني كما أخرج ذلك الطبري عن سعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم.^(٦)

وأخرج الطبري عن ابن عباس بأن معنى قوله (ليطمئن قلبي) قال: أعلم أنك تخيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك.^(٧) ولعل المراد به علم عين اليقين، وإلا فلعلم اليقين مستقر في قلب إبراهيم. وعلى هذا يحمل ماورد بأن المراد: ليطمئن قلبي بالخلّة. كما أخرج

(=) التي منها : غريب القرآن ، مشكل القرآن وغيرها مات سنة ست وسبعين ومثلين .

انظر السير ١٣ / ٩٦ ، شذرات الذهب ١٦٩ / ٥ - ١٧٠

(١) هو الإمام العلامة الحافظ اللغوي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي صاحب التصانيف، ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة. وأخذ الفقه على المذهب الشافعي وله شرح الأسماء الحسنى، وكتاب الغنية عن الكلام وأهله والعزله وأعلام الحديث وغيرها، توفي سنة ٣٨٨ هـ. انظر السير ١٧ / ٢٣،

شذرات الذهب ١٢٧ / ٣ - ١٢٨

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٩٧-٩٨ و أعلام الحديث ٣ / ١٥٤٥ - ١٥٤٦

(٣) انظر فتح الباري عند شرح هذا الحديث ٤١٢ / ٦

(٤) تقدم تخريجه ص ٧٤

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٩٧-٩٨

(٦) أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره ٥٠ / ٣ - ٥١

(٧) المرجع السابق نفسه.

ذلك الطبرى عن سعيد بن جبير والسدى (١) والله أعلم.

وهذا اليقين - أى يقين النظر - هو الذى أراده الحواريون عندما طلبوا من نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو الله أن يتزل عليهم مائدة من السماء قال تعالى: (إذ قال الحواريون يعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن يتزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) (٢) فهم أرادوا أن ينتقلوا من علم اليقين إلى علم عين اليقين. (٣) وهناك من يقول إن سؤال الحواريين لذلك كان من مرض خالط قلوبهم وشك في دينهم وتصديق رسولهم ولذلك سألوها ما سألوها من ذلك اختصاراً. (٤) والله أعلم.

وهذا اليقين والسكون هو الذى عنى أيضاً بقوله تعالى: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) (٥) قال ابن جرير رحمه الله: يعنى تعالى ذكره وما جعل الله وعده إياكم ما وعدكم من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم إلا بشرى لكم يعنى بشرى يبشركم بها ولتطمئن قلوبكم به، يقول: وكى تطمئن بوعده الذى وعدكم من ذلك قلوبكم فتسكن إليه ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم وقلة عددكم". (٦)

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤٩/٣

(٢) الآيات ١١٢، ١١٣ من سورة المائدة.

(٣) انظر البغوى ٧٧/٢، والرازى ١٣٧/١٢، والتحرير والتنوير ١٠٥/٦

(٤) انظر جامع البيان ١٣٠/٧

(٥) جزء من الآية ١٢٦ من سورة آل عمران.

(٦) جامع البيان ٨٤/٤

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).^(١)

وهذه الآية - آية الأنفال - كانت في غزوة بدر أمد الله عز وجل المؤمنين بالملائكة فباشروا معهم القتال.

كما روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: "لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مدي يديه فجعل يهتف بربه اللهم أنجز لى ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه ماداً يده مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبوبكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يابى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة".^(٢)

وروى أيضاً عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت

(١) الآيتان ٩-١٠ من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٣٨٣/٣-١٣٨٤ كتاب الجهاد (٣٢) باب الإمداد

بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٨) رقم الحديث (١٧٦٣/٥٨).

الفارس يقول: أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه مخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم^(١) أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صدقت ذلك مدد من السماء الثالثة".^(٢)

وروى البخارى عن رفاعه بن رافع الزرقى^(٣) رضى الله عنه قال: "جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ماتعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين -أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة".^(٤)

وروى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: "هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب".^(٥)

وأما قوله تعالى: (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم

(١) الخطم: السمة خطمت البعير إذا كويته خطأ من الأنف إلى أحد خديه، وتسمى

تلك السمة الخطام. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (خطم) ٥٠/٢

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٣٨٤/٣-١٣٨٥ كتاب الجهاد (٣٢) باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٨) رقم الحديث (١٧٦٣/٥٨).

(٣) هو رفاعه بن رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق الأنصارى الخزرجى الزرقى أبو معاذ وأمه أم مالك بنت أبي بن سلول شهد هو وأبوه العقبة وبقيّة المشاهد وهو من أهل بدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث، مات سنة ٤١هـ، وقيل سنة ٤٢هـ. انظر الإصابة ٥٠٣/١ برقم (٢٦٦٤) الاستيعاب ٤٨٩/١

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٩٠/٣ كتاب المغازى (٦٤) باب شهود الملائكة بدرأ (١١) رقم الحديث (٣٩٩٢).

(٥) المرجع السابق نفسه ورقم الحديث (٣٩٩٥).

بثلثة آلاف من المليكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من المليكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين^(١).

فقد اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين:

الأول: أن قوله تعالى: (إذ تقول) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ببدر) وروى هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي^(٢) واختاره ابن جرير^(٣) والبخارى^(٤) وابن كثير^(٥) رحم الله الجميع.

والثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله تعالى: (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقعد للقتال)^(٦) وذلك يوم أحد، وروى ذلك عن

(١) الآيات ١٢٤-١٢٧ من سورة آل عمران.

(٢) أخرج أثري الشعبي والحسن البصري ابن جرير في تفسيره ٧٦/٤ وقد قال ابن حجر عن أثر الشعبي: رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح إلى الشعبي كما في الفتح ٢٥٨/٧ والأثر في تفسير ابن أبي حاتم ٥٢٠/٢ برقم (١٣٥٠) وقد صحح محقق هذا الجزء فضيلة الدكتور حكمت بشير ياسين إسناده أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم أثر الحسن أيضاً ٥١٩/٢ برقم (١٣٤٧).

(٣) انظر جامع البيان ٧٩/٤-٨٠.

(٤) ويدل على اختيار البخارى لذلك أنه ذكر هذه الآيات تحت باب قصة غزوة بدر. انظر صحيح البخارى ٨٢/٣ كتاب المغازى (٦٤) باب قصة غزوة بدر (٣). وقد قال ابن حجر بعد أن ذكر صنيع البخارى وهو المعتمد. انظر الفتح (٢٨٦/٧).

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم ٩٣/٢-٩٤ وقد ذكر ابن كثير رحمه الله أن التنصيص على الألف في سورة الأنفال لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله تعالى: (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف آخر مثلهم.

(٦) جزء من الآية ١٢١ من سورة آل عمران.

عكرمة (١) والضحاك (٢) لكنهما قالاً لم يحصل الإمداد لأنه كان وعداً مشروطاً بالصبر والتقوى فلما لم يتحقق الشرط لم يحصل الإمداد.

قال ابن جرير: ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ولا على أنهم لم يمدوا بهم وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو مارواه الذين أثبتوا أنه أمدهم وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ولا خير عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم به الحجة، ولا خير به كذلك. إلى أن قال: وأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أيين منها في أنهم أمدوا وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينال منهم مايل منهم (٣).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) رحمه الله أن هذه الآيات في قصة أحد لقوله تعالى بعد ذلك: (ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا

(١) هو العلامة الحافظ المفسر أبو عبدالله القرشي مولاهم المدنى البربرى الأصل حدث عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة وحدث عنه خلق كثير وأثنى عليه كبار العلماء كالإمام أحمد ويحيى بن معين العجلي والبخارى والنسائى وغيرهم، مات سنة ١٠٤هـ بالمدينة. انظر السير ١٢/٥، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧

(٢) كما روى ذلك ابن جرير في تفسيره ٧٩/٤

(٣) جامع البيان ٧٩/٤-٨٠

(٤) هو الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن أحمد بن عبدالحليم ابن الشيخ الإمام أبي البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن تيمية الحرايى ثم الدمشقى من أسرة ذات علم وفضل برع في شتى العلوم وله مصنفات كثيرة نافعة منها: منهاج السنة، درء تعارض العقل والنقل، الاستقامة وغيرها، توفي سنة ٧٢٨ بقلعة دمشق التى كان محبوساً

فيها. انظر البداية والنهاية ١٤١/٤، شذرات الذهب ٨٠/٦

خائبين) (١) ولأنه وعد مقيد.

ثم قال رحمه الله وقوله فيه: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) يقتضى خصوص البشرى بهم.
وأما قصة بدر فإن البشرى بها عامة. (٢)

والذى يظهر أنه على كلا القولين فإن الإمداد بالثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف لم يتم لعدم وجود دليل على أنهم أمدوا بذلك والآية ليس فيها دلالة على ذلك، والثابت أنهم أمدوا يوم بدر بألف والله أعلم.
والمقصود أن ذلك الإمداد الذى أمد به المسلمون يوم بدر والذى وعدوا به يوم بدر أو يوم أحد إنما كان المقصود به تبشير المؤمنين بالنصر وعناية الله بهم وتطمين قلوبهم وإلا فالنصر من عند الله عز وجل وحده فهو قادر على نصرهم ولو لم يرسل معهم أى ملك ومن هنا تتبين لنا أهمية اطمئنان القلب فهو عامل عظيم من عوامل النصر على الأعداء لا يكون إلا للمؤمن المتقى الصابر ولذلك فوجوده دليل وعلامة على رسوخ إيمان صاحبه ولذلك فإن من اطمأن قلبه بالإيمان لا بأس عليه فيما أكره عليه من النطق بكلمة الكفر أو غير ذلك مما هو ممنوع شرعاً منه قال تعالى: (من كفر بالله من بعد إيمانه إلامن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) (٣) فأخبر تعالى أن من كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليهم لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه وأن لهم عذاباً في الدار الآخرة

(١) الآية ١٢٧ من سورة آل عمران.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٣٧/١٥ - ٣٨.

(٣) الآية ١٠٦ من سورة النحل.

ثم استثنى من كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. (١)

روى ابن جرير عن ابن عباس قوله: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيماء" فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم فأما من أكره فتكلم به لسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بذلك من عدوه فلا حرج عليه لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم". (٢)

وقد مدح الله عز وجل المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم بذكره فقال تعالى: (الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (٣) ومعنى تطمئن قلوبهم بذكر الله أى تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله. (٤)

وقد روى ابن جرير هذا المعنى عن قتادة قوله: (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به. (٥)

وهناك من قال إن قوله تعالى: (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) عنى به قلوب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كما روى ذلك الطبري عن مجاهد وسفيان بن عيينة. (٦)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٥٢٤/٤-٥٢٥

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٨٢/١٤

(٣) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٤) انظر جامع البيان ١٤٥/١٣

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤٥/١٣

(٦) انظر جامع البيان ١٤٥/١٣

وقد عزا البغوى^(١) إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: هذا في الحلف، يقول: إذا حلف المسلم بالله على شيء تسكن قلوب المؤمنين إليه.^(٢) وقد ورد مثل هذا عن سفيان بن سعيد الثورى.^(٣) ويحسن بنا أن نختم هذا المبحث بذكر أسباب السكينة كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله قال: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذى قيامها به.^(٤)

-
- (١) هو الشيخ الإمام العلامة القدوة الحافظ محيى السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر صاحب التصانيف كـ "شرح السنة" و "معالم التنزيل" و "المصايح" وغيرها، توفي سنة ٥١٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٣٩/١٩، شذرات الذهب ٤٨/٤-٤٩.
- (٢) معالم التنزيل ١٧/٣
- (٣) انظر تفسير سفيان الثورى ص ١٥٣
- (٤) أعلام الموقعين ١٥٦/٤
- ولابن القيم كلام نفيس في الطمأنينة ينبغى الرجوع إليه وذلك في كتابه الروح من ص ٢٩٥ إلى ٣٠١

المبحث التاسع والعشرون

اللين

اللين: ضد الخشونة ويستخدم في المعاني والأجسام^(١) قال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).^(٢)

وهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لما يفهمون من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد فتقشعر جلودهم من الخشية والخوف (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه: أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة القرآن. وسماع أولئك نغمات الأبيات وأصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ولم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغيين إليها فاهمين متبصرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لاعن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلتزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالقدح المعلى^(٣) في الدنيا

(١) المفردات ص ٤٥٧ عند مادة (لين) وكذلك لسان العرب ٣٩٤/١٣-٣٩٥

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة الزمر.

(٣) المعلى بفتح اللام القدح السابع في الميسر وهو أفضلها إذا فاز حاز ==

والآخرة. (١)

قال قتادة رحمه الله عند هذه الآية: "هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان. (٢)

وفي سبب القشعريرة واللين ثلاثة أقوال: (٣)

أحدها: أنها تقشعر من وعيده وتلين من وعده.

الثاني: أنها تقشعر من الخوف وتلين من الرجاء.

الثالث: تقشعر الجلود لإعظامه وتلين عند تلاوته.

وعدى الفعل تلين بإلى لتضمنه معنى السكون والاطمئنان. (٤)

(=) سبعة أنصباء من الجزور، وأريد بهذا التعبير إظهار عظم فوزهم في الدنيا

والآخرة. انظر اللسان عند مادة (علا) ٩١/١٥

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٨٥/٧

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١٧٢/٢

(٣) انظر التكت والعيون ٤٦٧/٣

(٤) تفسير البيضاوى ٣٢٤/٢

المبحث الثلاثون

الصبر

الصبر الحبس صبره عنه يصبره: حبسه. (١)

وأما حقيقته فهو خلق فاضل ووصف من أوصاف القلوب السليمة يمنع من فعل مالا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها. (٢) وهو من أعظم أوصاف القلوب السليمة لأن الإيمان كما قيل نصفان نصف صبر ونصف شكر. (٣)

لأن المؤمن إما أن يكون في سراء فيجب عليه أن يشكر أو في ضراء فيجب عليه أن يصبر، وحتى الشكر فإنه يحتاج إلى الصبر في استمراره وعدم انقطاعه من العبد خالقه ومولاه.

ولذلك فالله عز وجل يعطى على الصبر مالا يعطى على غيره قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ). (٤) وهو ثلاثة أنواع: (٥)

أحدها: الصبر عن المحرمات.

الثاني: الصبر على أداء الواجبات.

الثالث: على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها. والأول والثاني أكمل وأعلى من الثالث لأن الثالث يشترك فيه

الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه سابقاه. ولذلك كان صبر يوسف الصديق عن

(١) انظر: اللسان عند مادة (صبر) ٤/٤٣٨، القاموس المحيط عند مادة (صبر) ص ٥٤١

(٢) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٢٩

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٤/٦٣ وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٢٣

(٤) جزء من الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٥٠

مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ماناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ماناله من إخوته لما ألقوه في الحب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبيد".^(١)

وقد جاء ذكر الصبر في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، فيها الشاء على الصابرين وذكر مالهم من درجات وخيرات.

فأخبر تعالى أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتح المبين فقال تعالى: (واصبروا إن الله مع الصابرين)^(٢) فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة.

وجعل سبحانه الأمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون).^(٣)

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين فقال تعالى: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين).^(٤)

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى: (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط).^(٥)

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه أوصلاه إلى محل العز والتمكين فقال: (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)^(٦)

(١) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٥٣

(٢) جزء من الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٢٤ من سورة السجدة.

(٤) جزء من الآية ١٢٦ من سورة النحل.

(٥) جزء من الآية ١٢٠ من سورة آل عمران.

(٦) جزء من الآية ٩٠ من سورة يوسف.

وأخبر عن محبته لأهل الصبر فقال تعالى: (والله يحب الصّبرين) (١)
 وبشرهم بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى:
 (وبشر الصّبرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه
 راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون). (٢)
 وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين
 فقال تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخشعين). (٣)
 وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال
 تعالى: (إني جزيتهم اليوم بما صبر أنهم هم الفائزون). (٤)

وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا
 أولوا الصبر المؤمنون فقال تعالى: (وقال الذين أوتوا العلم ويلكنم ثواب
 الله خير لمن ءامن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصّابرون). (٥)
 وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسىء كأنه ولي
 حميم فقال: "ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي
 بينك وبينه عدوة كأنه ولي حميم" (٦) وأن هذه الخصلة (وما يلقاها إلا الذين
 صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم). (٧)

وأخبر سبحانه خيراً مؤكداً بالقسم (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين

-
- (١) جزء من الآية ١٤٦ من سورة آل عمران.
 - (٢) جزء من الآية ١٥٥ والآيتان ١٥٦-١٥٧ من سورة البقرة.
 - (٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة.
 - (٤) الآية ١١١ من سورة المؤمنون.
 - (٥) الآية ٨٠ من سورة القصص.
 - (٦) الآية ٣٤ من سورة فصلت.
 - (٧) الآية ٣٥ من سورة فصلت.

ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).^(١)
وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر فقال تعالى: (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير).^(٢)
وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون فقال: (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)^(٣) وقال: (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).^{(٤)(٥)}
والآيات في الصبر أكثر من أن تحصى في هذا المقام والله المستعان.

(١) الآيتان ٢ و ٣ من سورة العصر.

(٢) الآية ١١ من سورة هود.

(٣) جزء من الآية ٤٨ من سورة الطور.

(٤) الآيتان ١٢٧-١٢٨ من سورة النحل.

(٥) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين من ١٨ إلى ٢١

المبحث الحادى والثلاثون

الربط

ربط الشىء شده، والرباط الفؤاد كأن الجسم ربط به ورجل رابط الجأش وربط الجأش أى شديد القلب كأنه يربط نفسه عن الفرار يكفها بجرأته وشجاعته وربط جأشه رباطةً: اشتد قلبه ووثق وحزم فلم يفر عند الروع وربط الله على قلبه بالصبر أى ألهمه الصبر وشده وقواه. (١)
قال تعالى: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ويترل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام). (٢)

وعدى الربط هنا يعلى للإيذان بأن قوة قلوبهم بلغت في الكمال إلى أن صارت مستولية على القلوب حتى صارت كأنها علت عليها وارتفعت فوقها أى فتفيد التمكن في القوة. (٣)

وهذه الآية في معرض الامتنان من الله عز وجل على عباده المؤمنين بما أنعم به عليهم في غزوة بدر مما كان له أكبر الأثر في الربط على قلوبهم وتثبيت أقدامهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل النبي صلى الله عليه وسلم يعنى حين سار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة (٤)، فأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس بينهم

(١) اللسان عند مادة (ربط) ٣٠٣/٧

(٢) الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٣) انظر الفتوحات الإلهية ٢٣١/٢ وانظر كذلك تفسير الخازن ١٣/٣

(٤) الدّعص بالكسر قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه. انظر القاموس المحيط

ترعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الزمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه بألف من الملائكة فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنبه وميكائيل في خمسمائة مجنبه. (١)

قال الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية (وليربط على قلوبكم) أى: بالصبر على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر. (٢)

والضمير في (به) يجوز أن يكون للربط لأن القلب إذا تمكّن فيه الصبر والجرأة ثبتت القدم من مواطن القتال. (٣)

ومن آيات الربط على القلب قوله تعالى: (إنهم فتية ءامنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا). (٤)

وهذه الآية في شأن أصحاب الكهف يبين الله عز وجل فيها أنه ربط على قلوبهم أى شدها بالصبر والتثبيت وقواها بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ماكانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف. (٥)

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٩٥/٩

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٦٥/٣

(٣) الكشف ١٤٧/٢

(٤) جزء من الآية ١٣ والآية ١٤ من سورة الكهف.

(٥) تفسير الخازن ٢٠٣/٤ - ٢٠٤

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المؤمن أحوج شيء إلى أن يربط الله على قلبه ولولا ذلك الربط افستنوا. (١)

وقال تعالى: (وأصبح فؤاد أم موسى فرغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين). (٢)

وهذه الآية الكريمة تصور لنا حالة أم موسى عندما فقدت ابنها موسى وتبين كذلك نعمة الله عز وجل عليها بتثبيت قلبها وتوفيقها للسكوت بعد أن التقطه فرعون.

وقد أخرج الطبري عن قتادة قال: قال الله: (لولا أن ربطنا على قلبها) أى بالإيمان (لتكون من المؤمنين). (٣)

وأخرج كذلك عن السدي قال: كادت تقول هو ابني فعصمها الله، فذلك قول الله تعالى: (إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها). (٤)

ومما سبق يتبين لنا أن الربط هو الشدة والتقوية للقلب بالإيمان والصبر واليقين وأن المؤمن أحوج ما يكون إلى ذلك في مواطن الشدائد والمحن وأن المعطى لذلك والمعين عليه هو الله عز وجل وحده.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢٤٣

(٢) الآية ١٠ من سورة القصص.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٨/٢٠

(٤) المرجع نفسه.

المبحث الثاني والثلاثون

الإخلاص^(١)

وهو إرادة الله عز وجل وحده بالعمل والانتقطاع عن كل ماسواه.
وهو من أعظم أعمال القلوب أمر الله به الأولين والآخرين فقال
تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)^(٢) وقال تعالى: (إنا
أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين. ألا لله الدين
الخالص).^(٣) وأعظم الإخلاص ما كان في العبادة كما في الآيات السابقة
وأمثالها مما في كتاب الله عز وجل من الآيات التي فيها تجريد التوحيد
وتحقيقه وقطع ملاحظة ما يعيق عن ذلك في العبادة والاستغاثة والدعاء
والمسألة والتوكل والرجاء والخشية والتقوى والإنابة ونحو ذلك مما هو
من خصائص حق الربوبية التي لاتصلح لملك مقرب ولا نبي مرسل.^(٤)
قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب
بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين): أى فاعبد الله وحده لا شريك له وادع
الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لاتصلح العبادة إلا لله وأنه ليس له شريك ولا
عديل ولا نديد ولهذا قال "ألا لله الدين الخالص" أى لا يقبل من العمل
إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.^(٥)

(١) مما لاشك فيه أن الإخلاص شأنه عظيم ومزله عاليه وقد أخرته في الذكر لكونه
يدخل في جميع الأوصاف القلبية السابقة وقد تقدم الكلام عليه كثيراً ضمن
المباحث السابقة وتم إفراجه بمبحث مستقل زيادة في الاهتمام والله الموفق.

(٢) جزء من الآية (٥) من سورة البينة.

(٣) الآية (٢) وجزء من الآية (٣) من سورة الزمر.

(٤) انظر الاستقامة ٢٥/٢

(٥) تفسير القرآن العظيم ٧٤/٧

ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن الله تبارك وتعالى قال: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه". (١)
ومما ينافي الإخلاص الرياء والحلف بغير الله والتسوية بين الله عز وجل والمخلوق بالمشيئة مثل أن يقول: ماشاء الله وشاء فلان وكذا قوله: مالى إلا الله وأنت وكذلك ما يقدح في التوحيد وفي تفرد الله سبحانه وتعالى بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التى منشؤها اتباع الهوى أنها كفر وشرك وقد قال تعالى: (أرأيت من اتخذ إلهه هوه أفانت تكون عليه وكيلاً). (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الحميلة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش". (٣)
فدل هذا على أن كل من أحب شيئاً وأطاعه وكان من غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشئ معبودة وإلهه وقد سمى الله عز وجل طاعة الشيطان عبادة كما في قوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يبنىء آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) (٤) فمن لم يحقق عبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له. (٥)

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

-
- (١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٨٩/٤، كتاب الزهد (٥٣) باب تحريم الرياء (٥)
رقم الحديث (٢٩٨٥/٤٦).
(٢) الآية (٤٣) من سورة الفرقان.
(٣) تقدم تخريجه ص (٣٤)
(٤) الآية (٦٠) من سورة يس.
(٥) انظر الدين الخالص ١٦٢/١-١٦٣

الفصل الثانى أسباب سلامة القلب

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: إرادة الله تعالى الكونية وفضله ومِنِّته على أصحاب القلوب
السليمة.

المبحث الثانى: سلامة العقيدة.

المبحث الثالث: تحقيقُ الخوف من الله جل وعلا.

المبحث الرابع: شعائرُ الإسلام وعباداته الظاهرة.

تمهيد:

إن سلامة القلب وطهارته من أهم وظائف الرسل التي أرسلوا من أجلها ولذلك فقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم جهداً عظيماً في ذلك لما له من أهمية عظمى في بناء المجتمع المسلم..

والذى شرع الغاية لم ينس الوسيلة ولذلك فقد شرع الله عز وجل وسائل تطهير القلوب وبينها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك فليس لتطهير القلوب غير ما شرع الله وبين نبيه صلى الله عليه وسلم.

(إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً).^(١)

قال سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدى إليه البشر في كل زمان ومكان.

يهدى للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور^(٢) بالعقيدة الواضحة

البسيطة التي لاتعقيد فيها ولا غموض والتي تطلق الروح من أثقال

(١) الآية ٩ من سورة الإسراء.

(٢) لعل مراد سيد قطب رحمه الله أن القرآن يهدى للتي هي أقوم فيما يعتقده الشخص ويدركه ويهدى كذلك إلى تصور الأشياء تصوراً صحيحاً عند تعذر إدراكها.

الوهم والخرافة وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواتميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق. ويهذى للتى هى أقوم فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبين مشاعره وسلوكه وبين عقيدته وعمله فإذا هى كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التى لاتنفصم، ومتطلعة إلى أعلى وهى مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

ويهذى للتى هى أقوم فى علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التى لاتتأثر بالرأى والهدى ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التى أقامها العلم الخير لخلقهم وهو أعلم بمن خلق وأعرف بما يصلح لهم فى كل أرض وفى كل جيل فيهديهم للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان. (١)

قال تعالى: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير). (٢)

ولذلك فلو استقر بنا الإسلام كله عقائد وأحكاماً لوجدنا أنه أقوم طريق لتطهير القلوب وسلوك طريق السلامة بها.

وقبل أن أشرع فى بيان ذلك لابد من تقديم مبحث مهم جداً يدل على أن الهداية والضلال بيد الله عز وجل يهذى من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته ليكون ذلك المبحث هو المبحث الأول فى هذا الفصل ثم تليه المباحث الأخرى التى سوف أحاول فيها إن شاء الله أن أبين باختصار أن الإسلام عقائد وأحكاماً هو السبيل الوحيد لسلامة القلب.

(١) فى ظلال القرآن ٢٢١٥/١٥

(٢) الآية ١٤ من سورة الملك.

المبحث الأول

إرادة الله عز وجل الكونية وفضله ومنته على أصحاب القلوب السليمة
إن الإيمان بقدر الله عز وجل الذى قدره قبل أن يخلق السموات
والأرض ركن من أركان الإيمان لا يتم إلا به كما في حديث جبريل
المشهور^(١)

وقد شاعت إرادة الله تعالى الكونية^(٢) أن ينقسم الناس إلى قسمين:
أهل سعادة، وأهل شقاوة.

عن علي بن أبي طالب^(٣) رضى الله عنه قال: "كنا في جنازة في بقيع
الغرق فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخضرة^(٤)،

(١) حديث جبريل وفيه: وتؤمن بالقدر خيره وشره، أخرجه البخارى في الصحيح
٣٣/١ كتاب الإيمان (٢) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم برقم (٥٠)
ومسلم في الصحيح ٤٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان
(١) الحديث رقم ١٠/٧

(٢) قسم أهل العلم الإرادة إلى قسمين:

١- إرادة كونية وهي المشيئة وهي المرادة هنا.

٢- وإرادة دينية وهي تتعلق بالمحبة والرضا. انظر شفاء العليل ص ٤٨

(٣) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي أول من
أسلم من الصبيان، ولد قبل البعثة بعشر سنين فربي في حجر النبي صلى الله
عليه وسلم ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك، تزوج من فاطمة بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فولد له سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين
رضي الله عنهم جميعاً تولى الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه وقتل شهيداً بيد
الشقي عبدالرحمن بن ملجم سنة ٤٠هـ رضي الله عنه. انظر صفة الصفوة
٣٠٨/١، الإصابة ٥٠١/٢

(٤) المخضرة: هي ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا، أو عكازة، أو مقرعة، أو
قضييب، وقد يتكىء عليه. انظر النهاية ٣٦/٢ مادة (خضر).

فنكس فجعل ينكت^(١) بمخصرته ثم قال: "مامنكم من أحد، مامن نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة" فقال رجل: يارسول الله أفلا تتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فيصير إلى عمل أهل السعادة وأما من كان منا من أهل الشقاوة فيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: "أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى) الآية (٢)(٣)

والذى عليه أهل السنة والجماعة في هذا الباب أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأنه تعالى خلق أفعال العباد، قال تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر)^(٤) وقال تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديراً)^(٥) وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه فيشاؤه كونا ولا يرضاه ديناً.^(٦)

ومن الأدلة على ذلك أيضاً قوله تعالى: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)^(٧) والمقصود بالهداية في هذه الآية هداية التوفيق.^(٨)

(١) ينكت بمخصرته: أي يضرب بطرفها الأرض. انظر النهاية ١١٣/٥ عند مادة (نكت).

(٢) الآية ٥ من سورة الليل.

(٣) أخرجه البخارى في الصحيح ٤١٨/١ كتاب الجنائر (٢٣) باب موعظة المحدث

عند القبر (٨٢) برقم ١٣٦٢ ومسلم في الصحيح ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر (٤٦) باب

كيفية الخلق الآدمي (١) الحديث رقمه ٢٦٤٧/٦

(٤) الآية ٤٩ من سورة القمر.

(٥) جزء من الآية ٢ من سورة الفرقان.

(٦) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفى ص ٢١٧-٢١٨ تحقيق الألبانى ص ٢٧٧

(٧) الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٨) الهداية أربع مراتب: هداية التقدير، وهداية الإرشاد، وهداية التوفيق، والهداية

وقوله تعالى: (ولو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت
تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)^(١) وقوله تعالى: (وما تشاءون إلا أن
يشاء الله رب العلمين)^(٢) وقوله تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن
الله كان عليماً حكيماً)^(٣) وقوله تعالى: (من يشأ الله يضلله ومن يشأ
يجعله على صراط مستقيم)^(٤) وقوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح
صدره للإسليم ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في
السماء).^(٥)

ومن السنة حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه السابق وحديث
ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
-وهو الصادق المصدوق- قال: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً
ثم علقه مثل ذلك ثم يكون مضغّة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر
بأربع: برزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالله إن أحدكم
-أو الرجل- ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو
ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل
ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق
عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها".^(٦)

(١) الآية ٩٩ من سورة يونس.

(٢) الآية ٢٩ من سورة التكويد.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

(٤) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأنعام.

(٥) جزء من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٦) أخرجه البخارى في الصحيح ٢٠٨/٤ كتاب القدر (٨٢) باب (١) برقم ٦٥٩٤،

ومسلم في الصحيح ٢٠٣٦/٤ كتاب القدر (٤٦) باب كيفية الخلق الآدمى (١)

وعن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال: أتدرون ماهذان الكتابان؟ قال قلنا: لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله قال للذى في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لايزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ثم قال للذى في يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لايزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة ليختم له بعمل الجنة وإن عمل أى عمل وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل ثم قال بيده فقبضها ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ثم قال باليمنى فنبذها فقال: فريق في الجنة ونبذ باليسرى فقال: فريق في سعيير. (١)

وعلى هذا فمن أراد الله عز وجل له قدراً سلامة القلب فإن قلبه سوف يسلم بمشيئة الله عز وجل ومن لم يرد الله له ذلك فلن يملك هو لنفسه ذلك ولن يملك له غيره ذلك.

قال تعالى: (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم

(١) رواه أحمد في المسند ١٦٧/٢، والترمذى في سننه وقال: حسن صحيح ٤٤٩/٤-٤٥٠ كتاب القدر (٣٣) باب ما جاء أن الله كتب كتاباً (٨) برقم ٢١٤١

وقال الألبانى: إسناده حسن في السلسلة الصحيحة ٥٢٨/٢ برقم ٨٤٨

الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الرشدون^(١)

قال الشيخ الأمين^(٢) رحمه الله عند هذه الآية: ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وذكر عدداً من الآيات التي سبق ذكرها.^(٣)

وقال تعالى: (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم).^(٤)
قال صاحب الظلال رحمه الله: فالتقوى هبة عظيمة يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار وبعد تخليص وتحيص فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها وقد ثبت أنه يستحقها والذين يفضون أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقي تلك الهبة هبة التقوى وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم.^(٥)

(١) الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٢) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي مفسر ومدرس من علماء شنقيط حفظ القرآن وعمره عشر سنوات وأخذ عن مشائخه النحو والصرف والأصول والبلاغة وبعض التفسير والحديث استقر مدرساً في المدينة النبوية ثم الرياض وأخيراً بالجامعة الإسلامية بالمدينة، توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٣هـ رحمه الله تعالى.

انظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي بقلم الشيخ عطيه محمد سالم المطبوعة في الجزء الأول من أضواء البيان، والأعلام ٤٥/٦

(٣) انظر أضواء البيان ٦٢٨/٧

(٤) الآية ٣ من سورة الحجرات.

(٥) في ظلال القرآن ٣٣٤٠/٢٦

وقال تعالى عن المنافقين واليهود الذين تألبوا على الكذب والاضطراب في معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم: (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم).^(١)

والإرادة في هذه الآية كونية قدرية.

نسأل الله عز وجل أن يهدينا وأن يصلح قلوبنا بفضله ورحمته.

(١) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

المبحث الثانى

سلامة العقيدة

إن سلامة العقيدة أعظم أسباب طهر القلب ونقائه، وكيف لا يكون ذلك والله عز وجل هو الذى خلق الإنسان وخلق قلبه وهو أعلم بما يصلح له وبما يطهره وينقيه فشرع له هذا الدين القيم الذى لا يرضى الله عز وجل غيره^(١) وسلامة القلب إنما هى صلاح وعمار له فكيف يصلح القلب بغير ما خلقه الله له إن ذلك من أعظم المحال.

فالقلب خلقه الله عز وجل ليعلم به الإنسان الحق ويستخدمه فيما خلقه الله له والله عز وجل هو الحق المبين (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلل)^(٢) إذ كان كل ما يقع عليه لمحة ناظر أو يجول في لفتة خاطر فالله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه.^(٣)

فإذا امتلأ القلب بتوحيد الله عز وجل المجرد من كل شائبة فإنه حينئذ يكون قد وضع في موضعه، الأمر الذى سيؤدى بإذن الله عز وجل إلى حصول ثمرة ذلك وهى سلامة القلب في الدنيا وسعاده وفوزه في الآخرة (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).^(٤)

قال ابن القيم رحمه الله عند قوله تعالى: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة)^(٥): قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: ^(٦)

(١) كما قال الله تعالى: (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخسرين) (آل عمران: ٨٥).

(٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة يونس.

(٣) انظر رسالة في القلب لابن تيمية ص ٢١

(٤) الآيات ٨٨، ٨٩ من سورة الشعراء.

(٥) جزء من الآية ٦ وجزء من الآية ٧ من سورة فصلت.

(٦) قال ابن عباس: هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقال عكرمة: ==

هى التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذى به يزكو القلب فإنه يتضمن نفى الهية ماسوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات الهية سبحانه وهو أصل كل زكاة وغناء، فإن التزكى - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكى ينتظم الأمرين جميعاً، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد^(١)

والتوحيد كذلك هو الطريق إلى تقوى الله عز وجل إذ كيف يتقى الله من لا يوحده قال تعالى: (يَتَزَلِ الْمَلَكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ).^(٢)

قال ابن جرير رحمه الله: ومعنى الكلام: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده بأن أنذروا عبادى سطوقى على كفرهم بى وإشراكهم فى اتخاذهم معى الآلهة والأوثان فإنه لا إله إلا أنا، يقول: لا تنبغى الألوهية إلا لى ولا يصلح أن يعبد شىء سواى، فاتقون: يقول: فاحذرونى بأداء فرائضى وإفراد العبادة وإخلاص الربوبية لى، فإن ذلك نجاتكم من الهلكة.^(٣)

وقال سيد قطب رحمه الله: إنها الوحداية فى الألوهية، روح العقيدة، وحياة النفس، ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيى والاتجاه المدمر، فالنفس التى لا توحّد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتخايل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة، وتناوشها الوسوس، فلا تنطلق مجتمعه

(=) الذين لا يقولون لا إله إلا الله. انظر جامع البيان ٩٢/٢٤

(١) إغاثة اللهفان ٤٩/١، وانظر الفتاوى ٩٧/١٠

(٢) الآية ٢ من سورة النحل.

(٣) جامع البيان ٧٧/١٤

لهدف من الأهداف.(١)

فتوحيد الله تعالى هو الذى يدفع إلى الخوف منه تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وتلك هى حقيقة التقوى، والتقوى من أوصاف السلامة للقلب كما قدمنا في الفصل الأول.

وبالتوحيد كذلك يقوى القلب ويثبت قال تعالى: (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً).(٢)

فهؤلاء الفتية أصحاب الكهف يخبرنا الله عز وجل أنه ربط على قلوبهم بسبب تجريدهم التوحيد له تبارك وتعالى.

قال الشيخ الأمين رحمه الله عند هذه الآية: أى ثبتنا قلوبهم وقوينها على الصبر حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق ويصبروا على فراق الأهل والنعم، والفرار بالدين في غار جبل لا أنيس به ولا ماء ولا طعام.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوى قلبه ويثبته على تحمل الشدائد والصبر الجميل.

وقد أشار تعالى إلى وقائع هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه: (إذ يغشاكم النعاس أمانة منه ويتزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا)(٣) الآية. وكقوله في أم موسى:

(١) في ظلال القرآن ٢١٦٠/١٤

(٢) الآية ١٤ من سورة الكهف.

(٣) الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ من سورة الأنفال.

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين). (١)(٢)

ولاشك أن أعظم طاعة لله عز وجل هي التوحيد وإخلاص العبادة. ولذلك فكل ذنب تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء غفره وإن شاء عذب به إلا الشرك فإنه لا يغفره الله أبداً قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء). (٣)

لأن الشرك نقض لأعظم ميثاق أخذه الله عز وجل على الإنسان وإخلال بأكبر حق لله تعالى ولهذا فالشرك بالله عز وجل رجس تنتقل نجاسته إلى كل من يتعاطاه قال تعالى: (إنما المشركون نجس) (٤) فالمشركون أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم نجسه غير طاهره.

قال ابن كثير رحمه الله: دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن ولما ورد في الصحيح "إن المؤمن لا ينجس" (٥)(٦) فهؤلاء المشركون تنجست قلوبهم وودنت أرواحهم فلم يرد الله أن يطهرها وهم يسارعون في الكفر ويلجئون ظلماته ويختارون نجاسته قال تعالى: (يأياها الرسول لا يحزنك الذين يسرعون في الكفر من الذين قالوا

(١) الآية ١٠ من سورة القصص.

(٢) أضواء البيان ٣٣-٣٢/٤

(٣) جزء من الآية ١١٦ من سورة النساء.

(٤) جزء من الآية ٢٨ من سورة التوبة.

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح ١١٠/١ كتاب الغسل (٥) باب الجنب يخرج ويمشى

في السوق وغيره (٢٤) برقم ٢٨٥

ومسلم في الصحيح ٢٨٢/١ كتاب الحيض (٣) باب الدليل على أن المسلم لا ينجس

(٢٩) برقم ٣٧١

(٦) تفسير القرآن العظيم ٧٤/٤

ءامننا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سَمِعُوا للكذب
 سَمِعُوا لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ
 أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يَرِدِ اللّٰهُ فِتْنَةً فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ
 مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. (١)

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام كله تقاء وطهر وصفاء (فمن يرد الله أن
 يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً
 كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون). (٢)

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

المبحث الثالث

تحقيق الخوف من الله عز وجل وتطهيره للقلب (١)

اعلم رحمك الله أن الخوف من الله عز وجل من أجل الأعمال القلبية التي يجب إخلاصها لله عز وجل وحده، وقد أثني الله تعالى به على ملائكته الكرام فقال: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) (٢) وقال تعالى: (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) (٣) وأمر عباده المؤمنين بتجريد الخوف له فقال تعالى: (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٤) ووعد أهل الخوف المخلصين بأعظم الجزاء (ولمن خاف مقام ربه جنتان) (٥) وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر: وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام: أنهم قالوا له: (إن نقول إلا اعتراك بعض آلها تنابؤ سوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيذبوني جميعاً ثم لا تنظرون) (٦) وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس وهذا محرم

(١) مما هو معلوم أن تحقيق جميع العبادات القلبية يسلك بالقلب طريق السلامة والعافية وقد تقدم في الفصل الأول ما يبين ذلك، ولذلك فسأكتفى بذكر مثال واحد فقط. ومما تجدر الإشارة إليه أن ذكر هذا المبحث وما بعده من مباحث بعد المبحث السابق من باب ذكر الخاص بعد العام لزيادة الإيضاح والبيان.

(٢) جزء من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء

(٣) الآية ٥٠ من سورة النحل.

(٤) الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ٤٦ من سورة الرحمن.

(٦) الآيات ٥٤، ٥٥ من سورة هود.

وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يحقر أحدكم نفسه" قالوا: يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: "يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: مامنك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى". (١)

الثالث: الخوف الطبيعي وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك فهذا لا يذم كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: (فخرج منها خائفاً يترقب). (٢)(٣)

فإخلاص الخوف لله من الأسباب العظيمة لسلامة القلب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة" وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٤) والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده. (٥)

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ١٣٢٨/٢ كتاب الفتن (٣٦) باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٠) برقم (٤٠٠٨).

وقال الحافظ البوصيري في الزوائد إسناده صحيح رجاله ثقات والحديث ضعفه الشيخ الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه ص ٣٢٢ برقم (٤٠٠٨/٨٦٨).

(٢) جزء من الآية ٢١ من سورة القصص.

(٣) انظر فتح المجيد ٣٥٢-٣٥٣

(٤) الآية ٦٢ من سورة يونس.

(٥) الفتاوى ٩٥/١

والخوف من المولى جل وعلا يحقق للقلب أعظم مطلوب وهو الاهتداء بما أنزل الله عز وجل إلى طريق الأنبياء والصالحين قال تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (١) فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله (٢) وقال تعالى: (فذكر إن نفعت الذكرى...) (٣) والخوف من الله عز وجل يكسب كذلك القلب التقوى والحذر أمام كل عمل يعمل به حتى ولو كان هذا العمل صالحاً فإنه يخاف أن لا يقبل منه قال تعالى: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون). (٤)

قالت عائشة رضى الله عنها: يارسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: "لا يابنت الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه" (٥) وطالما أن الخائف من الله عز وجل ذاكر له في كل حركاته وسكناته فسوف يشمر له هذا الذكر ثمرة عظيمة ألا وهى الاطمئنان، وهو أمر عزيز جداً من حظى به فهو في سعادة عظيمة لا يعرف مقدارها وعظمها إلا من يشاركه فيها قال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (٦) أى تسكن وتستأنس. (٧)

(١) الآية ١٥٤ من سورة الأعراف.

(٢) الإيمان ص ١٧

(٣) الآية ٩ من سورة الأعلى.

(٤) الآية ٦٠ من سورة المؤمنون.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥٩/٦، والترمذى في السنن ٣٢٧/٥ كتاب تفسير القرآن

(٤٨) باب ومن سورة المؤمنون (٢٤) رقم الحديث ٣١٧٥ وصححه الشيخ

الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٧٩/٣ - ٨٠ برقم ٢٥٣٧ - ٣٤٠١

(٦) جزء من الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٧) جامع البيان ١٤٥/١٣

والخوف من الله يحمل صاحبه على التقوى التي تثمر متابعة الأنبياء والمرسلين ولزوم طاعتهم كما سبق أن بينا وذلك يشمر هداية القلب قال تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (وإن تطيعوه تهتدوا).^(١) ويجعل كذلك القلب المتابع رؤوفاً رحيماً قال تعالى عن نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام: (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة).^(٢) ومعلوم أن أقرب القلوب إلى الله عز وجل أعظمهم رأفة ورحمة، والله تعالى إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن في قلبه الرأفة والرحمة وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة وأبدل له بهما الغلظة والقسوة وإما يرحم الله من عباده الرحماء"^(٣) و"من لا يرحم لا يرحم"^(٤) و"لا تنزع الرحمة إلا من شقى".^(٥)

والتقوى كذلك تثمر العلم (واتقوا الله ويعلمكم الله)^(٦) والعلم هو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ولذة الأرواح.

والعلم يشمر الإيمان بما جاء من عند الله تعالى محكمه ومتشابهة قال تعالى: (والرأسخون في العلم يقولون ءامنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا

-
- (١) جزء من الآية ٥٤ من سورة النور.
 - (٢) جزء من الآية ٢٧ من سورة الحديد.
 - (٣) أخرجه البخارى في الصحيح ٣٩٦/١ كتاب الجنائز (٢٣) باب قول النبي يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (٣٢) برقم (١٢٨٤) ومسلم في الصحيح ٢/٦٣٥-٦٣٦ كتاب الجنائز (١١) باب البكاء على الميت (٦) برقم (٩٢٣/١١).
 - (٤) تقدم تخريجه ص (١٦٥ - ١٦٦) .
 - (٥) تقدم تخريجه ص (١٦٥) .
 - (٦) جزء من الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

أولوا الألب). (١)

أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضى الله عنها أنها قرأت هؤلاء الآيات: (هو الذى أنزل عليك الكتاب) إلى قوله (ءامنا به) قالت: [كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بحكمه ومتشابهه ولا يعلمونه]. (٢)

وهذا الإيمان يؤدي إلى الإخبات قال تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم). (٣)

قال السعدى رحمه الله عند هذه الآية: "وأن الله منحهم من العلم مابه يعرفون الحق من الباطل والرشد من الغي فيفرقون بين الأمرين الحق المستقر الذى يحكمه الله والباطل العارض الذى ينسخه الله بما على كل منهما من الشواهد وليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة (فيؤمنوا به) بسبب ذلك ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبهة (فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين ءامنوا) بسبب إيمانهم (إلى صراط مستقيم) علم بالحق وعمل بمقتضاه". (٤)

والإخبات هو أول منازل الطمأنينة وفيه معنى التواضع والسكون إلى الله عز وجل.

والسكينة تزيد في الإيمان، قال تعالى: (هو الذى أنزل السكينة في

قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم). (٥)

(١) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٢) سبق تخريجه ص (٢٧-٢٨).

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٥٣/٥

(٥) جزء من الآية ٤ من سورة الفتح.

والسكينة أيضاً تنزل عند ذكر الله عز وجل الذى هو ثمرة من ثمار
 الخوف قال صلى الله عليه وسلم: "تلك السكينة تنزلت للقرآن".^(١)
 كل ذلك وغيره مما يعجز القلم عن الإحاطة به من الثمار العظيمة
 التى يشمرها الخوف من الله العزيز الجبار، وكذا جميع العبادات القلبية
 فإنها تثمر الثمار الياقة التى تعود على القلب بالطهر والنقاء وحسبى أن
 مثلت لها بمثال واحد فإن الموضوع طويل والعدة متواضعة والله المستعان،
 ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٤٣/٣ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب فضل
 سورة الكهف (١١) برقم ٥٠١١، ومسلم في الصحيح ٥٤٧/١ كتاب صلاة المسافرين
 (٦) باب نزول السكينة لقراءة القرآن (٣٦) برقم ٧٩٥/٢٤٠

المبحث الرابع

شعائر الإسلام وعباداته الظاهرة وتطهيرها للقلب

فكما أن سلامة العقيدة وإخلاص العبادات الباطنة تسلك بالقلب طريق السلامة فكذلك شعائر الإسلام وعباداته الظاهرة ولنبيين ذلك ببعض الأمثلة:

أولاً: الوضوء والغسل والتيمم وإزالة النجاسة:

اعلم أن هذه العبادات العظيمة ذات أثر بالغ في تطهير القلوب كما أن لها أثراً في تطهير الظاهر، وقد قال تعالى بعد أن ذكر الوضوء والغسل والتيمم: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).^(١)

فهذه الآية الكريمة تقودنا إلى الوحدة التي يحققها الإسلام في الشعائر والشرائع على السواء فليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف للجسد فقط بل إنه يجمع بين نظافة الجسم وطهارة الروح في عمل واحد وفي عبادة واحدة يتوجه بها المؤمن إلى ربه وجانب التطهر الروحي أقوى لأنه عند تعذر استخدام الماء يستعاض بالتيمم الذي لا يحقق إلا هذا الشطر الأقوى.^(٢) قال صاحب المنار^(٣) رحمه الله عند هذه الآية (ولكن يريد ليطهركم) من القذر والأذى ومن الرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة

(١) جزء من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/٨٥٠-٨٥١

(٣) هو محمد رشيد علي رضا بن محمد بن محمد بن علي القلموني البغدادي الأصل

محدث ومفسر ومؤرخ وأديب وسياسي، اتصل بمحمد عبده المصري وتلمذ له وأصدر مجلة المنار، وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، من مصنفاته تفسير المنار ولم يكمل، والخلافة والإمامة العظمى وغيرها، توفي سنة ١٣٥٤هـ. انظر الأعلام

فتكونوا أنظف الناس أبداناً وأزكا هم نفوساً وأصحهم وأرقاهم أرواحاً (وليتم نعمته عليكم) بالجمع بين طهارة الأرواح وتركيتها وطهارة الأجساد وصحتها، فإنما الإنسان روح وجسد لا تكمل إنسانيته إلا بكمالهما معاً. (١) فالوضوء طهارة للروح لأنه ينقيها من الذنوب والآثام ويشهد لهذا ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب". (٢)

وما رواه عثمان بن عفان رضى الله عنه (٣) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره" (٤) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالوضوء

(١) تفسير المنار ٢٥٩/٦

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٢١٥/١ كتاب الطهارة (٢) باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (١١) برقم ٢٤٤/٣٢

(٣) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص ابن أمية القرظي الأموي أمير المؤمنين أبو عبدالله، أسلم قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، زوجه الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم، ولذلك سمي بذي النورين، صاحب الأيادي البيضاء في الإنفاق في سبيل الله، جهز جيش العسرة، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالشهادة، قتل في بيته سنة ٣٥هـ رضى الله عنه وأرضاه. انظر صفة الصفوة ٢٩٤/١، الإصابة ٤٥٥/٢

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح ٢١٦/١ كتاب الطهارة (٢) باب خروج الخطايا مع ماء

الوضوء (١١) برقم ٢٤٥/٣٣

والغسل جعلاً مقدمة للصلاة وغيرها من العبادات التي لها أثر كبير في تزكية النفس وتطهير القلب.

ومما ينبغي أن يذكر أن كلا من الطهارتين الحسية والمعنوية ينبغي أن تكون عوناً للآخرى كما أن التنطع والإسراف في إحدى هاتين الطهارتين يشغل عن الأخرى وهذا هو سبب عدم عناية بعض الزهاد والعباد بنظافة الظاهر وعدم عناية الموسوسين المتنطعين في نظافة الظاهر بنظافة الباطن والإسلام وسط بينهما يأمر بالجمع بين الأمرين. ولأجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الإيمان) (١)؛ (٢)

فطهارة الجوارح مرتبطة بطهارة القلوب ولذلك جعل الله عز وجل إذهابه عن أهل بدر رجز الشيطان وربطه على قلوبهم وثبتت أقدامهم معطوفاً على طهارة جوارحهم في قوله تعالى: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ويتزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام). (٣)

قال ابن كثير رحمه الله وقوله (ليطهركم به) أى من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى من وسوسة أو خاطر سيئ وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة (عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة) (٤) فهذا زينة الظاهر، (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) (٥) أى: مطهراً لما كان من بخل أو

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ٢٠٣/١، كتاب الطهارة (٢)، باب فضل الوضوء (١)

برقم ٢٢٣/١

(٢) انظر تفسير المنار ٢٦٣/٦

(٣) الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٤) جزء من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

(٥) جزء من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

جسدٍ أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته (وليربط على قلوبكم) أى بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر والله أعلم. (١)

وقال تعالى: (وثيابك فطهر) (٢) وهذه الآية تدل على طهارة القلب وطهارة الثوب وأن طهارة كل منهما متوقفة على طهارة الآخر. (٣)
ثانياً: الصلاة:

والمراد بها في الشرع (أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم). (٤)

وهي الركن الثانى من أركان الإسلام وعموده الذي لا يقوم بدونه قال صلى الله عليه وسلم: "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد" (٥) وقال صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان". (٦)

وهي صلة عظيمة بين العبد وربّه يستمد منها العبد القوة والراحة

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٦٤/٣-٥٦٥

(٢) الآية ٤ من سورة المدثر.

(٣) كما اختار ذلك ابن القيم وابن حجر وقد تقدم البحث مستوفى في هذه الآية في مبحث الطهر.

(٤) الروض المربع للبهوتي ٤١/١

(٥) أخرجه الترمذى في السنن ١١/٥-١٢، كتاب الإيمان (٤١)، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٨) برقم ٢٦١٦، وقال حسن صحيح، وصححه الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٣٢٨-٣٢٩ برقم ٢١١٠

(٦) أخرجه البخارى في الصحيح ٤٩/١، كتاب الإيمان (٢) باب دعاؤكم إيمانكم برقم (٢) ومسلم في الصحيح ٤٥/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان أركان الإسلام (٥) برقم (٢١).

والطهارة والنقاء وكيف لا يكون ذلك وهو يشعر عندما يحافظ عليها أن صلته بالله قوية وأن الله مطلع عليه ومراقب له في كل حركاته وسكناته وسيجزيه على كل ما عمل قال تعالى: (إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون)(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من لم تأمره الصلاة وتنهه عن المنكر لم يزد بها إلا بعداً».(٢) فالصلاة فيها ثلاث خلال الإخلاص والخشية وذكر الله فالإخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله يأمره وينهاه.

ولذلك حين أمر الله عز وجل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهن بالقرار في البيوت ونهاهن عن التبرج وأمرهن بالصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله بين عاقبة ذلك فقال سبحانه: (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلوة وءاتين الزكوة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)(٣). (٤)

(١) جزء من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد ص ١٥٩.

وقال ابن كثير: بعد أن ساق الحديث عن عمران بن حصين وابن عباس وابن مسعود والحسن مرفوعاً قال: «والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم». تفسير القرآن العظيم ٢٩٠/٦ وصححه موقوفاً أيضاً الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة ١٤/١ برقم (٢).

(٣) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

(٤) الصلاة في القرآن - مفهومها فقهاها - للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي ص ٣٨-٣٩.

ومما يجب أن يعلم أن الصلاة التي تحقق سلامة القلب وطهارة الروح هي الصلاة التامة التي قد تم وضوءها وركوعها وسجودها وخشوعها. (١) قال عثمان بن عفان رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله» (٢).

ثالثاً: الزكاة وصدقة التطوع:

الزكاة من الزكاء بالمد وهو النماء والزيادة لأنها تثمر المال وتنميه فهي سبب يرجي به الزكاة. (٣) وليس النماء والطهارة مقصوران على المال بل يتعديان إلى نفس المعطي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة: (قد أفلح من زكها) (٤).

-
- (١) وشأن الخشوع في الصلاة عظيم جعله الله سبحانه أول صفات عباده المؤمنين في قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) (المؤمنون: ٢-١).
- ووصف الله به الذين أوتوا العلم في قوله تعالى: (ويزيدهم خشوعاً) (الإسراء: ١٠٩).
- (٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٢٠٦/١ كتاب الطهارة (٢) باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٤) برقم ٢٢٨/٧.
- (٣) انظر اللسان عند مادة (زكا) ٣٥٨/١٤، والمصباح المنير عند مادة (زكا) ص ٩٧.
- (٤) الآية ٩ من سورة الشمس.

(قد أفلح من تزكى) (١) نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو يظهر ويزيد في المعنى. (٢)

وهي في الشرع اسم لمخرج مخصوص بأوصاف مخصوصة من مال مخصوص لطائفة مخصوصة (٣) هذا وقد أطلق الشرع على الزكاة اسم "صدقة" كما صرحت بذلك الآيات والأحاديث قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) (٤) وقال تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغرمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله) (٥) وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس فيما دون خمسة أوسق (٦) صدقة، وليس فيما دون خمس ذود (٧) صدقة، وليس فيما دون خمس أواق (٨) صدقة" (٩) وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً في حديث معاذ: "فأعلمهم أن الله افترض عليهم في أموالهم صدقة تؤخذ من

(١) الآية ١٤ من سورة الأعلى.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/٢٥

(٣) المطلع على أبواب المقنع ص ١٢٢

(٤) جزء من الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٥) جزء من الآية ٦٠ من سورة التوبة.

(٦) أوسق: الوسق بالفتح ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز وأربعمائة وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلاف في مقدار الصاع والمد. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١٨٥/٥ مادة (وسق).

(٧) ذود: الذود من الإبل مابين الشتين إلى التسع وقيل مابين الثلاث إلى العشر. انظر النهاية ١٧١/٢ مادة (ذود).

(٨) أواق: مفردا أوقية بضم الهمزة وتشديد الياء وهي: اسم لأربعين درهماً. فخمسة أواق تساوي مائتي درهم. انظر النهاية ٢١٧/٥ مادة (وقا).

(٩) أخرجه البخارى في الصحيح ٤٥١/١، كتاب الزكاة (٢٤) باب ليس فيما دون خمس ذود صدقة (٤٢) برقم ١٤٥٩، ومسلم في الصحيح ٦٧٣/٢ أول كتاب الزكاة

أغنيائهم" (١) فليست الصدقة عنواناً على التطوع فحسب كما هو شائع في عرف عامة الناس اليوم. (٢)

وصدقة التطوع المراد بها الصدقة المستحبة الغير واجبة وهي التي قال عنها عز وجل: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (٣) وقال عنها صلى الله عليه وسلم: "أتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فكلمة طيبة" (٤) وقال كذلك صلى الله عليه وسلم: "أفضل الصدقة جهد المقل ودرهم سبق مائة ألف". (٥)

فالصدقة -مفروضة أو غير مفروضة- من أعظم أسباب سلامة القلب وطهره ونقاؤه ولذلك قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

قال صاحب المنار عند هذه الآية: أى تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكى أنفسهم بها أى تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية. فالمطهر هنا الرسول صلى الله عليه وسلم (٦) والمطهر به

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٧٨/٤، كتاب التوحيد (٩٧) باب ما جاء في دعاء

النبي أمته إلى التوحيد (١) برقم ٧٣٧٢

(٢) فقه الزكاة للقرضاوى ٤٠/١-٤١

(٣) جزء من الآية ٩٢ من سورة آل عمران.

(٤) أخرجه البخارى في الصحيح ٩٥/٤، كتاب الأدب (٧٨) باب طيب الكلام

(٣٤) برقم ٦٠٢٣، ومسلم في الصحيح ٧٠٣/٢، كتاب الزكاة (١٢) باب الحث

على الصدقة ولو بشق تمرة (٢٠) برقم ١٠١٦/٦٦

(٥) تقدم تخريجه. ص ١٧٥

(٦) وقد أسندت التزكية للأنفس هنا للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه هو المرئى

للمؤمنين على ما تركو به أنفسهم ولأن الأنفس يعلو قدرها بسنته العملية

والقولية في بيان كتاب الله وما لهم من الأسوة الحسنة فيه

الصدقة. (١)

وحتى تحقق الصدقة تطهير القلب لابد لها من أمرين:

أولهما: الإخلاص لله عز وجل.

الثاني: أن يكون قصده بها تزكية نفسه.

قال تعالى: (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده

من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى). (٢)(٣)

قال السعدى رحمه الله عند هذه الآية: بأن يكون قصده به تزكية

نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس قاصداً به وجه الله تعالى. (٤)

وقد ورد في الآية أن جزاء من يحقق هذين الأمرين الرضى الذي

سوف يملأ قلبه ويغمر روحه ويفيض على جوارحه ويندى حياته، يرضى

(=) قال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) (الجمعة: ٢) فتزكيتهم صلى الله عليه وسلم للأمة من مقاصد البعثة، وقد أسندت التزكية في آيات أخرى لله تعالى: (ولكن الله يزكي من يشاء) (النور: ٢١) لأنه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ما تركو به نفسه وتصلح وأسندت كذلك للعبد كما في قوله تعالى: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (الشمس: ٩-١٠) وقوله تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) (الأعلى: ١٤-١٥) لكونه هو الفاعل لما جعله الله سبباً لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر وأما قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء) (النساء: ٤٩) قوله (فلا تركوا أنفسهم) هو أعلم بمن أتقى) (النجم: ٣٢) فهو في زكاء النفس بدعوى اللسان. انظر تفسير المنار ٢٤/١١-٢٥

(١) تفسير المنار ٢٤/١١

(٢) الايات ١٧-٢١ من سورة الليل.

(٣) قال ابن كثير: ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر

الصديق ٤٤٤/٨

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢٤٨/٨

بدينه، ويرضى بربه، ويرضى بقدره، ويرضى بما يجد من سراء وضراء،
ومن غنى وفقر، ومن يسر وعسر، ومن رخاء وشدة. (١)
رابعاً: الصيام.

الصوم في اللغة الإمساك صام أى أمسك عن الطعام والشراب
والكلام والسير (٢) وهو في الشرع عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة في
زمن مخصوص من شخص مخصوص بنية مخصوصة. (٣)
وهو طريق عظيم يطهر الله به القلب ويهذب به الروح فيكتسب
القلب الصفات الحميدة كال تقوى وغيرها.

قال تعالى: (ياأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على
الذين من قبلكم لعلكم تتقون). (٤)
وفي قوله تعالى: (لعلكم تتقون) قولان: (٥)

أحدهما: لعلكم تتقون ما حرم عليكم في الصيام من أكل الطعام
وشرب الشراب ووطء النساء وهذا هو قول الطبرى رحمه الله. (٦)
الثانى: معناه أن الصوم سبب يؤول بصاحبه إلى تقوى الله، لما فيه
من قهر النفس وكسر الشهوة وإذهاب الأشر وهو معنى قول الزجاج (٧) (٨)

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٠/٣٩٢٣

(٢) القاموس المحيط ص ١٤٦٠، عند مادة صام.

(٣) المطلع على أبواب المقنع للبعلى ص ١٤٥

(٤) الآية (١٨٣) من سورة البقرة.

(٥) النكت والعيون ١٩٧/١

(٦) انظر جامع البيان ١٣٠/٢

(٧) هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو اسحاق الزجاج النحوى، كان من أهل

الفضل والدين، له مؤلفات حسان، توفي سنة ٣١١هـ. انظر انباه الرواة على انباه

النحاة ١٩٤/١ برقم (٩٦) ومعجم الأديباء ١٣٠/١ برقم (٩).

(٨) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٥٢/١

والقول الثانى هو المقصود هنا.

قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى مخاطباً المؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان من قبلهم فلهم فيهم أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الغرض أكمل مما فعله أولئك". (١)

ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الصوم أنه سبب مغفرة الذنوب (٢) ودخول الجنة والعق من النار (٣) وأنه جنة (٤) وأنه وجاء. (٤)

- (١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٥/١
(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه" أخرجه البخارى في الصحيح ٩٢/١ كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان برقم ٣٨
(٢) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون" أخرجه البخارى في الصحيح ٣٢٨/٦ كتاب بدء الخلق باب صفة أبواب الجنة برقم ٣٢٥٧
(٣) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "والصيام جنة" أخرجه البخارى في الصحيح ١١٨/٤ كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم برقم ١٩٠٤ والجنة الوقاية والمعنى يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٠٨/١ مادة (حنن).
(٤) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" أخرجه البخارى في الصحيح ١١٢/٩ كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم برقم ٥٠٦٦، والوجاء أن ترض أنثيا الفحل رضاء شديداً يذهب شهوة الجماع والمراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء. انظر النهاية ١٥٢/٥ مادة (وجأ).

قال الكمال^(١) في الفتح ذاكراً لبعض فوائد الصوم: "هذا ثالث أركان الإسلام بعد لا إله إلا الله محمد رسول الله شرعه سبحانه لفوائد أعظمها كونه موجباً شيئين:

أحدهما: سكون النفس الأمانة وكسر سورتها في الفضول المتعلقة بجميع الجوارح من العين واللسان والأذن والفرج فإن به تضعف حركتها في محسوساتها، ولذا قيل: إذا جاعت النفس شبت جميع الأعضاء، وإذا شبت جاعت كلها، وما ينتج عن هذا من صفاء القلب من الكدر فإن الموجب لكدوراته فضول اللسان والعين وباقيها وبصفائه تنشط المصالح والدرجات ومنها: كونه موجباً للرحمة والعطف على المساكين لما ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ذكر من هذا حاله في عموم الأوقات فتسارع إليه الرقة عليه، والرحمة حقيقتها في حق الإنسان نوع ألم باطن فيسارع لرفعه عنه بالإحسان إليه فينال بذلك ما عند الله تعالى من حسن الجزاء ومنها موافقة الفقراء بتحمل ما يتحملون أحياناً وفي ذلك رفع حاله عند الله تعالى".^(٢)

خامساً: الحج والنسك:

الحج في اللغة القصد، حج إلينا فلان أى قدم، وحجه يحجه حجاً: قصده.^(٣)

(١) هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد كمال الدين الشهير بابن الهمام السكندري السيواسي، كان محدثاً مفسراً حافظاً غوياً كلامياً منطقياً جدلياً، وله تصانيف منها: شرح الهداية في الفقه والتحرير في الأصول وغيرها، مات سنة ٨٦١هـ. انظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ١٨٠

(٢) فتح القدير لابن الهمام ٣٠١-٣٠٠/٢

(٣) اللسان عند مادة حجج ٢٢٦/٢

والمراد بالنسك الذبح تقرباً إلى الله عز وجل فالنسك اسم فعله نسك ينسك إذا تطوع بقربة^(١) قال تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).^(٢)
فالمراد بالنسك الذبح.^(٣)

وفي النسك طهارة وتقاء قال تعالى: (والبدن جعلناها لكم من شعيري الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن يتال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هذكم وبشر المحسنين).^(٤)

قال سيد قطب رحمه الله عند قوله تعالى: (ذلك ومن يعظم شعيري الله فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منفع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق)^(٥) ثم يعود السياق من تعظيم حرمان الله باتقائها والتخرج من المساس بها إلى تعظيم شعائر الله وهى ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها، ويربط بين الهدى الذى ينحصره الحاج وتقوى القلوب، إذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره.^(٦)
سادساً: مكارم الأخلاق:

اعلم أن جميع مكارم الأخلاق من الأسباب العظيمة المؤدية إلى

(١) المصباح المنير عند مادة (نسك) ص ٢٣٠

(٢) الآيتان ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام.

(٣) انظر جامع البيان ١١٢/٨، وتفسير ابن كثير ٣/٣٧٧

(٤) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة الحج.

(٥) الآيتان ٣٢ و ٣٣ من سورة الحج.

(٦) في ظلال القرآن ١٧/٢٤٢٢

وهو في الشرع قصد بيت الله الحرام لأداء أفعال مخصوصة بصفة مخصوصة في زمن مخصوص بشروط مخصوصة. (١)

وللحج أثر عظيم في السير بالقلب إلى الطهر والنقاء والسلامة والصفاء قال تعالى: (الحج أشهر معلومت فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب). (٢)

فالحاج بزيارته لبيت الله تعالى مقبل على الله تعالى قاصد له، فيتجرد عن عاداته ونعيمه وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره، بحيث، يساوى الغنيَّ الفقيرَ، ويمثل الصعلوك الأميرَ، فيكون الناس من جميع الطبقات في زي كزي الأموات، وفي ذلك من تصفية النفس وتهذيبها وإشعارها بحقيقة العبودية لله والأخوة للناس مالا يقدر قدره وإن كان لا يخفى أمره، وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" (٣) وذلك أن الإقبال على الله تعالى بتلك الهيئة، والتقلب في تلك المناسك على الوجه المشروع يححو من النفوس آثار الذنوب وظلمتها ويدخلها في حياة جديدة لها فيها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. (٤)

(١) انظر المغني ٢١٧/٣، فقه الإسلام شرح بلوغ المرام لعبد القادر شعبة الحمد ٤/٤

(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح ٤٧٠/١-٤٧١ كتاب الحج (٢٥) باب فضل الحج

المبرور (٤) برقم ١٥٢١، ومسلم في الصحيح ٩٨٣/٢ كتاب الحج (١٥) باب فضل الحج والعمرة (٧٩) برقم ١٣٥٠/٤٣٨

(٤) تفسير المنار ٢٢٨/٢ -

والمراد بالنسك الذبح تقريباً إلى الله عز وجل فالنسك اسم فعله نسك ينسك إذا تطوع بقربة^(١) قال تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).^(٢)
فالمراد بالنسك الذبح.^(٣)

وفي النسك طهارة وتقاء قال تعالى: (والبدن جعلناها لكم من شعير الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هذكم وبشر المحسنين).^(٤)

قال سيد قطب رحمه الله عند قوله تعالى: (ذلك ومن يعظم شعير الله فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منفع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق)^(٥) ثم يعود السياق من تعظيم حرمت الله باتقائها والتخرج من المساس بها إلى تعظيم شعائر الله وهى ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها، ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره.^(٦)
سادساً: مكارم الأخلاق:

اعلم أن جميع مكارم الأخلاق من الأسباب العظيمة المؤدية إلى

(١) المصباح المنير عند مادة (نسك) ص ٢٣٠

(٢) الآيتان ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام.

(٣) انظر جامع البيان ١١٢/٨، وتفسير ابن كثير ٣٧٧/٣

(٤) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة الحج.

(٥) الآيتان ٣٢ و ٣٣ من سورة الحج.

(٦) في ظلال القرآن ٢٤٢٢/١٧

سلامة القلب ونقائه وطهره.

فالعَدْل مثلاً يقود إلى تقوى الله عز وجل التي هي من أجلِّ أسباب
طهر القلب وسلامته قال تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا
اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون).^(١)
إن في العَدْل ضبطاً للنفس وربطاً للقلب بالله عز وجل وسرعان
ما تعود هذه المعاني العظيمة على القلب بالنور والفرح والسرور والانشراح
وذلك يحقق للقلب السلامة أيما تحقيق.

والصدق كذلك يقود إلى التقوى قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا
اتقوا الله وكونوا مع الصديقين)^(٢) وقال تعالى: (والذى جاء بالصدق
وصدق به أولئك هم المتقون).^(٣)

فالصدق من أعظم ثمار التقوى وهو كذلك يزيد فيها.
وأعظم الصدق ما كان في النية والإرادة وهو يرجع إلى الإخلاص
ولذلك يقال لمن تعلم العلم وعمل به لأجل الناس بعد أن يسأل عنه فيذكر
بلاءه فيه يقال له: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم^(٤) فهو هنا كذب في

(١) جزء من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٣٣ من سورة الزمر.

(٤) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأول من يدعى به رجل جمع القرآن،
ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء ألم أعلمك ما
أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت، قال: كنت
أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت..
"الحديث أخرجه الترمذى ٥٩٢/٤ كتاب الزهد (٣٧) باب ما جاء في الرياء
والسمعة (٤٨) برقم ٢٣٨٢ وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وصححه

الشيخ الألبانى في صحيح سنن الترمذى ٢٨١/٢-٢٨٣ برقم (١٩٤٢).

إرادته ونيته. (١)

ومن مواطن الصدق كذلك الصدق في العزم والوفاء به وهو يجنب القلب العقاب الإلهي الذي أعده الله لمن أخلف وعده معه قال تعالى: (ومنهم من عهد الله لأن آتينا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله جخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون). (٢٢) وقد ذكر تعالى في هذه الآيات وصفين من أخص صفات المنافقين الكذب وإخلاف الوعد وهذان الوصفان مذمومان بكل حال فكيف إذا كانا مع رب العالمين وإسناد إعتابهم النفاق إلى الله تعالى أو إلى البخل قولان للمفسرين مآلهما واحد إلا أن الثاني أدب وذلك أن سنته تعالى في الشر أن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه في القلب كما أن العمل بمقتضى الإيمان يقويه ويزيده رسوخاً وهكذا جميع صفات النفس وأخلاقها وعقائدها تقوى وترسخ بالعمل الذي يصدر عنها. (٣)

ومن مواطن الصدق كذلك القول والعمل فلا يتكلم إلا بحق ولا يجري لسانه بالكذب أو الإكثار من المعارض (٤) لأنها قد أقيمت مقام الكذب فيما تقتضيه الحاجة وتمس إليه المصلحة في بعض الأحوال كتأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وكالتخلص من الظلمة والأعداء. (٥)

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٤/٤١٠-٤١١

(٢) الآيات ٧٥-٧٧ من سورة التوبة.

(٣) انظر تفسير المنار ١٠/٥٥٩

(٤) المعارض: جمع معارض من التعريض وهو خلاف التصريح من القول. النهاية ٣/٢١٢ في مادة (عرض).

(٥) انظر إحياء علوم الدين ٤/٤٠٩-٤١٠

وعليه أن يراعى في أقواله أولاً تلك الأقوال التي بينه وبين الله عز وجل كقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين)^(١) وقوله: "وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين لا شريك له ..."^(٢) فهل يصدق من يقولها ثم بعد ذلك يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فيستعين بغير الله أو يذبح لغير الله أو يستغيث بغير الله؟؟

وأما الصدق في العمل فهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك العمل ولكن بإصلاح الباطن حتى يساير الظاهر ويصدق.^(٣)

فالصدق على هذا يدخل في أعمال القلب كلها في الخوف وفي الرجاء والتعظيم والرضا والتوكل والحب وغيرها وقد قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).^(٤)

وبالجملة فشعائر الدين كلها باطنها وظاهرها هي الطريق إلى تطهير القلوب وصفائها.

قال تعالى: (يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).^(٥)

(١) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٥٣٤/١-٥٣٦ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٢٦) برقم (٧٧١/٢٠١).

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٢٢.

(٤) الآية ١٥ من سورة الحجرات.

(٥) الآية ٥٧ من سورة يونس.

وقال كذلك: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)^(١)
ولذلك فالبحث عن وسائل أخرى لتطهير القلوب وصقلها غير
الكتاب والسنة من أعظم العبث وسوء الأدب مع الخالق الباري لأن فيه
اتهاماً لمنهج الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده بالقصور في هذه الناحية التي
هي من أعظم النواحي وأهمها لأن صلاح القلب يترتب عليه صلاح
جميع الجسد (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا
فسدت فسد الجسد كله وهي القلب).^(٢)

فمن المحال^(٣) أن يصف الله عز وجل كتابه بصفات عظيمة جليلة
تبين أنه قد أوضح كل شيء وشمل كل شيء ثم يهمل أو يقصر في أعظم
الأمور وهو إصلاح القلوب التي هي مكان الإيمان.

قال تعالى: (يأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ
نُورًا مُبِينًا)^(٤)

وقال سبحانه: (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).^(٥)

ومن المحال أيضاً في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي
أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق
ليحكم بين الناس فيما اختلفوا وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر

(١) جزء من الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

(٢) سبق تخريجه. ص ٣

(٣) هذا الأسلوب اقتبسته من مقدمة الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية. انظر

مجموع الفتاوى ٦/٥-٧

(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

(٥) الآية ٨ من سورة التغابن.

دينهم إلى مابعث به من الكتاب والحكمة وهو من يدعو إلى الله وإلى
سبيله بإذنه على بصيرة وقد قال صلى الله عليه وسلم: "تركتم على البيضاء
ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك".^(١)

فمن المحال أن يعلم الناس كل شيء مما يقربهم إلى ربهم ويجنبهم
مزالق الهوى والشبهات ثم يقصر في بيان ما يصلح القلب ويجنبه الشرور
وهو القائل: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا
فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب".^(٢)

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ١٦/١ في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين
المهديين (٦) برقم (٤٣) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١٣/١ برقم ٤١

(٢) تقدم تخريجه ص ٣ .

الباب الثاني حديث القرآن عن القلب المريض

وفي هذا الباب ثلاثة فصول:

الفصل الأول: نوعية أمراض القلب.

الفصل الثاني: أسباب أمراض القلب.

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة أمراض القلب.

الفصل الأول نوعية أمراض القلب

وفي هذا الفصل تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: مرض لا يتألم به صاحبه في الحال.

المبحث الثاني: مرض يتألم به صاحبه في الحال.

تمهيد

مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره للحق وإرادته له فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له وهو الغالب. (١)

وهو نوعان:

نوع لا يتألم به صاحبه في الحال وهو نوعان:

الأول: مرض شبهات.

الثاني: مرض شهوات.

وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

ونوع مؤلم له في الحال كالهم والغم والحزن والغيظ: وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب وما يدفع موجبها مع قيامها، وكما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم بما يتألم به القلب ويشقى ما يشقى به. (٢)

وسأتكلم بإذن الله عز وجل في هذا الفصل على هذين النوعين مفرداً

كل نوع بمبحث مستقل.

(١) انظر مجموع الفتاوى ٩٣/١، وإغاثة اللهفان ١٧/١

(٢) إغاثة اللهفان ١٨/١

المبحث الأول المرض الذي لا يتألم به صاحبه في الحال

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مرض الشبهات.

المطلب الثاني: مرض الشهوات.

المطلب الأول

مرض الشبهات

الشبهات جمع شبهة والشبهة الالتباس وأمور مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ: مشكلة يشبه بعضها بعضاً، وشَبَّهَ عليه خَلَطَ عليه الأمر. (١)
قال صاحب المفردات: الشبهة هي أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى. (٢)
وهي تنقسم إلى قسمين:
الأول: شبهات خفيفة.

الثاني: شبهات متمكنة في قلوب أصحابها.

فأما القسم الأول: فالمراد به تلك الوسوس والتزغات (٣) التي يحاول الشيطان -أخزاه الله- إلقاءها في قلوب المؤمنين ليفسد عليهم دينهم. فالؤمن قد يبتلى بوسوس الشيطان ووسوس الكفر التي يضيق بها صدره. فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: "وقد وجدتموه" قالوا: نعم، قال: "ذاك صريح الإيمان". (٤)

(١) انظر اللسان عند مادة (شبه) ٥٠٤-٥٠٥

(٢) المفردات عند مادة (شبه) ص ٢٥٤

(٣) الوسوسة: الخطرة الرديئة، والتزغ دخول في أمر لإفساده. المفردات عند مادة (وسوس) ص ٥٢٢ و(نزغ) ص ٤٨٨

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١١٩/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (٦٠) رقم الحديث (١٣٢/٢٠٩) وفي رواية له (فمن وجد من ذلك شيئاً فليقلل آمنت بالله) المرجع نفسه رقم الحديث (١٣٤/٢١٢). وفي رواية له أيضاً: "يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته" المرجع نفسه ١٢٠/١

رقم الحديث (٢١٤).

والمقصود أن حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد، والصريح الخالص كاللبن الصريح وإنما صار صريحاً لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الإيمان فصار صريحاً. (١)

ولابد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فيصير كافراً أو منافقاً ومنهم من قد غمرت قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمناً وإما أن يصير منافقاً ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة مالا يعرض لهم إذا لم يصلوا، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلين مالا يعرض لغيرهم، ويعرض للخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات مالم يس عند غيرهم، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوب الشيطان بخلاف

(=) وفي رواية عند الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشئ لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم الله أكبر الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة" رواه الإمام أحمد في المسند ٢٣٥/١ وصححه الشيخ الألباني إسناده كما في الإيمان ص ٢٦٨

(١) الإيمان ٢٦٨ وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧ / ٣٤٨-٣٤٩ وقد ذكر النووي رحمه الله ذلك أيضاً ثم قال: وقيل معناه إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد فعلى هذا معنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان أو الوسوسة

المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا)^(١) ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء قال تعالى: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً)^(٢) وقال تعالى: (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)^(٣) وقال تعالى: (هدى للمتقين)^(٤) وقال تعالى: (فأما الذين ءامنوا فرادتهم إيماننا وهم يستبشرون).^(٥)

وهذا مما يجده كل مؤمن في نفسه، فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيز منه، قال تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين ءامنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون).^(٦)

فإن المستعيز بالله مستجير به لاجيء إليه مستغيث به من الشيطان فيعيذه الله من الشيطان ويحيره منه ولذلك قال تعالى: (وإما يترغبك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم).^(٧)

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن رجل تملكه

(١) جزء من الآية ٦ من سورة فاطر.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران.

(٤) جزء من الآية ٢ من سورة البقرة.

(٥) جزء من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

(٦) الآيات ٩٨-١٠٠ من سورة النحل.

(٧) الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

الغضب: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". (١) فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير، لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعندما يأمره الشيطان بالسيئات، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، من خلق كذا حتى يقول من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولنيته". (٢) فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه. (٣)

فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به، وأما من خالجه الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي كما قال صلى الله عليه وسلم للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا عدوى" فقال الأعراي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الطباء فإذا دخل فيها البعير الأجرى أجربها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "فمن أعدى الأول" (٤) فاستأصل الشبهة من أصلها. (٥)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ١١٢/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب الحذر من الغضب... (٧٦) رقم الحديث (٦١١٥) ومسلم في صحيحه ٢٠١٥/٤ كتاب البر (٤٥) باب فضل من يملك نفسه... (٣٠) رقم الحديث (٢٦١٠/١٠٩).

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧٥

(٣) انظر الإيمان ص ٢٦٨-٢٧٠

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٥٠/٤ كتاب الطب (٧٦) باب لاهامة (٥٣) رقم الحديث (٥٧٧٠) ومسلم في صحيحه ١٧٤٢/٤-١٧٤٣ كتاب السلام (٣٩) باب لا عدوى... (٣٣) رقم الحديث (٢٢٢٠/١٠١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٩/٧

وأما القسم الثانى: فهو تلك الشبهات المتمكنة في قلوب أصحابها - نسأل الله السلامة والعافية -: وهى تلك الشبه المعارضة لأصل النبوة، والشبه المعارضة لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالأولى: المعارضة لأصل النبوة كالشبه القادحة في نبوة الأنبياء ووجود الرب ومعاد الأبدان وهى التى يسميها أصحابها حججاً عقلية. (١)
وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنه قد أورد على القدح في النبوات ثمانون شبهة أو أكثر وهى كلها عقلية، وأورد على إثبات الخالق سبحانه وتعالى نحو أربعين شبهة كلها عقلية وأورد على المعاد نحو ذلك. (٢)

ولا والله ما هى في سوق العقلاء برائجة ولا هى بسلة راجحة، وما هى إلا شجرة بلا جذور، وبناء بلا قاعدة (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار). (٣)

وهذه الفتنة العظيمة - فتنة الشبهات - مآلها إلى الكفر والنفاق وهى فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التى اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال. (٤)

والثانية: الشبه المعارضة لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم. ومما يجب علمه أن الآيات والبراهين اليقينية والأدلة القطعية قد دلت على صدق الرسل وأنهم لا يخبرون عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه إلا بالحق المحض فهم صادقون فيما يبلغونه عن الله في الطلب والخبر وهذا

(١) انظر الصواعق المرسلة ٣/٨٥٦

(٢) المرجع السابق نفسه ٣/٨٥٧

(٣) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٤) انظر إغاثة اللهفان ٢/١٦٥

أول درجات الإيمان.

ولذلك فكل معارض ما أخبر به الرسول فهو باطل بل هو حجج داحضة وشبه فاسدة من جنس شبهة السفسطة^(١)

وقد نزهت قلمي وبجثي عن بسط القول في ذلك لظهور بطلانه ولأن بسط ذلك يطول مما لايناسب هذا المقام.^(٢)

وأما المروجون لهذه الشبه الخبيثة فيجب الحذر منهم وتجريد الأقلام والألسنة عليهم كما قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى: (فيتبعون ماتبابه منه)^(٣): فيحملون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ويلبسون، فلبس الله عليهم.^(٤)

وقد أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت: "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشبهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتبابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - إلى قوله - أولوا الألباب) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإذا رأيت الذين

(١) السفسطة: ثلاثة أنواع:

أحدها: التجاهل وهو: لأدري وأصحابه يسمون اللاأدرية.

والثاني: النفي والجحود.

والثالث: قلب الحقائق وهو جعل الموجود معدوماً، والمعدوم موجوداً، إما في نفس الأمر أو بحسب الاعتقاد.

الصواعق المرسلة ٢/٦٤٩-٦٥٠

(٢) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتاب الصواعق المرسلة كثيراً منها فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه.

(٣) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦٥/٢

يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمي الله، فاحذروهم". (١)
وهؤلاء الزائغون لايزيدهم ما أنزل الله عز وجل إلا مرضاً على
مرضهم قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه
إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في
قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كفرون). (٢)
قال ابن كثير رحمه الله: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم
رجساً إلى رجسهم أى: زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال
تعالى: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين
إلا خساراً) (٣) وقال تعالى: (قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء والذين
لا يؤمنون في ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان
بعيد) (٤) وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سبباً لضلالتهم
ودمارهم كما أن سيء المزاج لو غذى بما غذى به لايزيده إلا خبالاً
ونقصاً. (٥)

وماذاك إلا لأن الله عز وجل لما علم مرض قلوبهم وخبث نفوسهم
زادهم مرضاً إلى مرضهم (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) (٦) تقدم لما
سينالهم من العذاب الأليم في الآخرة (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون). (٧)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٠٧/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة آل عمران (٣)
باب (منه آيات محكمات) (١) رقم الحديث (٤٥٤٧) ومسلم في صحيحه ٢٠٥٣/٤
كتاب العلم (٤٧) باب النهى عن اتباع متشابه القرآن... (١) رقم الحديث
(٢٦٦٥/١).

(٢) الآيتان ١٢٤-١٢٥ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

(٤) جزء من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٤

(٦) جزء من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٧) جزء من الآية نفسها.

المطلب الثانى

مرض الشهوات

شَهِيَ الشَّيْءَ وَشَهِاهُ شَهْوَةٌ وَاشْتَهَاهُ وَتَشَهَّاهُ: أَحَبَّهُ وَرَغِبَ فِيهِ. (١)
وأصل الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده وذلك في الدنيا ضربان:
صادقة، وكاذبة.

فالصادقة: ما يختل البدن من دونها كشهوة الطعام عند الجوع.
والكاذبة: ما لا يختل من دونها، وقد يسمى المشتهى شهوة وقد يقال
للقوة التى تشتهى الشئ شهوة وقوله: (زين للناس حب الشهوات) (٢)
يحتمل الشهوتين وقوله: (واتبعوا الشهوات) (٣) فهذا من الشهوات الكاذبة
ومن المشتهيات المستغنى عنها، وقيل رجل شهوان وشهواني وشئ شهى. (٤)
وقد جمع الله عز وجل بين مرضي الشبهة والشهوة في قوله تعالى:
(كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولداً فاستمتعوا
بخلقهم فاستمتعتم بخلقكم) (٥) أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها،
والخلق هو النصيب المقدر، ثم قال: (وخضتم كالذى خاضوا) (٦) فهذا
الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من
الاستمتاع بالخلق والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد
الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

(١) اللسان عند مادة (شها) ٤٤٥/١٤

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية ٥٩ من سورة مريم.

(٤) المفردات عند مارة (شها) ص ٢٧٠

(٥) جزء من الآية ٦٩ من سورة التوبة.

(٦) جزء من الآية السابقة نفسها.

فالأول: هو البدع وما والاها.

والثاني: فسق الأعمال.

فالأول: فساد من جهة الشبهات. والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى

قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته ديناه. (١)

وكانوا يقولون كذلك: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن

فتنتهما فتنة لكل مفتون. (٢)

واعلم أن من وجد في نفسه ميلاً إلى الشهوة فهو مريض القلب متبع

لهواه فالهوى هو ميل النفس إلى الشهوة. (٣)

وقد سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية

وفي الآخرة إلى الهاوية. (٤)

وأصل الضلال اتباع الظن وماتهى الأنفس كما قال تعالى فيمن

ذمهم: (إن يتبعون إلا الظن وماتهى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم

الهدى). (٥)

فهذا وصف للكفار فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب

من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب. (٦)

وقد حذر سلف هذه الأمة من مجالسة أهل الأهواء ومصاحبتهم

(١) انظر إغاثة اللهفان ١٦٦/٢-١٦٧

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المفردات عند مادة هوى ص ٥٤٨

(٤) المرجع نفسه.

(٥) جزء من الآية ٢٣ من سورة النجم.

(٦) رسالة بعنوان الهوى وأثره في الخلاف لفضيلة الشيخ عبدالله الغنيان ص (٧).

وذلك لعظم خطرهم قال ابن عباس رضى الله عنهما: "لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب".^(١)
وقال مجاهد: "لا تجالسوا أهل الأهواء فإن لهم عرة^(٢) كعرة الجرب".^{(٣)(٤)}

وقال أبو قلابة:^(٥) "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإنى لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون".^(٦)
وقد ذم الله اليهود لاتباعهم لشهواتهم مما أدى بهم إلى الكفر بالله عز وجل قال تعالى: (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)^(٧) وكما أن اتباع الهوى والشهوات أصل الكفر فهو كذلك أصل لكل معصية لله عز وجل ولكل بدعة.
واعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ماتوجه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً وإضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد

- (١) أخرجه ابن بطه في الإبانة ٤٣٨/٢ برقم (٣٧١).
- (٢) العرة بالضم قروح في أعناق الفصلان وداء يتمعظ منه وبر الإبل واستعرهم الجرب فشافيهم. القاموس المحيط عند مادة (عرب) ص ٥٦٢
- (٣) الجرب: بثر يعلو أبدان الناس والإبل. اللسان عند مادة (جرب) ٢٥٩/١
- (٤) أخرجه ابن بطه في الإبانة ٤٤٢/٢ برقم (٣٨٩).
- (٥) هو عبدالله بن زيد بن عمرو أو عامر بن ناتل بن مالك أبو قلابة الجرمي البصرى كان ثقة إماماً كثير الحديث حدث عن أنس بن مالك وغيره، مات سنة أربع أو خمس ومائة، وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء ٤/٤٦٨، وشذرات الذهب ١٢٦/١
- (٦) أخرجه ابن بطه في الإبانة ٤٣٧/٢ برقم (٣٦٩) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٤/١ برقم (٢٤٤).
- (٧) الآية ٨٧ من سورة البقرة.

من ثلمه، وإما أن تذهب مالا بقاءه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً أو جاهاً قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاءها ألد وأطيب من قضاء الشهوة وإما أن تطرق لوضع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك وإما أن تجلب همّاً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علماً ذكره ألد من نيل الشهوة وإما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لاتزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق. (١)

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشقاء والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغاً في طلب الكمال والفضل كانت ضعفاً وعجزاً ومهانة. (٢)

ومن أعظم الأمراض القلبية الناجمة عن الشهوات مايلي:

أولاً: الكبر:

الكبر بالكسر والكبرياء العظمة والتجبر وقد تكبر واستكبر وتكابر والتكبر والاستكبار: التعظم.

والاستكبار هو الامتناع عن قبول الحق معاندة. (٣)

وهو داء عضال يصيب القلب فيمرضه مرضاً خطيراً قد يورده حمام الموت إن لم يتدارك العبد نفسه بالتوبة والرجوع إلى الله عز وجل وعلاجه بالأدوية النافعة.

(١) انظر الفوائد ص ٢٥٠

(٢) انظر الفوائد ص ٢٥١

(٣) اللسان عند مادة كبر ١٢٧/٤، ١٢٩

وأول من اتصف بهذا الوصف الذميمة إبليس عليه لعنة الله قال تعالى: (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين).^(١)

ثم تبعه على هذا الوصف اتباعه من الطواغيت الجابرة كفرعون وهامان ومن سار على نهجهم، قال تعالى عن فرعون: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق).^(٢)

فكل من كان فيه شيء من هذا الوصف كان له نصيب من مشابعتهم بقدر ما فيه من هذا الوصف الذميمة.

فإذا جامع هذا الوصف الإيمان كان كبيرة من الكبائر لأنه مما توعده الله عز وجل عليه بالنار كما في قوله تعالى: (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين).^(٣)

وإذا باين الإيمان لم يدخل صاحبه الجنة كما في قوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)^(٤) ومن هذا كبر إبليس وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان.^(٥)
ثانياً: الحسد:

حسده يحسده ويحسده حسداً وحسده إذا تنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته أو يسلبها هو.^(٦)

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٧) أن التحقيق أن الحسد

(١) جزء من الآية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٣٩ من سورة القصص.

(٣) جزء من الآية ٦٠ من سورة الزمر.

(٤) جزء من الآية ٦٠ من سورة غافر.

(٥) انظر مجموع الفتاوى ٦٧٧/٧ وما بعدها.

(٦) اللسان عند مادة (حسد) ١٤٨/٣

(٧) انظر مجموع الفتاوى ١١١/١٠ إلى ١٢٥

هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان:
أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقاً فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضاً في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه وإن كان هذا الزوال مؤقتاً، كمن عولج بما يسكن وجعه والمرض باق فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، والحاسد ليس له غرض في شيء معين، لكن نفسه تكره ما أنعم الله به على غيره ولهذا قال من قال: إنه تمنى زوال النعمة فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة ففي الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار". (١)

فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

ومن الحسد المذموم ما ذكره الله عز وجل عن اليهود في قوله: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣/٣٤٦ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب اغتباط صاحب القرآن (٢٠) رقم الحديث (٥٠٢٥) ومسلم في صحيحه ٥٥٨/١ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب فضل من يقوم بالقرآن وتعليمه... (٤٧) رقم الحديث (٨١٥/٢٦٦).

أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) (١) يودون أي يتمنون ارتدادكم حسداً، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ماتبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل، بل مالم يحصل لهم مثله حسدوكم.

وكذلك في الآية الأخرى (أم يحسدون الناس على مآءاتهم الله من فضله فقد ءاتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وءاتيناهم ملكاً عظيماً، فمنهم من ءامن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً). (٢)

فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد. والكاره لتفضيله، المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل.

ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد يعفو ويصفح عنه كما قال تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره). (٣)

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس ولهذا قيل: ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبيده والكريم يخفيه. (٤)

(١) جزء من الآية (١٠٩) من سورة البقرة.

(٢) الآيتان (٥٤-٥٥) من سورة النساء.

(٣) جزء من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١١١/١٠ إلى ١٢٥

ثالثاً: البخل:

البُخْل والبَخْل: لغتان والبَخْل والبُخول: ضد الكرم.^(١)

والبخل هو إمساك المقتنيات عمالاً يحق حبسها عنه ويقابله الجود،

والبخيل الذي يكثر من البخل وهو نوعان:

بخل بقتيات نفسه. وبخل بقتيات غيره وهو أكثرهما ذمّاً، ودليلنا على ذلك

قوله تعالى: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل).^(٢)(٣)

والبخل المنهى عنه في هذه الآية يعم جميع أنواع الإحسان والبر

وبذل المال في وجوه الخير وليس مخصوصاً بنوع واحد منها كما يبين ذلك

سياق الآيات حيث إنه نهى عنه بعد أن ذكر الله عز وجل العبادة وعدم

الشرك والإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين وابن

السبيل فكل من منع المال أن ينفق في وجوهه المشروعة وكل من كتم علماً

حمله أو قصر في بر الوالدين والإحسان إليهما أو الإحسان إلى الفقراء

والمساكين وذوى الحاجات فهو بخيل داخل في الآية وكل من أمر غيره

بشيء من ذلك فهو أيضاً داخل في الآية.^(٤)

ويصح أيضاً إن يقال إن السياق في البخل بالمال وإن كان البخل

بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب

والضعفاء وكذا الآية التى بعدها وهى قوله تعالى: (والذين ينفقون أموالهم

رئاء الناس) فذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين

(١) اللسان عند مادة (بخل) ٤٧/١١

(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة النساء.

(٣) المفردات عند مادة (بخل) ص ٣٨

(٤) انظر جامع البيان ٨٥/٥ إلى ٨٧، وتفسير القرآن العظيم ٢٦٥/٢-٢٦٦، وتفسير

المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم ولا يريدون بذلك وجه الله. (١)

واعلم أن البخل مرض خطير قد يوصل إلى نتائج لائحمد عقباها قال تعالى: (ومنهم من عهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبتهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون). (٢)

فانظر إلى عاقبة البخل السيئة نفاق ملازم لصاحبه إلى أن يلقي الله - وبعد ذلك (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة). (٣)

فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان" (٤) يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعنى بشدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كترك، ثم تلا هذه الآية: (ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله) إلى آخر الآية " (٥) (٦)

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، فحملهم على أن يسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم". (٧)

-
- (١) وهذا هو الذى اختاره ابن كثير رحمه الله. انظر تفسير القرآن العظيم ٢٦٦/٢
 (٢) الآيات ٧٥-٧٧ من سورة التوبة.
 (٣) جزء من الآية ١٨٠ من سورة آل عمران.
 (٤) زبيبتان: الزبيبة نكتة سوداء فوق عين الحية وقيل هما نقطتان تكتنفان فاها وقيل هما زبدتان في شدقيها. انظر النهاية ٢٩٢/٢ مادة (زيب).
 (٥) الآية (١٨٠) من سورة آل عمران.
 (٦) أخرجه البخارى في صحيحه ٢١٢/٣ كتاب التفسير ٦٥ سورة آل عمران (٣) باب (ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله) رقم الحديث ٤٥٦٥
 (٧) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٩٦/٤ كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب تحريم الظلم (١٥) رقم الحديث (٢٥٧٨/٥٦).

رابعاً: العشق:

العشق فرط الحب^(١) وهو مذموم مطلقاً ولا يستعمل في العرف إلا في محبة الإنسان لامرأة أو صبي مقرون بالفعل المحرم من نظر أو لمس أو غير ذلك من الأفعال المحرمة.

ولا يطلق في حق الله تعالى فلا يقال إنه يعشق ولا يقال عشقه عبده.^(٢) ولا يطلق كذلك في محبة الأنبياء والصالحين أو الأهل أو المال. والعشق مرض فتاك يفسد دين صاحبه وعرضه ثم هو يفسد عقله وجسمه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فأصحاب العشق الشيطاني لهم من تولى الشيطان والإشراك به بقدر ذلك، لما فيهم من الإشراك بالله ولما فاتهم من الإخلاص له، ففيهم نصيب من اتخاذ الأنداد، ولهذا ترى كثيراً منهم عبداً لذلك المعشوق متيمماً فيه، يصرح في حضوره ومغيبه: أنه عبده، فهو أعظم ذكراً له من ربه، وحبه في قلبه أعظم من حب الله فيه، وكفى به شاهداً بذلك على نفسه (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره)^(٣) فلو خير بين رضاه ورضا الله لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه، ويسخط ربه بمرضاة

(١) اللسان عند مادة (عشق) ٢٥١/١٠

(٢) وسبب ذلك أمران:

الأول: لعدم ورود النص به.

الثاني: أن العشق إفراط في المحبة والله تعالى لا يوصف بالإفراط في الشيء ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلاً عن أن يقال أفرط في حبه. انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ٢٨

(٣) سورة القيامة الآيتان (١٤-١٥).

معشوقه ويقدم مصالح معشوقه وحوائجها على طاعة ربه فإن فضل من وقته فضلة وكان عنده قليل من إيمان صرف تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها وأهمل أمر الله تعالى، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله - إن جعل له - كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه، وهمه ووقته، وخالص ماله، وربّه على الفضلة، قد اتخذ وراءه ظهرياً وصار لذكره نسياً، إن قام إلى الصلاة فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، ووجهه بدنه إلى القبلة ووجه قلبه إلى المعشوق... (١)

وقد قال تعالى: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً) (٢) ومن في قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض والطمع يقوى الإرادة والطلب، ويقوى المرض بذلك بخلاف ما إذا كان آيساً من المطلوب فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه فلا يكون مع الإرادة عمل أصلاً، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك. (٣)

والله عز وجل إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز وكانت مشركة على دين زوجها وكانوا مشركين. (٤)

وحكاه عن قوم لوط عليه الصلاة والسلام وكانوا

(١) انظر اغاثة اللهفان ١٥١/٢-١٥٢، الداء والدواء ص ٢٥٤

(٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.

(٣) انظر الفتاوى ١٣١/١٠-١٣٢

(٤) كما في سورة يوسف في قوله تعالى: (ورودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت

الأبواب وقالت هيت لك) (يوسف: ٢٣) وقوله تعالى: (وقال نسوة في المدينة

امرات العزيز ترود فتها عن نفسه قد شغفها حباً) (يوسف: ٣٠).

مشركين. (١)

وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص فقال تعالى: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) (٢)(٣)
وأما محبة الزوجة والأولاد وغير ذلك من أنواع المحبة المباحة فإنها لاتسمى عشقاً ولا دخل لها بمرض القلب بل إنها من تمام صحة القلب وكماله.

واعلم أنه لا يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق:
أحدهما: إنايته إلى الله ومحبه له فإن ذلك ألد وأطيب من كل شيء فلاتبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

الثاني: خوفه من الله فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه. (٤)

خامساً: الظلم:

الظلم وضع الشيء في غير موضعه (٥) المختص به إما بنقصان أو زيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه. (٦)

وهو يقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير ولذلك قيل لآدم عليه الصلاة والسلام في تعديه

(١) كما في قصة قوم لوط التي ذكرت في عدد من سور القرآن الكريم.

(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة يوسف.

(٣) انظر إغاثة اللهفان ١٥٠/٢، والداء والدواء ص ٢٥٠ إلى ٢٥٣

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٣٥/١٠-١٣٦

(٥) اللسان عند مادة (ظلم) ٣٧٣/٢

(٦) المفردات عند مادة (ظلم) ص ٣١٥

ظالم^(١) ولإبليس ظالم^(٢) وإن كان بين الظلمين بون بعيد^(٣).
والظلم ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك
والنفاق، ولذلك قال تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم)^(٤) وإياه قصد بقوله
تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)^(٥) (والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً)^(٦)
وقال أيضاً: (فمن أظلم ممن كذب على الله).^(٧)

وقد أخرج البخارى رحمه الله عن ابن مسعود رضى الله عنه قال:
"لما نزلت (الذين آمنوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم)^(٨) قال أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم: أينما لم يَظْلَم؟ فأنزل الله (إن الشرك لظلم عظيم).^(٩)
الثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: (وجزاء
سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين)^(١٠)

- (١) كما في قوله تعالى: (ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) (البقرة: ٣٥)
وقوله تعالى: (قالاربنا ظلمنا أنفسنا) (الأعراف: ٢٣).
- (٢) كما في قوله تعالى: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... وذلك جزاء
الظالمين) (الحشر: ١٦-١٧).
- (٣) انظر المفردات عند مادة (ظلم) ص ٣١٥ والظلم أنواع متغايرة وقد بوب البخارى
باب ظلم دون ظلم (٢٣) كما في كتاب الإيمان (٢) ٢٧/١
- (٤) جزء من الآية ١٣ من سورة لقمان.
- (٥) جزء من الآية ١٨ من سورة هود.
- (٦) جزء من الآية ٣١ من سورة الإنسان.
- (٧) جزء من الآية ٣٢ من سورة الزمر.
- (٨) جزء من الآية ٨٢ من سورة الأنعام.
- (٩) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٧/١ كتاب الإيمان (٢) باب ظلم دون ظلم (٢٣)
رقم الحديث (٣٢).
- (١٠) الآية (٤٠) من سورة الشورى.

وبقوله تعالى: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) ^(١) وبقوله تعالى: (وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا) ^(٢)

وهو الذى عناه رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله: "من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طوقه من سبع أرضين" ^(٣)

ومن أكبر الظلم اليمين الفاجرة على حق عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار" قيل يارسول الله وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: "وإن كان قضيباً من أراك" ^(٤) ويدخل في هذا الباب الغال ^(٥) وجاحد الدين والمكاس ^(٦) وقاطع الطريق والسارق والخائن ومن استعار شيئاً فجحده ومن طفف الوزن والكيل ومن التقط مالاً فلم يُعَرِّفْهُ ومن باع شيئاً فيه عيب فغطاه والمقامر وغير ذلك ^(٧)

الثالث: ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله تعالى: (فمنهم ظالم لنفسه) ^(٨) وقوله تعالى: (قال رب إني ظلمت نفسي) ^(٩) وقوله تعالى:

-
- (١) جزء من الآية ٤٢ من سورة الشورى.
 - (٢) جزء من الآية ٣٣ من سورة الإسراء.
 - (٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١٩/٢ كتاب بدء الخلق (٥٩) باب ما جاء في سبع أرضين (٢) رقم الحديث ٣١٩٥ ومسلم في صحيحه ١٢٣٢/٣ كتاب المساقاة (٢٢) باب تحريم الظلم... (٣٠) رقم الحديث (١٦١٢/١٤٢).
 - (٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١٢٢/١ كتاب الإيمان (١) باب وعيد من اقتطع حق مسلم (٦١) رقم الحديث (١٣٧/٢١٨).
 - (٥) الغال: الغلول هو الخيانة في المغمم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. انظر النهاية ٣٨٠/٣ مادة (غلل).
 - (٦) المكس: الجباية وفاعله مكاس وقد غلب استعمال المكس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع والشراء. انظر المصباح المنير عند مادة (مكس) ص ٢٢٠.
 - (٧) انظر الكبائر للذهبي ص ٨٨.
 - (٨) جزء من الآية ٣٢ من سورة فاطر.
 - (٩) جزء من الآية ١٦ من سورة القصص.

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله) (١) وقوله تعالى: (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه). (٢)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها فإذا زاحمتها حقوق ربه فتارة وتارة فمرة يأخذ بالرخصة، ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة، فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالشواب والعقاب فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسارانه وحصل ربحه وحده وخسارانه وحده، وكان الحكم للجراح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله. (٣)

وكل هذه الأنواع الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس فإن الإنسان بمجرد همه بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا الظالم أبداً مبتدئ في الظلم ولهذا قال تعالى: (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) (٤) وقال كذلك: (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). (٥) (٦)

ولعل ما ذكرت من الأمثلة فيه الكفاية فإن طول هذا الموضوع لا يسمح بالتوسع في مباحثه.

(١) جزء من الآية ٦٤ من سورة النساء.

(٢) جزء من الآية ٢٣١ من سورة البقرة.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتین ص ٣١٣

(٤) جزء من الآية ١١٧ من سورة آل عمران.

(٥) جزء من الآية ٥٧ من سورة البقرة.

(٦) انظر المفردات عند مادة (ظلم) ٣١٦

ومن الأمراض القلبية ما يشترك كل من الشبهات والشهوات في إثارتها وتقويتها
وفيما يلي سأتكلم على أحدها: وهو الجهل.

والجهل نقيض العلم.^(١)

وهو على ثلاثة أضرب:

الأول: خلو النفس من العلم وهذا النوع يسهل التخلص منه وصاحبه
لا يجادل ولا يمارى بل تجده يطلب الحق ويقبله ويعمل به.

وقد تجاوز الله عز وجل لهذه الأمة ماعلمته من مخالفة شرعية إذا
كان سبب ذلك خلو النفس من العلم قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله
تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".^(٢)

وهذا النوع هو المعنى بقوله تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف
تعرفهم بسيمئهم)^(٣) أى من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف
حالهم أنهم أغنياء.^(٤)

وهذا النوع هو أحد أسباب مرض القلب وسيأتى الكلام عليه في
موضعه بإذن الله عز وجل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. وهذا النوع ناتج عن مرض
الشبهات.

كمن يؤول صفات الله عز وجل فيرى مثلاً أن اليد في قوله تعالى:
(لما خلقت بيدي)^(٥) بمعنى القوة ويعتقد صحة ذلك متأثراً بشبهات أهل

(١) اللسان عند مادة جهل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن ٦٥٩/١ كتاب الطلاق (١٠) باب طلاق المكروه
والناسي (١٦) رقم الحديث (٢٠٤٣) وصححه الشيخ الألبانى في صحيح ابن ماجه
٣٤٧/١ برقم (١٦٦٢).

(٣) جزء من الآية (٢٧٣) من سورة البقرة.

(٤) معالم التنزيل ٢٥٩/٣

(٥) جزء من الآية ٧٥ من سورة ص.

الكلام، وهذا النوع هو ما يطلق عليه (الغى) وهو الضلال والحيية.
قال صاحب المفردات: الغى جهل من اعتقاد فاسد^(١) قال تعالى:
(والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى).^(٢)
فذكر أولاً عموم الضلال ثم خصص الجهل الناتج عن الشبهات ثم
الجهل الناتج عن الشهوات والأهواء.
الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواءً اعتقد فيه اعتقاداً
صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة متعمداً ومن ذلك قوله تعالى: (قالوا
أنتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين).^(٣)
وهذا الضرب قد يكون ناتجاً عن شهوة أو عن شبهة أو قد يكون
ناتجاً عنهما معاً. فمثال الأول قوله تعالى: (أأنتم لتأتون الرجال شهوة من
دون النساء بل أنتم قوم تجهلون).^(٤)
وقوله تعالى: (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم
جهلون).^(٥) فإتيان قوم لوط الرجال شهوة من دون النساء وما فعله إخوة
يوسف به إنما كان مصدره الهوى والتشهي بدليل قوله تعالى في قوم لوط
بعد أن وعظهم نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام (فما كان جواب قومه إلا
أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون).^(٦)

(١) المفردات عند مادة (غوى) ص ٣٦٩

(٢) الآيات ١-٣ من سورة النجم.

(٣) جزء من الآية ٦٧ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٥٥ من سورة النمل.

(٥) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

(٦) الآية ٥٦ من سورة النمل.

وبدليل قول أخى يوسف لإخوته (ألم تعلموا أن قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) ^(١) ومثال ما كان عن شبهة ماتقدم من تعطيل أهل الكلام لأسماء الله عز وجل وصفاته، ومثال ما كان عن كليهما قوله تعالى: (فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة) ^(٢) أى بشبهة أو بشهوة من طلب مال أو رئاسة أو سمعة أو غير ذلك.

(١) جزء من الآية ٨٠ من سورة يوسف.

(٢) جزء من الآية ٦ من سورة الحجرات.

المبحث الثاني المرض الذي يتألم به صاحبه في الحال

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الحزن والهم والغم.

المطلب الثاني: الغضب.

المطلب الثالث: الغيظ.

المطلب الأول

الحزن والهم والغم

وهذه الأمراض الثلاثة متقاربة المعنى إلا أن بينهما فروقاً دقيقة فالحزن نقيض الفرح^(١)، والحزن والحزن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم^(٢).

وهو قرين الهم فكلاهما الألم الوارد على القلب إلا أن الحزن يطلق على ما كان لأمر مضى والهم على ما كان على ما يستقبل ولهذا قرنا في قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن"^(٣)؛^(٤) وأما الغم فهو الألم الذى يصيب القلب من الأمر الذى يسوء وإن لم تتبين حقيقته أو سببه أو لا يدرى كيف يكون المخرج منه فإن المادة تدل على معنى الخفاء يقولون غم الشيء إذا أخفاه وغم الهلال على الناس غما: ستره الغيم وغيره فلم يُرَ.^(٥)

فالغم إذاً حال مؤذية للنفس سريعة الزوال^(٦).
وأما الحزن فهو الألم الذى يكون بعد ذلك ويستمر زمناً^(٧).
وهذه الأمراض تمنع القلب من سيره وتشميره إلى الله.

- (١) اللسان عند مادة (حزن) ١١١/١٣
- (٢) المفردات عند مادة (حزن) ص ١١٥
- (٣) أخرجه البخارى في صحيحه ١٦٥/٤ كتاب الدعوات (٨٠) باب التعوذ من غلبة الرجال (٣٦) برقم (٦٣٦٣).
- (٤) انظر طريق الهجرتين ص ٤٦٠
- (٥) اللسان عند مادة (غمم) ٤٤٢/١٢
- (٦) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزى باب الغم ص ٤٥٤-٤٥٥
- (٧) انظر تفسير المنار ١٨٤/٤

فالحزن مثلاً نهى الله عز وجل عنه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)^(١) وقوله: (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون)^(٢) وقوله: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)^(٣) وقوله: (ولا يحزنك قولهم)^(٤) وقوله: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)^(٥) وأمثال ذلك كثير. وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه بل هو من الشيطان لابن آدم قال تعالى: (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين ءامنوا)^(٦) نعم لا يأتى صاحبه إذا لم يقتنر بحزنه محرم كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يعذب بدمع العين ولا يحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار بيده إلى لسانه أو يرحم"^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم: "إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا"^(٨) ومنه قوله تعالى: (وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم)^(٩) بل قد يقتنر

(١) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران.

(٢) جزء من الآية ١٢٧ من سورة النحل.

(٣) جزء من الآية ٤٠ من سورة التوبة.

(٤) جزء من الآية ٦٥ من سورة يونس.

(٥) جزء من الآية ٢٣ من سورة الحديد.

والأسى: الحزن. المفردات عند مادة (أسا) ص ١٨

(٦) جزء من الآية (١٠) من سورة المجادلة.

(٧) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١٢/١ كتاب الجنائز (٢٣) باب البكاء عند المريض

(٤٤) رقم الحديث (١٣٠٤) ومسلم في صحيحه ٦٣٦/٢ كتاب الجنائز (١١) باب

البكاء على الميت (٦) رقم الحديث (٩٢٤/١٢).

(٨) أخرجه البخارى في صحيحه ٤١١/١-٤١٢ كتاب الجنائز (٢٣) باب قول النبي

صلى الله عليه وسلم "إننا بك لمحزونون" (٤٣) رقم الحديث (١٣٠٣).

(٩) الآية ٨٤ من سورة يوسف.

بالحزن ما يثاب صاحبه ويحمد عليه من تلك الجهة لا من جهة الحزن كمن يحزن على مصيبة في الدين أو على مصائب المسلمين عموماً فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك وأما إذا اقترن بمحرم كترك الصبر والجزع وشق الجيوب ولطم الخدود فإن هذا مما يآثم فاعله^(١) ومثل الحزن شقيقاه الهم والغم.

المطلب الثاني

الغضب

الغضب نقيض الرضا. (٢)

وقد عرفه الراغب بأنه ثوران دم القلب إرادة الانتقام. (٣)

والله عز وجل يوصف بأكمله وأعلاه إثباتاً بلا تمثيل وتزيها بلا

تعطيل على حد قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير). (٤)

قال تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خلداً فيها

وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً). (٥)

وقال تعالى: (يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله

عليهم) (٦) والغضب على نوعين:

غضب محمود وهو ما كان لله عز وجل إذا انتهكت محارمه.

وغضب مذموم وهو المراد هنا وهو مرض من الأمراض القلبية يتألم

به صاحبه في الحال فتصاحبه كثير من الأفعال والأقوال والأوصاف الذميمة

من تغير في اللون وكسر للآنية وإهراق للطعام وسب وشم حتى لو رأى

الغضبان نفسه في حال غضبه لذهب غضبه حياء من قبح صورته واستحالة

خلقه هذا في الظاهر وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر فهو يولد الحقد في

القلب والحسد وإضرار السوء على اختلاف أنواعه. (٧)

(٢) اللسان عند مادة (غضب) ٦٤٨/١

(٣) المفردات مادة (غضب) ص ٣٦١

(٤) جزء من الآية (١١) من سورة الشورى.

(٥) الآية ٩٣ سورة النساء

(٦) جزء من الآية ١٣ سورة الممتحنة.

(٧) انظر فتح الباري ٥٢٠/١٠

ولذلك لما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أوصني قال: "لاتغضب" فردد مراراً، قال: "لاتغضب" (١)

قال الخطابي: معنى قوله لاتغضب هو أن يحذر أسباب الغضب وأن لا يتعرض للأمور التي تجلب عليه الضجر فتغضبه، فأما نفس الغضب فطبع في الإنسان لا يمكنه نزعة وإخراجه من جبلته، وقد يكون معنى قوله: لاتغضب أى: لاتفعل ما يأمرك به الغضب ويحملك عليه من القول والفعل.

وقد قيل: إن أعظم أسباب الغضب الكبر، وإنما يغضب الإنسان لما يتدخله من الكبر عندما يخالف في أمر يريده أو يعارض في شيء يهواه فيحمله الكبر على الغضب لذلك فإذا تواضع وذل في نفسه ذهب عنه عزة النفس وماتت سورة الغضب فلم يأذن الله من شره. (٢)

(١) أخرجه البخارى ١١٢/٤ كتاب الأدب (٧٨) باب الحذر من الغضب (٧٦) رقم الحديث (٦١١٦).

(٢) أعلام الحديث ٢١٩٧/٣

المطلب الثالث

الغيظ

الغيظ هو أشد الغضب^(١) قال تعالى: (قل موتوا بغيظكم)^(٢) وقال كذلك (ليغيظ بهم الكفار)^(٣) وهو عبارة عن ألم وانفعال نفسي قوي لا يندفع ولا يكظم إلا بقوة روحية من التقوى المسيطرة على النفوس.^(٤) وقد يدفع الانتقام للغيظ أحياناً إلى تجاوز حد الاعتدال ولذلك أمر الله عز وجل بكظم الغيظ والعفو عن المسيء^(٥) قال تعالى: (والكظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).^(٦)

والغيظ ألم يصيب القلب يزعجه ويؤرقه ويقعده عن السير إلى الله عز وجل وينغص عليه عباداته وقد يكون سببه ظلم وقع على المرء فلا يزول هذا المرض إلا بزوال سببه وهو كشف هذا الظلم وأخذ حق المظلوم قال تعالى: (قتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم)^(٧) والله تعالى أعلم.

-
- (١) اللسان عند مادة (غيظ) ٤٥٠/٧ وانظر المفردات عند نفس المادة ص ٣٦٨
 (٢) جزء من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.
 (٣) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.
 (٤) انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للدوسري ٣٢٧/٤
 (٥) وهذا فيما يتعلق بالأمور الدنيوية فقط وأما الغضب إذا انتهكت محارم الله عز وجل والانتقام لحدوده تبارك وتعالى إذا تُعدى عليها فهو أمر واجب شرعاً وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها" أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٨/٢) كتاب المناقب (٦١) باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٠) ومسلم ١٨١٣/٤ كتاب الفضائل (٤٣) باب مبادئه صلى الله عليه وسلم للأثم... (٢٠) رقم الحديث (٢٣٢٧/٧٧) وانظر صفوة الآثار ٣٢٧/٤
 (٦) جزء من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
 (٧) الآية ١٤ وجزء من الآية ١٥ من سورة التوبة.

الفصل الثاني أسباب مرض القلب

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: أسباب عامة.

المبحث الثاني: أسباب خاصة.

تمهيد:

اعلم بأن الله عز وجل قد يصيب المرء بما قد يؤدي إلى سقم قلبه ابتلاءً وامتحاناً ليظهر المؤمن الحق من غيره قال تعالى: (وليبتلي الله مافي صدوركم وليلمحص مافي قلوبكم)^(١) وقال تعالى: (ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)^(٢) وقال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)^(٣) وقال تعالى: (ولنبلونكم حتى نعلم المجتهدين منكم والصبرين ونبلو أخباركم)^(٤) وقال تعالى: (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)^(٥)

والمعنى: أن الناس لا يتركون دون فتنة أى ابتلاء واختبار، لأجل قولهم آمنا، بل إذا قالوا آمنا فتنوا أى امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمنا من غير الصادق.^(٦)

وقد بينت السنة الثابتة أن هذا الابتلاء المذكور في هذه الآية يبتلى به المؤمنون على قدر ما عندهم من الإيمان فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة

(١) جزء من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

(٢) جزء من الآية ١٧٩ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٣١ من سورة محمد.

(٥) الآيات ١-٣ من سورة العنكبوت.

(٦) أضواء البيان ٦/٤٦١

هون عليه فما يزال كذلك حتى يمشي على الأرض ماله من ذنب" (١)(٢) وسأذكر بإذن الله عز وجل فيما يلي أمثلة لبعض هذه الابتلاءات الربانية ومواقف الخلق من ذلك:

منها ما جاء في قوله تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملئكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتب ويزداد الذين ءامنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكفرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر). (٣)

قال ابن كثير رحمه الله:

(وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس (ليستيقن الذين أوتوا الكتب) أي: يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزل على الأنبياء قبله (ويزداد الذين ءامنوا إيماناً) أي: إلى إيمانهم، أي: بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتب والمؤمنون، وليقول الذين في قلوبهم مرض) أي: من المنافقين (والكفرون) ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ أي يقولون: ما الحكمة في

(١) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٦٠١/٤-٦٠٢ كتاب الزهد (٣٧) باب ما جاء في الصبر على البلاء (٥٦) رقم الحديث (٢٣٩٨) وقال هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه في السنن ١٣٣٤/٢ كتاب الفتن (٣٦) باب الصبر على البلاء (٢٣) رقم الحديث (٤٠٢٣) وصححه الشيخ الألبانى في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣).

(٢) انظر أضواء البيان ٤٦٢/٦

(٣) الآية ٣١ من سورة المدثر.

ذكر هذا هاهنا؟ قال الله تعالى: (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. (١)

فكان ذكر عدة الملائكة الموكلين بالنار سبباً لتفاقم مرض قلوب الزائعين عن الحق بالشبهة الحاصلة من ذلك وسبباً لثبات الإيمان وتأكيدهِ في قلوب أهل الحق لقوة يقينهم وإيمانهم.

قال ابن القيم رحمه الله: وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتن به كفر أو جحوداً وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يرد به. (٢)

ومنها قوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب). (٣)

في هذه الآية الكريمة يبين الله عز وجل سنة من سننه الكونية التي لا تتبدل ألا وهي ابتلاء المؤمنين بصعوبة الطريق إلى نيل رضاه وشدة العقبات التي تقف أمام ذلك حيث يوضع المؤمن في الوضع الذي يحيط به الكفار غالبين منتفشين بباطلهم، ضاغطين بكل قوتهم، ويلتفت حوله - وهو صاحب الحق - فلا يجد قوة واحدة في الأرض تنقذه من بين براثنهم، فيلجأ إلى الله وحده ويتطلع إليه وحده ويتعلق به وحده ويعلم أنه لن ينقذه منهم إلا هو وحده حين يقرر سبحانه بمشيئته وحده (٤) كما

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٩٤/٨ - ٢٩٥

(٢) إغاثة اللهفان ١٥/١

(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٤) انظر حول التفسير الإسلامي للتاريخ لمحمد قطب ص ١١٢ - ١١٣

حدث مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب يقول تعالى مصوراً لنا ذلك الابتلاء العظيم الذي محص به عباده المؤمنين في خير القرون (يأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً). (١)

وأمام هذا الابتلاء يظهر المؤمنون الثابتون ويكون قولهم (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً). (٢)

وأما أولئك المزعزعون فإن هذه المواقف تكشف خبايا نفوسهم وتزيدهم مرضاً إلى مرضهم ووهناً إلى وهنهم (وإذ يقول المنفقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً). (٣)

ومما هو معلوم أن هؤلاء الذين لا يشبتون أمام هذه الابتلاءات الربانية قد كانت قلوبهم تعاني قبل عرضها على هذه الفتن من بعض الأمراض كضعف اليقين أو الجهل أو غير ذلك فأدت هذه الابتلاءات إلى تفاقم هذه الأمراض وتمكنها وحصول أمراض جديدة في قلوب أصحابها إضافة إلى أمراضهم السابقة قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كفرون). (٤)

(١) الآيات ٩-١١ من سورة الأحزاب.

(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ١٢ من سورة الأحزاب.

(٤) الآيتان ١٢٤-١٢٥ من سورة التوبة.

ومنها أيضاً قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متع الحيوة الدنيا والله عنده حسن المئب).^(١)

في هذه الآية يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة^(٢) والأنعام والحرث، فكانت هذه الأمور فتنة لبعض الناس فغلوا في حبها حتى وصلوا إلى درجة العشق لها فسقمت قلوبهم وتكدرت أرواحهم، فكم من مفتون بالنساء والأولاد لم يع، قوله تعالى: (يأيتها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم)^(٣) فترك كثيراً من شعائر الدين اتباعاً لهواه.^(٤)

وكم من مفتون بالمال من ذهب وفضة وغير ذلك لم يع قوله تعالى: (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون).^(٥) فبخلوا بما آتاهم الله

(١) الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٢) الخيل المسومة: المعلمة، وقيل المرسله وعليها ركبائها. انظر اللسان عند مادة (سوم) ٣١٢/١٢

(٣) جزء من الآية ١٤ من سورة التغابن.

(٤) وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من فتنة النساء التي هي أعظم هذه الفتن ولهذا قدمت في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم: "ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء" أخرجه البخارى في صحيحه ٣٦١/٣ كتاب النكاح

(٦٧) باب ما يتقى من شؤم المرأة... (١٧) رقم الحديث (٥٠٩٦) ومسلم في صحيحه ٢٠٩٧/٤ كتاب الرقاق (٤٨) باب أكثر أهل الجنة الفقراء... (٢٦) رقم الحديث

(٢٧٤٠/٩٧) وانظر تفسير القرآن العظيم ١٤/٢ وصفوة الآثار والمفاهيم ٦٠/٤

(٥) جزء من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة التوبة.

من فضله بعد أن كانوا يسألون الله عز وجل الرزق ويعدون بالإلفاق إن هم رزقوا فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعده و بما كانوا يكذبون.

فهذه الأمور المذكورة في الآية هي من نعم الله عز وجل التي شرع التلذذ بها في الدنيا كما أمر من غير إفراط ولا تفريط وفي الوقت نفسه هي فتنة لمن خالف منهج الله عز وجل تورده في الدنيا الهم والغم والعشق وغير ذلك من الأسقام القلبية وتورده في الآخرة الهاوية.

ومنها أيضاً قوله تعالى: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصّيرين).^(١)

وهذا ابتلاء بالمصائب والنكبات فأما المؤمن الحق الثابت القلب فإنه سوف يتحلى بالصبر وخاصة عند الصدمة الأولى كما قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى".^(٢)

وأما الضعيف القلب المززعج الإيمان فإن هذه الإبتلاءات سوف تورثه الهم والغم والحزن فإن لم يحقق التوازن كما هو شأن المؤمن الحق فإنها ستزيد إيمانه وهنا وقلبه ضعفاً وقد يزيغ بها عن طريق الحق بالكلية كما قال تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).^(٣)

(١) الآية ١٥٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٩٥/١ كتاب الجنائز ٢٣ باب زيارة القبور (٣١) رقم الحديث (١٢٨٣) ومسلم في صحيحه ٦٣٧/٢-٦٣٨ كتاب الجنائز (١١) باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٨) رقم الحديث (٩٢٦/١٥).

(٣) الآية ١١ من سورة الحج.

وقد أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (ومن الناس من يعبد الله على حرف) قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وولدت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.^(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل سبب مما سأذكره يصح أن يقال عنه إنه إبتلاء وفتنة كما قال تعالى: (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما ل هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً).^(٢) ولكن هذا لا يخلو مسؤولية المفتون من الخلق ولهذا جاء في الآية التى تليها (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)^(٣) وفيما يلى سأتكلم عن أسباب مرض القلب العامة والخاصة وذلك فيما أرى والله الموفق.

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٦٢/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة الحج (٢٢) باب

وترى الناس سكارى (١) رقم الحديث ٤٧٤٢

(٢) جزء من الآية ٧٨ من سورة النساء.

(٣) جزء من الآية ٧٩ من سورة النساء.

المبحث الأول الأسباب العامة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مكائد إبليس اللعين - أخزاه الله -.

المطلب الثاني: الجهل وضعف البصيرة.

المطلب الثالث: الهوى المتبع.

المطلب الأول

مكائد إبليس اللعين أخزاه الله

لقد حذرنا ربنا تبارك وتعالى من خطورة هذا المخلوق اللعين وشدة كيدِه لأبناء آدم عليه السلام حسداً وبغياً فقال تعالى ذكره ذاكراً لقول الشيطان: (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شكرين).^(١) وقد ذكر المفسرون أوجهاً في نصب (صراطك) منها: أنه منصوب على أنه مفعول به لأن الفعل قبله وإن كان قاصراً فقد ضمن معنى فعل متعدٍ والتقدير (لألزم صراطك المستقيم بقعودي عليه).^(٢) فالشيطان الرجيم إذاً ملازم لسبل الخير يصد الناس عنها.

وكلما كان العمل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر وأقوى ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن عفريتاً من الجن تفلّت على البارحة -أو كلمة نحوها- ليقطع على الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان (رب أغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى)".^{(٣)(٤)}

ومن المعلوم أن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته فهى مركبة وموضع شره ومحل طاعته.^(٥)

(١) الآيتان ١٦-١٧ من سورة الأعراف.

(٢) انظر الدر المصون ٢٦٨/٥

(٣) جزء من الآية ٣٥ من سورة ص.

(٤) رواه البخارى في صحيحه ١٦٥/١ كتاب الصلاة (٨) باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد (٧٥) رقم الحديث (٤٦١).

(٥) انظر إغاثة اللهفان ٩٠/١

فهو عليه لعنة الله لا ينفك يلقي بالشبهة أو يدعو إلى الشهوة أو يهوى لذلك قال تعالى: (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم). (١)

وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته". (٢)

وقال تعالى: (إن يدعون من دونه إلا إنثاً وإن يدعون إلا شيطناً - مريداً لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعم ولأمرنهم فليغيرون خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدمهم ويمينهم وما بعدهم الشيطان إلا غروراً). (٣) وحقيقة الفرض التقدير والمعنى أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه فالتاس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله (ولأضلنهم) يعنى عن الحق.

وقوله (ولأمنينهم) أى بتسويق التوبة وقيل المراد أنه لاجنة ولا نار ولا بعث وقيل بركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع.

وقوله (فليغيرون خلق الله) أى دين الله وهو قول ابن عباس

ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى والضحاك وإبراهيم. (٤)

(١) جزء من الآية ٥٣ من سورة الحج.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٥

(٣) الآيات ١١٧-١٢٠ من سورة النساء.

(٤) وقد أخرج هذه الآثار عنهم ابن جرير في تفسيره ٢٨٣/٥-٢٨٤

فجمعت الآية بين تغيير الفطرة التي هي دين الله عز وجل وتغيير الخلقه بالجدع وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما. ثم قال تعالى: (يعدهم ويمنيهم) فوعده مايصل إلى قلب الإنسان نحو سيطول عمرك وتنال من الدنيا أربك^(١) وستعلو على أقرانك وتظفر بأعدائك والدنيا دول ستكون لك كما كانت لغيرك وسيطول أمله ويعدده بالحسنى على شركه ومعاصيه ويمنيه الأمانى الكاذبة على اختلاف وجوهها. والفرق بين وعده ومنيته أنه يعد الباطل ويمني المحال.

ومن تأمل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلقين بوعده ومنيته وهم لا يشعرون. والنفس المهينة التى لاقدرة لها تغتذى بوعده ومنيته فهى تلتذ بالأمانى الباطلة والوعود الكاذبة وتفرح بها كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان ومنيته فإنه يبنى أصحابها بالظفر بالحق وإدراكه ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه فكل مبطل فله نصيب من قوله تعالى (يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا).^(٢)

وقال تعالى: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم).^(٣)

والفحشاء فى الآية على بابها وهى كل فاحشة فهى صفة لموصوف محذوف فحذف موصوفها إرادة للعموم: أى بالفعللة الفحشاء والخلة الفحشاء.^(٤) فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره فهو يعد بالفقر مخوفاً به

(١) الأرب والإرب والإربة والمأربة الحاجة. انظر النهاية ٣٦/١ مادة (أرب).

(٢) انظر إغاثة اللهفان ١٠٥/١ إلى ١٠٧

(٣) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة.

(٤) ولاختص الفاحشة فى هذه الآية بالبخل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

وإن كان البخل يدخل فى الآية دخولاً أولياً.

المتصدقين ويأمر بكل منكر وقبيح وهذا كل ما يريده الشيطان من الإنسان فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها. (١) وأول كيد الشيطان ومكره أن كاد للأبوين بالإيمان الكاذبة أنه ناصح لهما وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة قال تعالى: (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدللهما بغرور). (٢)

فقد علم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة فقد عصيا والمعصية تهتك الستر الذى بين المؤمن وبين الله فلما عصيا هتك ذلك الستر فبدت لهما سوءاتهما فالمعصية تبدى السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوءاتهم. (٣) فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يوارى العورة ويستترها، ولباساً باطنياً من التقوى يجمع العبد ويستتره فإذا أزال عنه هذا اللباس أنكشفت عورته الباطنة كما تنكشف عورته الظاهرة بتزع ما يستترها.

ثم قال: (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أى إلا كراهة أن تكونا ملكين وكراهة أن تخلدا في الجنة ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فإذا عرفه استعان بها على

(١) انظر إغاثة اللهفان ١٠٧/١

(٢) الآيتان ٢٠-٢١ وجزء من الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٣) كما في حديث سمرة بن جندب الطويل الذى أخرجه البخارى ٣١٠/٤ كتاب

التعير ٩١ باب تعير الرؤية بعد صلاة الصبح (٤٨) رقم الحديث (٧٠٤٧).

العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك عَلَّمَ إخوانه وأوليائه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم البعض أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخلد عن حاجته من دخل منه ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مسدود، ومما جعل هذا القول يروج على الأب آدم عليه الصلاة والسلام أن الماكر المخادع ردد الأمر بين أمرين:

أحدهما: ممتنع. والآخر: ممكن وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر. ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده فقال: (يغادى هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)^(١) فلم يدخل أداة الشك هاهنا كما أدخلها في قوله: (إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخلدين).

ثم قال: (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين).

فتضمن هذا الخبر أنواعاً من التأكيد:

أحدها: تأكيده بالقسم.

الثاني: تأكيده بإن.

الثالث: تقديم المعمول على العامل إيذاناً بالاختصاص أى نصيحتي مختصة بكما وفائدتها عائدة إليكما لا إليّ.

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم دون الفعل الدال على التجديد، أى النصح صفتى وسجيتى ليس أمراً عارضاً لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

(١) جزء من الآية ١٢٠ من سورة طه.

السادس: أنه صور نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين فكأنه قال لهما: الناصحون لكم في ذلك كثير، وأنا واحد منهم كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به.

وورث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءوه (تشهد إنك لرسول الله) ^(١) فأكدوا خيرهم بالشهادة وبإبان وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم). ^(٢) ^(٣) ثم قال تعالى: (فدلّهما بغرور)

قوله فدلاهما: يحتمل أن يكون من التدلّية من معنى دلا دلوه في البئر والمعنى أطمعهما. أو أن تكون من الدال والدالة وهي الجرأة أى فجرأهما كما قيل: ^(٤)

أظنّ الحلم دل على قومي وقد يستجهل الرجل الحليم وقوله: (بغرور) الباء للحال أى مصاحبين للغرور أو مصاحباً للغرور فهي حال إما من الفاعل أو من المفعول، ويجوز أن تكون الباء سببية أى دلاهما بسبب أن غرّهما. والغرور مصدر حذف فاعله ومفعوله والتقدير بغروره إياهما ^(٥) وهذا اللعين قد غرّهما بيمينه ومصاحبها من التأكيدات وكان يظن آدم أنه لا يخلف أحد بالله كاذباً وقد جاء في الحديث: "المؤمن غرّ كريم والفاجر حبّ لئيم". ^(٦)

(١) جزء من الآية ١ من سورة المنافقون.

(٢) جزء من الآية ٥٦ من سورة التوبة.

(٣) انظر إغاثة اللهفان ١١١/١ إلى ١١٤

(٤) انظر الدر المصون ٢٨١/٥

(٥) المرجع السابق نفسه.

(٦) تقدم تخريجه ص ١٩٣

ومن كيده العجيب أن يشام النفس^(١) حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تشييطه وإضعاف همته وإرادته على المأمور به وثقله عليه وهون عليه تركه حتى تركه جملة أو يقصر فيه ويتهاون به وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني كما قال بعض السلف: مأمّر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وتقصير وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر. وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين، وادى التقصير ووادى المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جداً الشابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.^(٢)

ومن كيده عليه لعنة الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، قال تعالى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ).^(٣)

والمعنى يخوفكم بأوليائه.^(٤)

قال قتادة: يخوف والله المؤمن بالكافر ويرهب المؤمن بالكافر.^(٥)

(١) أى يتطلع إليها. انظر اللسان عند مادة (شيم) ٣٣٠/١٢

(٢) انظر إغاثة اللهفان ١١٥/١-١١٦

(٣) الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٤) انظر جامع البيان ١٨٣/٤

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٨٣/٤

وكذا قال مجاهد. (١)

وكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما
ضعف إيمان العبد قوى خوفه منهم.
إلى غير ذلك من مكائد عدو الله التي يكيد بها ابن آدم نسأل الله
السلامة منها. (٢)

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) وللاستزادة من ذلك ينبغي الرجوع إلى كتابي إغاثة اللفهان لابن القيم رحمه
الله وكتاب تلبس إبليس لابن الجوزي رحمه الله.

المطلب الثانى

الجهل وضعف البصيرة

والمراد بالجهل هنا خلو النفس من العلم^(١) وما كان كذلك ضد الحلم والبصيرة اسم لما اعتقد القلب من الدين وتحقيق الأمر وهى كذلك الفطنة تقول العرب: "أعمى الله بصائرهم" أى فطنه^(٢) فالمراد بضعفها ضعف اعتقاد القلب في أمور دينه وبقينه وضعف فطنته^(٣).
فأما الجاهل فهو فاقد لكل ما يورثه العلم والحلم من فضائل وأخلاق وآداب.

فإجلال الله تعالى وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبتة ورجاؤه والتوكل عليه وحده والرضا بقضائه والصبر على بلائه وعدم انتهاك حارمه كل ذلك نصيب الجاهل منه قليل وحظه منه نزر يسير، لأن هذه الأمور إنما يدل العلم عليها^(٤) ويقود الحلم إليها.

قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).^(٥)

وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا)^(٦) وقال تعالى مبیناً أصل كل سوء ومعصية (أنه من عمل منكم سوءاً مجهلة).^(٧)

والجهل كذلك يؤدى إلى الوقوع في الشبهات التى يمنع العلم أربابه من الوقوع فيها قال تعالى: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلِّ

(١) انظر المفردات عند مادة (جهل) ص ١٠٢

(٢) انظر اللسان عند مادة (بصر) ٦٥/٤

(٣) وقد تقدم الكلام على البصيرة بالتفصيل في رابع منازل العبودية ص ٣٨ .

(٤) انظر بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٦

(٥) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٦) جزء من الآية ١٠٧ والآيتان ١٠٨-١٠٩ من سورة الإسراء.

(٧) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب). (١)
 قالت عائشة رضى الله عنها: "كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا
 بحكمه ومتشابهه ولا يعلمونه". (٢)
 وقال تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به
 فتخبت له قلوبهم). (٣)

وأما أهل الجهل فإن كيد الشيطان قدينطلي عليهم فيقع في قلوبهم ما يقع.
 وأما البصيرة فإن ضعفها من أعظم أسباب مرض القلب فهو يؤدي
 إلى تأثر الإيمان بالشبهة المتهافنة المعارضة لما وصف الله به نفسه ووصفه به
 رسوله صلى الله عليه وسلم، فأضعف الناس بصيرة هم أهل الكلام الباطل
 المذموم الذى ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وإذا تأملت حال
 العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى
 إيماناً وأعظم تسليماً بالوحي واتقياداً للحق.

وضعف البصيرة يؤدي أيضاً إلى تأثر القلب بالشبهة المعارضة لأمر
 الله ونهيه وبالشهوات المانعة من تنفيذه وامتناله والأخذ به.
 وقد يوجب ضعفها أيضاً الشك في حقائق المعاد والجزاء والحساب
 وذلك شك في ألوهية الله تعالى وربوبيته وعدله وحكمته وذلك كفر به
 تعالى. (٤)

وضعف البصيرة كذلك يضعف النور الذى يقذفه الله في القلب فلا
 يستطيع القلب أن يفرق بين الحق والباطل وبين الصادق والكاذب لأن
 الفراسة الصادقة إنما هى لأصحاب البصيرة التامة. (٥)

(١) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧-٢٨

(٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٤) انظر مدارج السالكين ١/١٢٤ إلى ١٢٦

(٥) انظر مدارج السالكين ١/١٢٩

المطلب الثالث

الهوى المتَّبَع

إن الهوى من أعظم أسباب الانحراف العقدي والخلقي، بل والإصرار على ذلك الانحراف حتى مع ظهور الحق.

والهوى -نعوذ بالله منه- هو أول داء حل بالعالم فيه ضل إبليس وعصى ربه فلعن وطرده من رحمة الله، وبه ضلت الأمم عن اتباع أنبيائهم ورسلمهم ولهذا قال تعالى: (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله).^(١) وقال كذلك: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب).^(٢)

واتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذى يحبه، ورد القول والفعل الذى يبغضه بلا هدى من الله قال تعالى: (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم)^(٣) وقال: (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله).^(٤)

وقال تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير).^(٥)

فمن اتبع أهواء الناس بعد العلم الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وبعدهدى الله الذى بينه لعباده فهو بهذه المثابة، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق -المخالفين للكتاب والسنة- أهل الأهواء حيث قبلوا ما أحبوه وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله.^(٦)

(١) جزء من الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص.

(٣) جزء من الآية ١١٩ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٥) الآية ١٢٠ من سورة البقرة.

(٦) انظر مجموع الفتاوى ١٨٩/٤-١٩٠

المبحث الثاني الأسباب الخاصة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب مرض الشبهات.

المطلب الثاني: أسباب مرض الشهوات.

المطلب الأول

أسباب مرض الشبهات

لمرض الشبهات أسباب أهمها في نظري إضافة إلى الأسباب العامة

اثنان هما:

أولاً: الفهم الفاسد:

اعلم أن من أعظم مايؤدى إلى وقوع الشبهات في القلب ذلك الفهم السقيم المبني على قواعد عقلانية من الكلاميات والفلسفات ونحو ذلك مما يبنى على أقوال مشتبهة مجملة تتحمل معاني متعددة ويكون مافيهما من الاشتباه لفظاً ومعنى يوجب تناولها لحق وباطل فبما فيها من الحق يقبل مافيهما من الباطل لأجل الاشتباه والالتباس ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا وهو منشأ البدع فإن البدعة لو كانت باطلاً محضاً لظهرت وبانت وماقبلت، ولو كانت حقاً محضاً لاشوب فيها لكانت موافقة للسنة، فإن السنة لاتناقض حقاً محضاً لا باطلاً فيه ولكن البدعة تشتمل على حق وباطل.^(١)

والفهم الفاسد إنما يخلط الحق بالباطل فتقام صروح الضلال وقلاع الشبهات على أدلة شرعية وآيات ربانية.

فله كما خدع بذلك من العامة وأعشار المتعلمين.

وقد قال تعالى يخاطب أهل الكتاب (يَبْنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونَ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِثَائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).^(٢)

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٠٨/١-٢٠٩

(٢) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة البقرة.

والأمثلة على ذلك كثيرة ساكتفى بذكر أحدها.

فمن ذلك أن كثيراً من الجهمية نفاة الصفات والأفعال عن الله عز وجل ومن اتبعهم على ذلك يستدلون على نفيها بقصة إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وذكروا أن هذه الطريقة هي طريقة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه وهو قوله: (لأحب الأفلين).^(١)

قالوا: فاستدل بالأفول الذي هو الحركة والانتقال على حدوث مقام به ذلك كالكوكب والقمر والشمس. وظن هؤلاء أن قول إبراهيم عليه السلام (هذا ربي)^(٢) أراد به: هذا خالق السموات والأرض القديم الأزلى وأنه استدل على حدوثه بالحركة.

فأدى بهم هذا الفهم الفاسد إلى نفي أفعال الله عز وجل وتبعهم على ذلك خلق كثير.

وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أن قول إبراهيم (هذا ربي) ليس المراد به هذا رب العالمين القديم الأزلي الواجب الوجود بنفسه ولا كان قومه يقولون إن الكواكب أو القمر أو الشمس رب العالمين ولا قال هذا أحد من أهل المقالات المعروفة التي ذكرها الناس لا من مقالات أهل التعطيل والشرك الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب ولا من مقالات غيرهم، بل كان قوم إبراهيم يدعونها ببناء الهياكل والسجود والقرايين وهو دين المشركين. الثاني: أنه لو كان المراد بقوله (هذا ربي) أنه رب العالمين لكانت قصة الخليل حجة على تقيض مطلوبهم لأن الكوكب والقمر والشمس مازال

(١) جزء من الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

(٢) جزء من الآية السابقة نفسها.

متحركاً من حين بزوجه إلى أفوله وغروبه فيلزم على قولهم أن إبراهيم، لم يجعل هذه الحركة بل ولا حتى صغر الكوكب والشمس والقمر مانعاً من كون ذلك المتحرك رب العالمين، وهذا لا يظنه عاقل ممن هو دون إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فكيف به صلى الله عليه وسلم.

الثالث: أن الأفول هو المغيب والإحتجاب وليس مجرد الحركة والانتقال فلا يقول أهل اللغة ولا أهل التفسير ولا العقلاء لمن تحرك أو سافر أنه أفل وهو ظاهر.

الرابع: أن هذا القول الذى قالوه لم يقله أحد من علماء السلف أهل التفسير ولا من أهل اللغة بل هو من التفسيرات المبتدعة في الإسلام. (١)
ففساد قولهم ومفهومهم ظاهر واضح.

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل من ١/ من ٣١٠ إلى ٣١٤

ثانياً: النقل الكاذب:

الكذب نقيض الصدق^(١) وأصله في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره وهو في الخير دون غيره من أصناف الكلام وقد يكون بالعرض في غيره كالاستفهام والأمر والدعاء وذلك نحو قول القائل: أزيد في الدار؟ فإن في ضمنه إخباراً بكونه جاهلاً بحال زيد وكذا إذا قال واسني فإن في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة.^(٢)

والكذب أساس السيئات ونظامها كما أن الصدق أساس الحسنات وجماعها فإن المنطق قسمان خير وإنشاء والخير صحته بالصدق وفساده بالكذب فالكاذب أسوأ حالاً من البهيمه العجماء لأن الكلام الخيري هو المميز للإنسان وهو أصل الكلام الإنشائي والكاذب لم يكفه أنه سلب حقيقة الإنسان حتى قلبها إلى ضدها ولهذا قيل: لامروءة لكذوب ولا راحة لحسود ولا إخاء للملوك ولا سؤدد لبخيل.

والصدق والكذب هما الخصلتان اللتان يفرق بهما بين المؤمن والمنافق فإن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب والكذب هو أصل الفجور كما جاء في الحديث: "وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً".^(٣)

والكاذب تنزل عليه الشياطين تؤذيه إلى الشر أذاً قال تعالى: "هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثم يلقون السميع

(١) اللسان مادة (كذب) ٧٠٤/١

(٢) المفردات مادة (صدق) ص ٢٧٧

(٣) تقدم تخريجه ص ١٤١

وأكثرهم كذبون^(١) إلى غير ذلك من آفات الكذب التي يعجز القلم عن سطرها في هذا المقام.^(٢)

وإن من أعظم أسباب مرض الشبهات وتمكنه في القلب النقل الكاذب فله كم خدع الكذابون المزورون كثيراً من الطغام بمزخرف القول ومبهرج النقل.

وأصل النقل الكاذب مقام به إبليس لعنه الله من إخبار لأبينا آدم عليه السلام وزوجه بشجرة الخلد - على حد زعمه - مدعماً قوله بيمين فاجرة آئمة بأنه لهما من الناصحين فخدعهما بذلك فوقعا في معصية الله عز وجل فأهبطا من الجنة إلى دار الابتلاء فتابا فتاب الله عز وجل عليهما. ثم تبع إبليس كثير من أعوانه وإخوانه من الجن والإنس الذين يروجون لضلالتهم وشبههم ويحاولون عبثاً تقويتها بنقول كاذبة وأقوال باطلة، فأوقعت في نفوس كثير من الجهلة الشبه والاضطراب. ومن الأمثلة على ذلك مايلي:

مقام به بعض الزنادقة من دس الأباطيل والأكاذيب السخيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين بذلك تشويه صورة الإسلام الناصعة في عقائده وعباداته ومقاصده فقد وضعوا أحاديث تتعلق بذات الله عز وجل وصفاته تتناقض مع عقيدة الإسلام الصحيحة وهي تتم عما تنطوي عليه بواطنهم بالإضافة إلى مايقصدون من وراء ذلك من تنفير العامة عن الإسلام وإظهاره بمظهر الدين المتناقض الذي يشتمل على كثير

(١) الآيات (٢٢١-٢٢٣) من سورة الشعراء.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٧٨-٧٤/٢٠

من الأمور المتناقضة وغير المعقولة. (١)
ومنها ما قام به الرافضة من افتراء وكذب ووضع للأحاديث الموافقة
لأهوائهم وعقائدهم الباطلة.
وقد قال الشافعي رحمه الله: (٢) مارأيت في أهل الأهواء قوماً أشهد
بالزور من الرافضة. (٣)
وكتب الموضوعات أكبر شاهد على ذلك والله المستعان.

-
- (١) الوضع في الحديث ٢٢١/١ وقد أعرضت عن ذكر أمثلة لما وضعوه من أحاديث
تزيها لبحثي عن ذلك فمن أراد الاطلاع على شيء من ذلك فليراجع الوضع في
الحديث ٢٢٢-٢٢١/١
- (٢) هو الإمام عالم العصر ناصر الحديث أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي
القرشي المطلبي المكي صاحب المذهب صنف التصانيف ودون العلم وبعد صيته
وتكاثر عليه الطلبة، توفي عام ٢٠٤هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥/١٠، وشذرات
الذهب ٩/٢
- (٣) انظر منهاج السنة ٦١/١-٦٢

المطلب الثاني

أسباب مرض الشهوات

لمرض الشهوات أسباب أهمها في نظري إضافة إلى الأسباب العامة اثنان هما:

أولاً: الإفراط فيما أبيح من الشهوات:

إن الانسياق وراء هذه الدنيا وملذاتها الفانية واللهاث في طلب ذلك لهو من أعظم الأسباب الموصلة إلى مرض الشهوات. والإسلام قد دعا أفرادَه إلى التوسط في الاستمتاع بما أبيح لهم فأباح أكل الطيبات ولبس الجميل من الثياب ولكن بلا إسراف ولا مخيلة كما جاء في الحديث المرفوع: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة" (١).

وقال تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعم والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أُنبيئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضون من الله والله بصير بالعباد). (٢)

وفي هاتين الآيتين يبين الله عز وجل تلك الشهوات التي فطر الناس على حبها ثم يذكرهم بما هو خير منها لا لبيان قبحها في ذاتها، لأن الله تعالى لا يفطر الناس على قبيح بل خلقهم في أحسن تقويم ولم يجعل دينه مخالفاً لفطرته بل موافقاً لها كما قال تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة

(١) أخرجه البخاري معلقاً في صحيحه بصيغة الجزم ٥٣/٤ كتاب اللباس (٧٧) باب قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) (١)

(٢) الآيتان ١٤-١٥ من سورة آل عمران

الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(١) ولكن المراد أن لا يفتتن العبد المؤمن بهذه الشهوات ويجعلها أكبر همه والشاغل له عن آخرته فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد في الدارين (ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار).^{(٢)(٣)} وأما إذا لم يتق الله وتجاوز بما أبيح له حدود الله فقد افترق، قال تعالى: (يأياها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولدكم عدواً لكم فاحذروهم).^(٤)

قال قتادة: ينهون عن الإسلام ويبطئون عنه وهم من الكفار فاحذروهم.^(٥)

وقد أخرج الترمذى عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية (يأياها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولدكم عدواً لكم فاحذروهم) قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله عز وجل: (يأياها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولدكم عدواً لكم فاحذروهم) الآية.^(٦)

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم.

(٢) جزء من الآية ٢٠١ من سورة البقرة.

(٣) انظر تفسير المنار ٢٤٦/٣

(٤) جزء من الآية ١٤ من سورة التغابن.

(٥) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٢٩٥/٢

(٦) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٤١٩/٥-٤٢٠ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ==

وهذا يبين وجه العداوة فإن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة. (١)

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أهلك فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتدع أرضك وسمائك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول (٢) فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فمن فعل ذلك كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة" (٣) فالشيطان يوسوس لابن آدم ويحاول أن يغريه بزوجه وولده وما يملك من حطام هذه الدنيا ليصده عن كل خير.

فمن أطاعه أسر بهذه الملذات الفانية فقعد عن الطاعة فصارت هذه الشهوات المباحة من أعظم أعدائه وهو لا يشعر، وأحققر من هذا وأحط منزلة

(=) باب (٦٥) من سورة التغابن رقم الحديث (٣٣١٧) وقال الترمذى بعد أن أخرجه: هذا حديث حسن صحيح.

وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذى ١٢١/٣ برقم (٢٦٤٢-٣٥٥٠).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٨١٨/٤

(٢) الطول والطيل بالكسر الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه.

انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (طول) ١٤٥/٣

(٣) أخرجه النسائي في السنن ٢١/٦-٢٢ كتاب الجهاد (٢٥) باب ما لمن أسلم وهاجر

وجاهد (١٩) رقم الحديث (٣١٣٤) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ٣٣٩/١-٣٤٠ برقم (١٦٥٢).

من عشق الدنيا حتى صار عبداً لها لا يقول ولا يفعل إلا ما يجلب له نفعاً دنيوياً أو شهوة عاجلة وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أشد التحذير بل قد دعا على من هذه حاله فقال صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الحمصة تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش". (١)

وما أحسن قول من قال: (٢)

أنت الأمير على الدنيا بزهدك في حطامها وطريق الحق مسلوك
وأنت عبد لها مادمت تعشقها إن المحب لمن يهواه مملوك

ثانياً: عدم حفظ الجوارح عما حرم الله:

إن العلاقة بين القلب والجوارح علاقة قوية فكل منهما يتأثر بصاحبه تأثراً بالغاً فإذا سقم القلب تأثرت الجوارح بذلك وظهر عليها هذا المرض أقوالاً وأفعالاً قلت أو كثرت بحسب قوة المرض وضعفه. وكذلك الحال بالنسبة للقلب فالجوارح إذا فسدت وصالت وجالت في محارم الله فالقلب لاشك سيتأثر أيما تأثر وسيصاب أيما إصابة.

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

قال القرطبي: الجوارح وإن كانت تابعة فقد يتأثر القلب وإن كان رئيسها وملكها بأعمالها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن. (٣)

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في

قلبه نكتة سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها

(١) تقدم تخرجه ص ٣٢

(٢) أورد هذه الأبيات ابن الجوزي في كتابه التذكرة في الوعظ ص ٣٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/١٨٨

حتى تعلوا قلبه، وهو الران الذي ذكر الله (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون). (١)(٢)

ولذلك فقد أمر الإسلام بحفظ الجوارح وصيانتها عن كل ما حرم الله فأمر بحفظ اللسان عن القول على الله تعالى بلا علم وبين أن ذلك مما حرمه الله على العباد فقال تعالى في سياق ذكره للمحرمات (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). (٣)

وكذلك بحفظه من الكذب فقال تعالى: (ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين). (٤)

وقال: (يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين). (٥)
وأمر كذلك بحفظه عن السخرية والاستهزاء بالآخرين فقال عز من قائل: (يأيها الذين ءامنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم). (٦)

وكذلك عن التنازع بالألقاب: (ولا تنازعوا بالألقاب) (٧) وغير ذلك مما فيه حفظ اللسان.

وأمر الإسلام كذلك بحفظ السمع عن كل باطل ولهو فقال تعالى:

(١) الآية (١٤) من سورة المطففين.

(٢) أخرجه الترمذى في الجامع الصحيح ٤٣٤/٥ كتاب التفسير (٤٨) باب (٧٥) من سورة ويل للمطففين رقم الحديث (٣٣٣٤) وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وحسنه الألبانى في صحيح الترمذى ١٢٧/٣ برقم (٢٦٥٤-٣٥٦٩).

(٣) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ٦١ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٦) جزء من الآية (١١) من سورة الحجرات.

(٧) جزء من الآية نفسها.

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم). (١)
أخرج عبدالرزاق في تفسيره عن مجاهد قال: هو الغناء وكل لعب
لهو. (٢)

وأمر كذلك بحفظ البصر فقال تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مسؤولاً). (٣)

وقال تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم
ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من
أبصارهن ويحفظن فروجهن). (٤)

وأمر بحفظ اليد عن البطش والسرقة والرجل عن المشي في الأرض
كبراً وإفساداً وغير ذلك مما ورد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله
عليه وسلم من الأمر بحفظ الجوارح مما يصعب جمعه في هذا الموضع وبالله
التوفيق.

(١) جزء من الآية ٦ من سورة لقمان .

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١٠٥/٢

(٣) جزء من الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

(٤) الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ من سورة النور.

الفصل الثالث منهج القرآن الكريم في معالجة أمراض القلب

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب.
- المبحث الثاني: الدعوة إلى الشمول والتوازن في حياة المسلم.
- المبحث الثالث: التربية القرآنية للقلب عن طريق الترغيب والترهيب.
- المبحث الرابع: التربية بالقُدوة وضرب المثل.

تمهيد:

إن التربية القرآنية لهى شاطيء الأمان فى كل زمان ومكان وخاصة فى عالمنا المعاصر الذى انتابته الفوضى والمشكلات، فى شتى نواحيه ولم تفلح تلك القوانين البشرية والدراسات النفسية والاجتماعية العقيمة التى أجريت بعيدة عن منهج الله العلم الخبير فى تنظيم هذه الفوضى أو حل تلك المشكلات، وستظل التربية القرآنية هى المنقذ الوحيد للبشرية فففىها وحدها يكون الفلاح والخير والعدل وففىها وحدها يكون النور والانشرح والطمأنينة قال تعالى: (يأئبها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).^(١)

وقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).^(٢)

وكيف لا يكون القرآن الكريم والنور المبين والصراط المستقيم كذلك وهو منهج العلم الخبير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).^(٣) وسأحاول فى المباحث التالية أن أخلص منهج القرآن الكريم فى معالجة أمراض القلوب وذلك فىما أرى والله أسأل التوفيق والسداد.

(١) الآيتان ٥٧-٥٨ من سورة يونس.

(٢) الآية ٨٢ من سورة النبأ.

(٣) الآية ١٤ من سورة الملك.

المبحث الأول

غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب

وذلك يتم من خلال الأمور التالية:

أولاً: توجيه القلب البشرى إلى معرفة الله جل وعلا بأسمائه وصفاته:

فالقرآن الكريم مملوء بأسماء الله عز وجل وصفاته التي يتعرف بها إلى خلقه مما يورث للقلوب محبته تعالى وخشيته ومهابته وإجلاله والخوف منه.

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على معرفتها والإيمان بها والعمل بمقتضاها فقال صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة".^(١)

والإحصاء يقع بالقول ويقع بالعمل فالذى بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والمتعال والتقدير ونحوها فيجب الإقرار بها والخضوع عندها وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها كالرحيم والكريم والعفو ونحوها فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدى حق العمل بها فهذا يحصل الإحصاء العملى وأما الإحصاء القولى فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها.^(٢)

فمثلاً من أسماء الله عز وجل الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير فالإيمان بها يورث للعبد دوام مراقبة الله عز وجل لأنها هي التعبد بمقتضى هذه الأسماء فمن عقلها وآمن بها وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة.^(٣)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٣٨٢/٤ كتاب التوحيد (٩٧) باب إن لله مائة اسم

إلا واحداً (١٢) برقم ٧٣٩٢

(٢) هذا الكلام نقله ابن حجر عن ابن بطال. فتح البارى ٣٧٨/١٣

(٣) انظر مدارج السالكين ٦٦/٢

وكذلك القول في باقي أسماء الله عز وجل قال تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها).^(١)

ثانياً: توجيه القلب البشرى المريض إلى النظر في آيات الله الشرعية: فقد وجه الله تبارك وتعالى المؤمن إلى الاستماع والإنصات لما يتلى عليه من آياته فقال عز وجل: (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون).^(٢)

وبين أن ذلك سبب لحصول الرحمة للسامع المنصت (لعلكم ترحمون) وأمر كذلك بتدبر كلامه تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن) وبين أن ذلك من علامات القلب الحى بالإشارة إلى أن الذى لا يتدبر القرآن مقفل قلبه (أم على قلوب أقفالها).^(٣)

وقد وجه الله تعالى إلى الاستشفاء النفسى بالقرآن الكريم في كتابه الكريم فقال تعالى: (يأئىها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين).^(٤)

وقد أجملت هذه الآية القرآنية الكريمة الإصلاح القرآنى لأنفس البشر في أربع مسائل^(٥) وهي:

الأولى: الموعظة:

وَالْوَعْظُ وَالْعِظَةُ وَالْعِظَةُ وَالْمَوْعِظَةُ: النصح والتذكير بالعواقب.^(٦)

(١) جزء من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد.

(٤) الآية ٥٧ من سورة يونس.

(٥) انظر تفسير المنار ٤٠٠/١١

(٦) اللسان (وعظ) ٤٦٦/٧

والموعظة تشمل ماورد في القرآن الكريم من أساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب فتبعث على الفعل والتترك قال تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتب والحكمة يعظكم به) ^(١) وفي التي بعدها (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أذكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ^(٢) وجاء في سورة آل عمران بعد النهى عن أكل الربا والأمر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس وما أعدده الله لذلك من الجزاء (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عقبة المكذابين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ^(٣) وأمثلة الوعظ كثيرة يصعب حصرها وحسبي ما ذكرت من أمثلة.

الثانية: شفاء مافي الصدور:

أى شفاء جميع مافي القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق وسائر الأمراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر من شك وحققد وحسد وبغي وعدوان وحب للباطل والظلم والشر وبغض للحق والعدل والخير. ^(٤)

فالقرآن كله شفاء، شفاء للأمراض الحسية والمعنوية وأمثلة ذلك كثيرة:

فالفاتحة رقية نافعة كماورد في حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: "كنا في مسير لنا فتلنا فجاءت جارية فقالت إن سيد الحنّ سليم وإن

(١) جزء من الآية ٢٣١ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان ١٣٧-١٣٨ من سورة آل عمران.

(٤) انظر تفسير المنار ٤٠١/١١

نفرنا غيب فهل منكم من راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نأمنه^(١) برقية، فرقاه فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاة وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى؟ قال: لا، مارقيت إلا بأمر الكتاب. قلنا: لاتحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "وما كان يدريه أنها رقيه؟ أقسموا واضربوا لي بسهم".^(٢)

والمعوذات كذلك كما ورد في حديث عائشة رضی الله عنها "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها".^(٣) وغير ذلك من الأمثلة على شفاء القرآن للأمراض الحسية وإن كانت الآفة في معرض ذكر شفائه للأمراض المعنوية بقرينة (لما في الصدور). وقراءة كلام الله ذكر له وذكره جالب للاطمئنان مبعد للوساوس والتزغات قال تعالى: (الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).^(٤)

فالتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر^(٥) قال تعالى: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى

(١) نأمنه: ما كنا نأمنه برقية: أي ما كنا نعلم أنه يرقى فنعييه بذلك يقال أبنت الرجل

آمنه وآمنه إذا رميته بجلّة سوء فهو مأبون. انظر النهاية ١٧/١ مادة (أبن).

(٢) أخرجه البخاري ٣/٣٤٢ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب فضل فاتحة الكتاب

(٩) برقم ٥٠٠٧

(٣) أخرجه البخاري ٣/٣٤٤ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب فضل المعوذات (١٤)

برقم ٥٠١٦

(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٥) تفسير المنار ١١/٤٠٢

يأتيك اليقين^(١) وقال تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه).^(٢)

الثالثة: الهدى:^(٣)

وذلك في المقام الخاص مقام المصائب والمقام العام مقام الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

والقرآن الكريم ملئ بالدعوة إلى الثبات في كلا المقامين^(٤) والوعد بالهداية لمن أحسن فيهما قال تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه).^(٥)

وقال كذلك (يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة).^(٦)

الرابعة: الرحمة للمؤمنين:

وهي ما تنمونه لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من الرحمة التي هي صفة كمال من آثارها إغاثة الملهوف وبذل المعروف وكف الظلم ومنع التعدي والبغي وغير ذلك من أعمال الخير والبر^(٧) وقد وصف الله المؤمنين بقوله: (رحماء بينهم)^(٨) وبقوله: (وتواصوا بالصبر وتواصوا

(١) الآيات ٩٧-٩٩ من سورة الحجر.

(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٣) تقدم تعريف الهداية لغة واصطلاحاً وذكر أقسامها ومقاماتها بالتفصيل.

(٤) كقوله تعالى: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصبرين) (البقرة: ١٥٥) وقوله: (والعصر إن الإنسان لفي خسر... وتواصوا بالصبر) (العصر: ١-٣) وقوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله... والصبرين في البأساء والضراء وحين البأس) (البقرة: ١٧٧) والآيات في ذلك كثيرة.

(٥) جزء من الآية ١١ من سورة التغابن.

(٦) جزء من الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٧) انظر تفسير المنار ٤٠٣/١١

(٨) جزء من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

بالمرحمة). (١)

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية وترجعها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها.

والشفاء تخلية يتبعها طلب التحلية بالصحة الكامل والعافية التامة وهو الهدى من ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد في صورة كمالها البشري إلا في المؤمنين المهتدين ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون. (٢)

ثالثاً: توجيه القلب البشري المريض إلى النظر في آيات الله الكونية والنفسية: وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين المجالين الكبيرين لما يحملان من دلائل عظيمة على توحيد الله وصدق كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). (٣)

فليس القرآن الكريم كتاباً مخصصاً للعلوم الكونية أو البشرية أو الإنسانية أو النفسية أو التاريخية وإنما ينتقى من آفاق الكون وعجائب النفس البشرية ما يحقق أغراضه وأهدافه (٤) التي من أهمها تبيان الحق وإظهاره والاستدلال على توحيد الله عز وجل وترسيخ الإيمان باليوم الآخر بالبرهان والحجة وتربية الخوف من الله والابتعاد عن المحرمات والآثام. (٥)

فالكون آية الله الكبرى ومعرض قدرته المعجزة التي تبهر العقول

(١) جزء من الآية ١٧ من سورة البلد.

(٢) انظر تفسير المنار ٤٠٣/١١

(٣) جزء من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٤) انظر التربية بالآيات لعبدالرحمن النحلاوي ص ١٩٥

(٥) انظر التربية بالآيات ص ٧١ إلى ص ٨٦

ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون وروعة الإحساس بها
جياشه واصلةً إلى الأعماق.

فالحواس تتبلد لما ترى وماتسمع فتتمر بكل شيء كأنه لا وجود له
وتنسى -بحكم التعود- أن كل شيء حولها آية للقدره المبدعة الخالقة التي
تبدع كل ماتريد (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). (١)
الليل والنهار متعاقبان متكوران على الأرض مختلفان في الطول
باختلاف الفصول واختلاف المكان.

الشمس الطالعة الغاربة في كل يوم لاتكف يوماً عن الطلوع أو عن
الغروب.

النجوم المتلألئة في ظلمة الليل زينة للسماء وهداية للحيوان ورجوماً
للشياطين.

القمر الذى يبدأ هلالاً لا يكاد يرى ويظل يكبر حتى يمتلى وجهه
بالنور ويغمر الأرض بنور شفاف حالم هادئ جميل ثم يتناقص حتى يعود
كما بدأ هلالاً لا يكاد يرى ثم يختفى في المحاق.
الحياة النابتة في البذرة الصغيرة التي تفتح الأرض بقوة فتتشقق عن
ورق أخضر جميل.

النظام المذهل في روعته، المذهل في دقته الذى يسير عليه الكون كله
فلا يختل منه كوكب واحد ولا يخرج عن مساره قيد أنملة.
الزمن ذاته، كنهه وحقيقته وطريقة إدراكه.

المخلوق البشرى المعجز بكل مافيه من أجهزة دقيقة وطاقات.
العمليات الجسمية والعمليات الفكرية والعمليات الروحية في كيان

الإنسان .

آيات كلها من آيات الله في الكون كل منها معجز وكل منها هائل وكل منها مثير ولكن لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعى ودون تفكير .

والإسلام يعتمد إلى هذه الآيات فيبث فيها الحياة، فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ويستشعر عظمة الله عز وجل وإبداعه في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعاداتها فتتفتح للكون كأنه جديد .

وللقرآن في هذا الجانب قدرة عجيبة فأيقاظ النفس من إلفها ليس مهمة ميسره . إن أسلوبه القوى وجوه المشرق وروحه الصافيه لتنقل الإنسان ثقلاً من إلفه وعاداته وتهزه ليستيقظ، تلمس برفق أعصابه المكشوفة فتعطيه الشحنة كاملة فتنقلها إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة .

وكلما عاد المرء لقراءة هذه الآيات في كتاب الله العزيز كان اللقاء متجدداً في داخل النفس وفي صفحة الكون لاينفد ولا يسأم ولا يزول (١)
(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب). (٢)

(إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من

الحى). (٣)

(١) انظر منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٤٤/١-٤٧

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون). (١)

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون). (٢)

(خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار على الليل). (٣)

(فلينظر الإنسان مم خلق). (٤)

ويصل استخدام الكون وآياته في إيقاظ الحس وإحياء القلب إلى حد استخدام أمثلة من الكون لتمثيل المواقف النفسية والاجتماعية والاقتصادية. (٥)

(كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر). (٦)

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها). (٧)

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة). (٨)

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...). (٩)

(١) الآية ١٠ من سورة النحل.

(٢) الآية ٧٨ من سورة النحل.

(٣) جزء من الآية ٥ من سورة الزمر.

(٤) الآية ٥ من سورة الطارق.

(٥) انظر منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ٥١/١

(٦) جزء من الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.

(٧) جزء من الآية ١٧ من سورة الرعد.

(٨) جزء من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

(٩) جزء من الآية ٣٥ من سورة النور.

رابعاً: توجيه القلب المريض إلى النظر في آيات الله التاريخية:

وهى عبارة عما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم من قصص الأنبياء ومواقفهم وحوارهم مع أقوامهم وكذلك ماوقع من حوادث ومواقف من السيرة النبوية وحوادث اجتماعية كخراب سد مأرب وتمزيق شمل قبيلة سبأ^(١) وغير ذلك.

والقرآن الكريم ليس كتاب تاريخ يهتم بسرد الحوادث التاريخية وتتابعها الزمنى وإنما كان ذكره لها لما تحمله من عبر وعظات لكل عاقل بصير قرأ القرآن وتدبره (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون).^(٢)

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين (عبرة لأولى الألباب) وهى العقول (ماكان حديثاً يفترى) أى: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله أى: يكذب ويختلق (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى: من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح وينفى ماوقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير (وتفصيل كل شىء) من تحليل وتحريم ومحجوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات والنهى عن المحرمات وماشاكلها من المكروهات والإخبار عن الأمور على الجلية وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتزييه عن مماثلة

(١) انظر التربية بالآيات ص ٢٢١

(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف.

المخلوقات فلهذا كان (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) تهتدى به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ومن الضلالة إلى السداد ويبتغون به الرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا والمعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة. (١)

ومثل هذه الآية قوله تعالى في قوم لوط: (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون). (٢)

ومن فوائد ذكر الحوادث التاريخية في كتاب الله عز وجل التعريف بالسنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية ومن خلالها يجرى قدر الله، وإليها يشير التوجيه الرباني إشارة واضحة (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عقبة المكذبين). (٣)

والقرآن الكريم يجعل دراسة التاريخ والاعتبار بالسنن الربانية في الحياة البشرية فارقاً بين أولى الوعي والبصيرة والغافلين الذين لهم أعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها وقلوب لا يفقهون بها (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور). (٤)(٥)

والتربية بذكر السنن الربانية إنما هي جزء من التربية القرآنية الشاملة لإيقاظ مرضى القلوب ولتكوين المؤمن الحى القلب الطيب السلوك.

ولنأخذ مثلاً لسنة من سنن الله عز وجل الألهمية وهى سنته في

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٤٩/٤

(٢) الآيتان ١٣٧-١٣٨ من سورة الصافات.

(٣) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٤٦ من سورة الحج.

(٥) انظر حول التفسير الإسلامى للتاريخ ص ٨٥

إهلاك المفسدين بسبب فسادهم وظلمهم عندما يقوم الصراع بينهم وبين دعاة الحق.^(١)

قال تعالى بعد أن ذكر آيات قدرته وعدله في إهلاك الظالمين من قوم نوح وقبيلة عاد وثمود وقوم لوط وشعيب وموسى قال معقلاً على ذلك كله (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمنهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيـب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).^(٢)

ومن تمام هذه السـنة أن الله نفى أن يهلك قرية بغير ظلم من أهلها (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).^(٣) بل إنه تعالى وعد المؤمنين المتقين بالخيرات والبركات فقال تعالى: (ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذنهم بما كانوا يكسبون).^(٤) وأما إذا بدل المنعم عليهم ما بأنفسهم فإن سنة الله عز وجل ستجرى عليهم وستزول هذه النعمة عنهم وسيحل بهم سخط الله وعقابه (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإن الله سميع عليم).^(٥) فنعم الله عز وجل على الأقوام والأمم منوطة ابتداء بالعقائد والأخلاق فمادامت هذه العقائد وهذه الأخلاق كانت تلك النعم ثابتة بثباتها ولم يكن الرب الكريم ليتزعها منهم انتزاعاً بغير ظلم منهم ولا ذنب فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غير الله عندئذ ما بأنفسهم

(١) انظر التربية بالآيات ص ٢٢٧

(٢) الآيات ١٠٠-١٠٢ من سورة هود.

(٣) الآية ١١٧ من سورة هود.

(٤) الآية ٩٦ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

وسلب نعمته منهم فصار الغنى فقيراً والعزیز ذليلاً والقوي ضعيفاً، هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم وهو كذلك في الأفراد إلا أنه غير مطرد فيهم لقصر أعمار كثير منهم دون تأثير التغيير حتى يصل إلى غايته. (هـ) ومن الدلالات التربوية لهذه السنة:

الحض على إصلاح النفس ومراقبة الإنسان لسلوكه فعلينا أن نرجع إلى قلوبنا ومنتحن مداركنا ونسير أخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان ؟
هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح ؟
هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا، وخالف حكمه وبدل في أمرنا سنه ؟

سبحانه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه واعجبنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً بدل عزنا بالذل وسمونا بالالخطا و غنانا بالفقر، نبذنا أوامر الله ظهرياً وتخاذلنا عن نصره فجازانا بسوء أعمالنا.

وكيف لانلوم أنفسنا ونحن نرى أهل الكفر والإلحاد والعلمنة يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا ولا نرى في أحد منا حراكاً ؟

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من أبناء هذ الدين لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ومسكنه الهوان، تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد يتقطع ما بيننا لا يحس أخ لأخيه ولا يهتم جار بشأن جاره ولا يرقب أحدنا في الآخر إلا ولا ذمة ولا نخترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعززه

بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.
 أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على
 الألسنة ولا يمس سواد القلب؟
 هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف فإن أصابهم خير اطمأنوا به
 وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟
 هل ظنوا أن لا يتلى الله ما في صدورهم ولا يحص ما في قلوبهم؟
 ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من
 الطيب؟

هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره
 وإعلاء كلمته لا ييخلون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس؟
 فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل
 الإيمان، لا بماله ولا بروحه؟ (١)

وتعلمنا هذه السنة أيضاً الاقتداء بالعدل الإلهي في كل أمورنا مع من
 نحب ومع من نكره مع الصديق ومع العدو (ولا يجرمنكم شنآن قوم على
 ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٢)

فنهى أن يحمل المؤمنین بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم (٣)
 فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى
 أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له. (٤)
 إلى غير ذلك من الآثار التربوية الحميدة التي لها أثر كبير في معالجة
 الكثير من أمراض القلوب.

(١) انظر تفسير المنار ١٠/٤٤-٤٥

(٢) جزء من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٣) في الاستقامة (يعدلوا عليهم) ولعل شيخ الإسلام رحمه الله عدى عدل بعلى
 ليضمنه معنى الصبر فإن العدل محتاج إلى الصبر وقد جاء في الاستقامة قبل هذه
 العبارة وبعدها الحث على الصبر والله أعلم.

(٤) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨/١

المبحث الثاني

الدعوة إلى الشمول والتوازن في حياة المسلم

وأعنى بالشمول الفهم الصحيح للإسلام كما جاء في قوله تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين لا شريك له) ^(١) إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة بالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالممات وماوراءه، إنه التوحيد الحق والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات وتخلصها لله وحده (لله رب العلمين) القيوم المهيمن المتصرف المربي الحاكم للعالمين في إسلام كامل لا يستبقى في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها لله. ^(٢)

فليس معنى العبادة في الإسلام أن تستولى التقوى على قلب المرء في السجود والركوع فإذا ختم صلاته هبت في داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان أو تخاذل عن القيام بالأمانة أو ضعف عن نصره الحق. كلا إن العبادة بحق أن تبقى التقوى ويبقى الإيمان مع العبد ممتلئاً بهما قلبه ينبزان له الطريق ويهديانه في خلوته وفي حال قيامه بأى عمل، وحين لقائه لإخوانه من البشر وتعامله معهم، فلا يتعثر. ^(٣) (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين...) ^(٤) ولاشك أن هذا الفهم للإسلام يجعل العبد في مراقبة دائمة لله عز وجل حتى كأنه يراه وكلما اشتدت هــ

(١) الآية ١٦٢ وجزء من الآية ١٦٣ من سورة الأنعام.

(٢) انظر في ظلال القرآن ١٢٤٠/٨ - ١٢٤١

(٣) انظر منهج التربية الإسلامية ٣٧/١

(٤) جزء من الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذى قيامها به ولقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة وهى قوله في الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه". (١)(٢)

وأما التوازن فالمقصود به أن يوازن المسلم في حياته بين مطالبه الروحية والبدنية فلا يغلب جانباً على جانب في الحب والصدق والإنفاق والعدل وغير ذلك.

وقد حث الله عز وجل عباده على التوسط في كل الأمور وأثنى على هذه الأمة به فقال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس). (٣) والوسط بالتحريك اسم لما بين الطرفين. (٤) ويطلق على خيار الشيء لأن الأواسط محمية بالأطراف (٥) قال حبيب: (٦)

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً
فمن هداية الله لهذه الأمة وإكرامه لها وعنايته بها أن جعلها أمة

(١) قطعة من حديث جبريل الطويل وقد سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٢) انظر أعلام الموقعين لابن القيم ١٥٥/٤ - ١٥٦ .

(٣) جزء من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٤) انظر اللسان عند مادة وسط ٤٢٦/٧ ، والدر المصون لابن السمين ١٥١/٢ .

(٥) انظر الدر المصون ١٥١/٢ .

(٦) هو شاعر العصر أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي من حوران

من قرية جاسم كان ذكياً له ديوان كبير، مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين .

انظر سير أعلام النبلاء ٦٣/١١ ، شذرات الذهب ٧٢/٢ ، ٧٤ .

وهذا البيت في ديوانه ٣٧٤/٢ بشرح التبريزي بلفظ:

كانت هى الوسط الممنوع فاستلبت ماحولها الخيل حتى أصبحت طرفاً

وسطاً بجميع معاني الوسط الطيب فهي أمة وسط في المكان وفي الزمان وفي الدين بين الإفراط والتفريط لأن الزيادة في الأمر إفراط والتقص فيه تعطيل، أو تقصير وتفريط وهي وسط أيضاً في الأخلاق وفي العقيدة وفي التفكير وفي التنسيق والتنظيم وفي العلم^(١) كل ذلك لتكون أمة القيادة للناس (لتكونوا شهداء على الناس)^(٢) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ماجاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فتشهد أنه قد بلغ وهو قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) والوسط العدل".^(٣)

فهي وسط في العقيدة لاتغلوا في الأنبياء غلو النصارى والبوذيين فتجعلهم آلهة أو أبناء الله ولا تجفوا جفاء اليهود فتقتل بعضهم وتعنت بعضهم الآخر وتحرف الكلم عن مواضعه وتؤمن ببعض الأنبياء والكتب وتكفر ببعض، ولكنها أمة وسط تؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين وما أنزل إليهم من ربهم على الإجمال لاتفرق بين أحد منهم ولا تجنى على كتاب مقدس بالتأويل والتحريف، فموقفهم في العقيدة موقف سليم يأمن الناس فيه من الطائفية التي سببها الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم أو الإيمان بكتاب سماوى واحد دون الكتاب الآخر.^(٤)

-
- (١) انظر صفوة الآثار والمفاهيم ٣٨٩/٢-٣٩٠
 (٢) جزء من الآية (١٤٣) من سورة البقرة.
 (٣) أخرجه البخارى في الصحيح ٤٥٣/٢ كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب قول الله (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) برقم (٣٣٣٩).
 (٤) انظر صفوة الآثار والمفاهيم ٣٩٠/٢

فديننا والله الحمد وسط بين الغلو والتقصير قال تعالى: (قل يَٰأهل الكتب لا تغلوا في دينكم غير الحق)^(١) وقال تعالى: (يَٰأيتها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون).^(٢)

وديننا وسط أيضاً بين التشبيه والتعطيل فيوصف الله عز وجل بما وصف به نفسه ووصفه به أعرف الناس به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تعطيل ومن غير تمثيل كما في قوله تعالى: (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير).^(٣) فقوله تعالى: (ليس كمثله شىء) رد على المشبهة وقوله: (وهو السميع البصير) رد على المعطلة.

وهو وسط كذلك بين الجبر والقدر فالعبد غير مجبور على أفعاله وأقواله، وليست هى بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها، وليست هى مخلوقة للعباد بل هى فعل العبد وكسبه وخلق الله عز وجل. وهو وسط كذلك بين الأمن والإياس.^(٤)

وديننا يدعو أيضاً إلى الوسطية في الأخلاق فلا يترك الحياة كلها للمشاعر والضمائر ولا للترف والميوعة والهوى الذى يعصف بها في تيارات المجون، ولكنه يرفع ضمائر البشر بالتهذيب والتوجيه ويغمرها بتقوى الله ومراقبته لتسلك محاسن الأخلاق مقتدية بالمصطفى صلى الله عليه وسلم وبتعاليم القرآن الكريم.^(٥)

(١) جزء من الآية ٧٧ من سورة المائدة.

(٢) الآيتان ٨٧-٨٨ من سورة المائدة.

(٣) جزء من الآية ١١ من سورة الشورى.

(٤) انظر شرح الطحاوية ٥٨٦-٥٨٨.

(٥) انظر صفة الآثار والمفاهيم ٣٩١/٢-٣٩٢.

فالحب مثلاً للوالدين والأبناء والزوجات والإخوان والأموال مباح
 شرعاً بل هو مما زينه الله عز وجل للناس في هذه الحياة الدنيا^(١) ومع ذلك
 نجد الدعوة إلى الوسطية فيه فلا يفرط فيه حتى يكون صاداً عن دين الله
 وملهياً عن واجب العبد الأساسي، وهو عبادة الله عز وجل ومنسياً له ما
 أعد الله عز وجل للطائعين قال تعالى: (زين للناس حب الشهوات من
 النساء والبنين والقنطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة
 والأنعم والحرث ذلك متع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل
 أوئبيكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار
 خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد).^(٢)

وقال تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم
 وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها
 أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره
 والله لايهدي القوم الفاسقين).^(٣)

إنه مما لاشك فيه أن من يتخذ هذا المنهج العظيم درباً يسلكه فسوف
 يجنب قلبه كثيراً من الأمراض التي قد تصيبه نتيجة إفراط أو تفريط
 كالعشق أو البخل أو الظلم أو الجبن أو غير ذلك.

(١) قال صاحب الإنصاف في حاشيته على الكشف: التزيين للشهوات يطلق ويراد به
 خلق حبها في القلوب وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة لأنه لاخالق
 إلا هو ٤١٦/١٠

(٢) الآيتان ١٤-١٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

المبحث الثالث

التربية القرآنية للقلب عن طريق الترغيب والترهيب

وذلك من طريقين:

الأول: الحديث عن أسباب مرض القلب وضم مرضى القلوب وذكر ماتجلبه هذه الأمراض من مصائب ونكبات فى الدنيا والآخرة:

لقد اهتم القرآن الكريم ببيان أسباب أمراض القلوب اهتماماً عظيماً لأن معرفة سبب الشئ يعتبر شروعاً في علاجه، وكتاب الله الكريم لم يكتف بذكرها فقط بل قام بعرضها بصورة تنفر منها مع التحذير الشديد من مباشرة شئ منها، وذلك سواء بالنسبة للأسباب العامة أو الأسباب الخاصة فنرى مثلاً في معرض ذكره تعالى لابنتائه وامتحانه لعباده وصف من يسقط في هذا الامتحان بالخبث كما في قوله تعالى: (ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)^(١) تحذيراً وتنفيراً من ذلك.

ونرى تارة تصوير من يرتد على أدباره بعد أن هداه الله وبان له الحق بصورة منفرة للغاية قال تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبين).^(٢)

وقال كذلك: (قل أئدعوا من دون الله مالاينفعنا ولايضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدئنا الله كالذى استهوته الشيطان في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى...).^(٣)

(١) جزء من الآية ١٧٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١١ من سورة الحج.

(٣) جزء من الآية ٧١ من سورة الأنعام.

ومن بلاغة هذه الآية أنها أنكرت هذا الفعل من خمسة أوجه:
 أولاً: أن دعاء غير الله تحول وارتداد عن دعاء القادر على كل شيء
 الذى يكشف ما يدعى إليه إن شاء إلى دعاء العاجز الذى لا يقدر على نفع
 ولا ضرر.

ثانياً: أنه نكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء والعرب تقول فيمن
 عجز بعد قدرة أو سفل بعد رفعة أو أحجم بعد إقدام على محمدة نكص
 على عقبه وارتد على عقبه ورجع القهقرى والأصل فيه رجوع الهزيمة أو
 الخيبة والعجز عن السير المحمود ثم صار يطلق على كل تحول مذموم.
 ثالثاً: التعبير بنرد المبني للمجهول بدلاً من التعبير بنرتد أو نرجع
 والنكتة فيه أن هذا التحول المذموم ليس من شأنه أن يقع من عاقل لأن
 العاقل إذا وصل إلى مرتبة عالية من العلم والكمال فإنه لا يختار الرجوع
 عنها واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير وأعلى.
 رابعاً: بيان أن هذا الطريق وهو دعوة غير الله يخالف هدى الله وكل
 ما خالف هدى الله فهو باطل.

خامساً: المثل الذى يصور المرتد في أقبح حالة كانت تتصورها العرب
 وذلك قوله تعالى: (كالذى استهوته الشيطان في الأرض حيران له أصحاب
 يدعونه إلى الهدى ائتنا).

ومعنى استهوته أى ذهبت بهواه وعقله أو بمعنى زينت له هواه. (١)
 ونرى كذلك التحذير من مكائد عدو الله اللعين إبليس كثيراً جداً
 يصعب حصره فلا تكاد تجد حزباً يخلو من ذكره والتحذير منه ومن كيده
 فتارة نرى التحذير منه باسمه (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) (٢)

(١) انظر تفسير المنار ٥٢٣/٧-٥٢٤

(٢) جزء من الآية ٦ من سورة فاطر.

(ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) (١)
(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون). (٢)

وتارة بذكر مكائده وفضحها قال تعالى: (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلّهما بغرور) (٣) وقال تعالى كذلك: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم) (٤)
وقال تعالى ذاكرًا تراه -عليه لعنة الله- يوم القيامة ممن يتبعه: (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) (٥) كل ذلك وغيره في مواضع متعددة وبأساليب مختلفة ليحذر الناس منه أشد الحذر فتسلم لهم قلوبهم ويسلم لهم إيمانهم.

ونرى كذلك ذكر الجهل وضعف البصيرة كسبب من أسباب مرض القلب والتحذير منه والترهيب من الوقوع فيه وقد جاء ذلك عن طريق بيان ما يؤدي إليه من الوقوع في السوء من الأقوال والأعمال قال تعالى: (كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهلته ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) (٦) وكذلك عن طريق الثناء على العلم وترتيب حصول السلامة للقلب على الظفر به وبالتالي يظهر جلياً سوء

(١) الآية ٦٠ من سورة يس.

(٢) جزء من الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٢١ وجزء من الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة.

(٥) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٦) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

الجهل وما يؤدي إليه من فقد لأسباب السلامة، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).^(١)

وقال كذلك: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)^(٢) قالت عائشة رضي الله عنها: "كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بحكمة ومتشابهه ولا يعلمونه".^(٣) وقال تعالى: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)^(٤)، فالخشية والإيمان بالمحكم والمتشابه والإخبارات كل ذلك إنما يحصل لمن بالعلم تحصن وعن الجهل تترس، وأما الجاهل فلا حظ له من ذلك بل هو في الدنيا غارق في الشبهات والشهوات وفي الآخرة يخشى عليه من عذاب النار (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین).^(٥)

ونرى كذلك ذكر أسباب مرض الشبهات ومرض الشهوات وبيان ذلك بياناً شافياً كافياً والتحذير الشديد والترهيب العظيم من كل ذلك. ولبیان ذلك نورد بعض الأمثلة:

لقد حذر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم من الهوى أشد تحذير وبين أن ضلال من ضل إنما كان بسبب هذا الداء العضال وذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ)^(٦) وقوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(٧) وأخير أن من

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٢) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٧٦/٢ برقم ١٢٩ وقال محقق هذا الجزء الدكتور حكمت بشير إسناده صحيح.

(٤) جزء من الآية ٥٤ من سورة الحج.

(٥) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٦) جزء من الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٧) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص.

اتبع أهواء أهل الكفر والبغى فلن يجد له من دون الله من ولي ولا نصير فقال تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)^(١)

وحذر تعالى من الإفراط في حب المباحات والغلو في تعاطيها حتى تؤدي بعاشقها إلى التقصير في حقوق الله تبارك وتعالى فقال تعالى: (يأيها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم)^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة"^(٣).

الطريق الثاني: الحديث عن القلب السليم بذكر أسباب سلامته وما أعد لأصحابه من الخير في الدنيا والآخرة.

فكما اهتم القرآن الكريم ببيان أسباب مرض القلب والتحذير منها فقد اهتم ببيان أسباب سلامته والترغيب فيها لأن غشيان أسباب السلامة والنهل من معينها هو من باب التحلية التي تعقب التحلية.

وأهم أسباب سلامة القلب سلامة العقيدة وصفائها ولذلك فكتاب الله عز وجل كله يقرر التوحيد بأنواعه لأنه:

إما خبر عن الله عز وجل وما يجب أن يوصف به وما يجب أن يتره عنه وهو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي.

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه وهو

التوحيد الطلبي الإرادي.

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة التغابن.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٤٦

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك حقوق التوحيد ومكملاته.
 وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا من النصر
 والتأييد وما يكرمهم الله به في الآخرة وهو جزاء توحيده، أو خبر عن أهل
 الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يفعل بهم في العقبى من
 العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده.^(١)
 والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها قوله تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم
 يكن له كفواً أحد).^(٢) وذلك في التوحيد العلمى الحبرى الاعتقادي.
 وقوله تعالى: (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد
 وادعوه مخلصين له الدين).^(٣) وذلك في التوحيد الطلبي الإرادي.
 وقوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة فإخوانكم
 في الدين).^(٤)

وقوله تعالى: (إنا المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا
 تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون).^(٥) وذلك في ذكر
 حقوق التوحيد ومكملاته.

منها أيضاً في ذكر جزاء أهل التوحيد في الدنيا والآخرة قوله تعالى:
 (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون).^(٦)
 ومنها أيضاً في ذكر جزاء أهل الشرك في الدنيا وما حل بهم من

(١) انظر مختصر معارج القبول ص ٢١-٢٢

(٢) سورة الإخلاص بأكملها.

(٣) جزء من الآية ٢٩ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ١١ من سورة التوبة.

(٥) الآية رقم ٢ من سورة الأنفال.

(٦) الآية رقم ٨٢ من سورة الأنعام.

العذاب قوله تعالى: (فإن أعرضوا فقل أُنذرتكم صُعة مثل صُعة عاد وثور إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).^(١)
قال سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية:

إنها جولة في مضارع الغابرين جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية
مضارع المستكبرين^(٢)

ومنها في ذكر مصير المشركين البئس يوم القيامة وما يلقونه من عذاب وتنكيل قوله تعالى: (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون).^(٣) وقوله تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم)^(٤)، (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون)^(٥) وكما اهتم كتاب الله الكريم بالتوحيد هذا الاهتمام العظيم فقد اهتم أيضاً بأسباب السلامة الأخرى فيها هي عبادات الإسلام تملأ الكتاب الكريم أمراً بها وحثاً على فعلها وتحذيراً من التهاون فيها سواءً في ذلك الظاهرة والباطنة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء بالوعد وأداء الأمانة والخوف والتقوى وغير ذلك من أنواع العبادات قد شغل حيزاً كبيراً في كتاب الله عز وجل.^(٦)

(١) الآيتان ١٣ و١٤، من سورة فصلت.

(٢) في ظلال القرآن ٣١١٧/٢٤

(٣) الآية ٢٢ من سورة الأنعام.

(٤) الآيتان ٢٢-٢٣ من سورة الصافات.

(٥) الآية ١٩ من سورة فصلت.

(٦) انظر ذلك بالتفصيل في الباب الأول/الفصل الثاني.

المبحث الرابع:

التربية بالقدوة وضرب المثل.

مما هو معلوم أن التربية بالقدوة تعتبر أرقى أنواع التربية لأنها واقع حي ملموس يدعو إلى الامتثال بالعمل قبل القول ولذا فإنها أبلغ وأكثر تأثيراً من التربية بالمقال^(١)

وقد اهتم القرآن الكريم بذكر كثير من الشخصيات الصالحة لأن يقتدى بها أعظمها شخصيه خاتم النبيين وإمام المتقين محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)^(٢)، ولقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن"^(٣) وقال تعالى: (وإنك لعلی خلق عظیم)^(٤) ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته ولما فيه من أسس تربوية إسلامية وأساليب تربوية قرآنية^(٥)

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)

(١) انظر معالم في التربية للدكتور عجيل جاسم النشمى ص ١٧٥

(٢) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح ٥١٢/١-٥١٣ كتاب صلاة المسافرين (٦) باب جامع

صلاة الليل (١٨) برقم ٧٤٦/١٣٩

(٤) الآية (٤) من سورة (ن).

(٥) أصول التربية الإسلامية وأساليبها للنحلاوى ص ٢٢٩

قال رحمه الله: هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)^(١) والمتتبع لكتاب الله وسنة رسول الله يعجب من عظمه سيرته صلى الله عليه وسلم فهو القدوة والأسوة في كل الأمور الدنيوية والأخروية في رسوخ العقيدة وفي التعامل وفي العبادة وفي الإخلاص وسلامة القلب صلوات الله وسلامه عليه.^(٢)

ومن القدوات التي ذكرها القرآن العظيم أبونا آدم عليه السلام فهو قدوة صالحة في مقام التوبة والاستغفار (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).^(٣)

ومنها نوح عليه السلام فهو قدوة صالحة في مقام الصبر والتحمل في سبيل الدعوة إلى التوحيد (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً)^(٤) وقال تعالى عن نوح عليه السلام

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٩٢/٦

(٢) يمكن الرجوع في ذلك إلى كتب السيرة النبوية وكتب الشمائل كسيرة ابن هشام والبداية والنهاية ودلائل النبوة للبيهقي والسيرة النبوية لابن حبان وتاريخ الطبري وابن الأثير وتاريخ خليفة بن خياط والصحيحين والسنن والمسانيد والصحاح والشمائل ككتاب الأنوار في شمائل النبي المختار للبعثي والشمائل للترمذي وغيره ولأنني أعتقد أنني لو ذكرت أمثلة لبعض ذلك سوف أتقص الموضوع حقه بل سيكون كلاماً مبتوراً قليلاً فإني لم أذكر أى مثال واكتفيت بهذه الإحالة والله المستعان.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ١٤ من سورة العنكبوت.

(قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعاءي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً)^(١) وهو قدوة كذلك في مقام البراءة من المشركين ولو كانوا أقرب الناس (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحكمين قال ينوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)^(٢) وهو قدوة في الاستعانة بالله عند الركوب والتزول وفي جميع التقلبات والحركات وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقات^(٣) قال تعالى: (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسها)^(٤) وقال تعالى: (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين)^(٥) وهو قدوة كذلك في مقام الشكر قال تعالى: (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً)^(٦).

ومن القدوات التي ذكرها القرآن الكريم نبي الله هود عليه السلام فهو قدوة في التوكل على الله تعالى والبراءة من الشرك وأهله:

(١) الآية ٥-٩ من سورة نوح.

(٢) الآيات ٤٥-٤٧ من سورة هود.

(٣) انظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للشيخ عبدالرحمن السعدي

ص ١٥٠

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة هود.

(٥) الآيتان ٢٨ و ٢٩ من سورة المؤمنون.

(٦) الآية ٣ سورة الإسراء.

(قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنتظرون إنى توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم).^(١)

وهو قدوة في الوعظ والتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا الفانية والدعوة إلى تقوى الله وطاعته (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون).^(٢) ومن القدوات التى ذكرها القرآن كذلك أنبياء الله صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين الذين يمثلون أروع القدوات في تاريخ البشرية (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده).^(٣)

وأما ضرب المثل:

فالمثل الشبه يقال مِثْل ومَثَل وشَبّه وشَبّه بمعنى واحد^(٤) وهو تشبيه شىء بشىء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.^(٥)

واختير له لفظ الضرب لأنه يأتى عند إرادة التأثير وتهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه وينتهى إلى أعماق نفسه.^(٦)

(١) جزء من الآية ٥٤ والآيتان ٥٥ و٥٦ من سورة هود.

(٢) الآيات ١٢٨-١٣١ من سورة الشعراء.

(٣) جزء من الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٤) اللسان عند مادة (مثل) ٦١٠/١١

(٥) الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ص ٩

(٦) تفسير المنار ٢٣٦/١ وقد عزا صاحب المنار هذا القول لشيخه محمد عبده.

والمقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب مالا يؤثره وصف الشيء في نفسه وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين أمثاله قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس) (١)(٢) وسأتكلم فيما يلي باختصار على أحد أمثلة القرآن مع بيان لبعض أهدافه التربوية:

قال تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال). (٣)

فشبه الله عز وجل الوحي الذي أنزله حياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله حياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماءً كثيراً وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها كما أن السيل إذا خالط الأرض ومن عليها احتملت غشاء

(١) جزء من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ٨٠/٢

(٣) الآية ١٧ من سورة الرعد.

وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار مافيهما من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيكرب بها شاربه وهى من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يساكنها وهكذا (يضرب الله الحق والباطل) ثم يستقر في قرار الوادى الماء الصافي الذى يسقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القلب وجذوره الإيمان الخالص الصافي الذى ينفع صاحبه ويتنفع به غيره. (١)

ومن أهداف ضرب هذا المثل بيان سنة الله عز وجل بضرب الحق والباطل بعضهما ببعض وأن ذلك سبب لرفعة الحق مما يدفع المؤمن إلى التحلى بالصبر عند اشتداد الكروب وتسلط الظلمة والكافرين على المؤمنين الصادقين مما يزيد قلوب المؤمنين يقيناً واطمئناناً في حين أن قلوب المنافقين قد تزلزلت واضطربت وماجت.

ومن أهدافه كذلك تخويف السامع من الباطل وأهله وأن مصيرهم الاضمحلال والأفول وترغيبه بأن يكون من أهل الحق الذين لهم العاقبة (والعقبة للمتقين). (٢) والله ولى التوفيق.

(١) انظر الأمثال في القرآن لابن القيم ص ١٢

(٢) جزء من الآية ٨٣ من سورة القصص.

الباب الثالث حديث القرآن عن القلب الميت

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أوصاف القلب الميت.

الفصل الثاني: أسباب موت القلب.

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة القلب الميت.

الفصل الأول أوصاف القلب الميت

وفيه خمسة عشر مبحثاً:

- المبحث الأول: الزيغ.
- المبحث الثاني: النفاق.
- المبحث الثالث: الريب.
- المبحث الرابع: الإنكار.
- المبحث الخامس: الاشمئزاز.
- المبحث السادس: الرعب.
- المبحث السابع: التحسر.
- المبحث الثامن: النجاسة.
- المبحث التاسع: التشتت.
- المبحث العاشر: الطبع والختم والرين والكن والقفل والتغليف.
- المبحث الحادى عشر: القسوة.
- المبحث الثاني عشر: العمى.
- المبحث الثالث عشر: الغفلة.
- المبحث الرابع عشر: الكبر.
- المبحث الخامس عشر: الغل للمؤمنين

المبحث الأول

الزيف

الزيف الميل زاع يزيف زيفاً وزيفاناً وزيوغاً وزيوغوة وأزغته أنا
إزاعةً وهو زائع من قوم زاغة: مال^(١) والمراد بالزيف في كتاب الله عز
وجل الميل عن الاستقامة^(٢) وقال بعضهم: هو أخص من مطلق الميل فإن
الزيف لا يقال إلا لما كان من حق إلى باطل.^(٣) قال تعالى: (فأما الذين في
قلوبهم زيف فيتبعون ماتشبهه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله).^(٤)

قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه فأما الذين في
قلوبهم ميل عن الحق وانحراف عنه، يقال منه: زاع فلان عن الحق، فهو
يزيف عنه زيفاً وزيفاناً وزيوغوة وزيوغاً، وأزاعه الله: إذا أماله فهو يزيفه،
ومنه قوله جل ثناؤه (ربنا لاتزغ قلوبنا).^(٥) لاقلها عن الحق (بعد إذ
هديتنا) ونقل هذا المعنى عن عدد من أهل التفسير ثم قال رحمه الله عند
قوله تعالى: (فيتبعون ماتشبهه منه) أى ماتشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه
بوجوه التأويلات ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ما هم
عليه من الضلالة والزيف عن حجة الحق تلبساً منهم بذلك على من ضعفت
معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصارييف معانيه.^(٦)

كما قال ابن عباس رضى الله عنهما (فيتبعون ماتشبهه منه) فيحملون

(١) اللسان عند مادة زيف ٤٣٢/٨

(٢) انظر المفردات مادة زيف ص ٢١٧

(٣) انظر الدر المصون ٢٧/٣

(٤) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٥) جزء من الآية ٨ من سورة آل عمران.

(٦) انظر جامع البيان ١٧٦/٣

(٧) جزء من الآية ٧ من سورة آل عمران.

المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ويلبسون فلبس الله عليهم. (١)
ثم ذكر رحمه الله اختلافاً بين أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية
فقال بعضهم عني بها وفد نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فحاجوه بما حاجوه به، وخاصموه بأن قالوا: ألسنت
تزعّم أن عيسى روح الله وكلمته، وتأولوا في ذلك ما يقولون فيه من
الكفر، وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية في أبي ياسر بن أخطب وأخيه
حيي بن أخطب والنفر الذين ناظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم في
قدر مدة أجله وأجل أمته وأرادوا علم ذلك من قبل قوله: (الم، والمص،
والمر، والر) فقال جل ثناؤه فيهم: (فأما الذين في قلوبهم زيغ) يعنى
هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحق (فيتبعون ماتشبهه منه)
يعنى معانى هذه الحروف المقطعة المحتملة التصريف في الوجوه المختلفة
التأويلات ابتغاء الفتنة.

وقال آخرون بل عني الله عز وجل بذلك كل مبتدع في دينه بدعة
مخالفة لما ابتعث به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بتأويل يتأوله من
بعض آى القرآن المحتملة التأويلات وإن كان الله قد أحكم بيان ذلك
إما في كتابه أو على لسان رسوله.

ثم نقل رحمه الله عن قتادة قوله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ
فيتبعون ماتشبهه منهم ابتغاء الفتنة) قال: إن لم يكونوا الحورية والسبية
فلا أدرى من هم ولعمري لقد كان في أهل بدر والحديبية الذين شهدوا
مع رسول الله بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار خبر لمن استخبر
وعبرة لمن استعبر لمن كان يعقل أو يبصر إن الخوارج خرجوا وأصحاب

رسول الله يومئذ كثير بالمدينة والشام والعراق وأزواجه يومئذ أحياء والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حرورياً قط ولا رضوا الذى هم عليه ولا مالؤوهم فيه بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله إياه ونعته الذى نعتهم به وكانوا يبغضونهم بقلوبهم ويعادونهم بألسنتهم وتشتد والله عليه أيديهم إذا لقوهم ولعمري لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع ولكنه كان ضلالاً فتفرق وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافاً كثيراً فقد أُلصوا^(١) هذا الأمر منذ زمان طويل فهل أفلحوا فيه يوماً أو أنجحوا ؟ ياسبحان الله كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم لو كان على هدى قد أظهره الله وأفلحه ونصره ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه، فهم كما رأيتهم كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم وأكذب ألدوثتهم وأهرق دماءهم ذاكم والله دين سوء فاجتنبوه والله إن اليهودية لبدعة وإن النصرانية لبدعة وإن الحرورية لبدعة وإن السبئية لبدعة مانزل بهن كتاب ولاسنهن نبي.^(٢)

والذى يبدو أنه يعنى بها كل من جادل فيما ليس له به علم ثم تتبع المتشابه من آيات الله ليستدل به على باطله بصرف الكلام عن وجهه والأدلة عن مدلولاتها ويدخل في ذلك دخولاً أولياً كل من وقع منه ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كنصارى وفد نجران ومن جادل في مدة أجل النبي صلى الله عليه وسلم وأجل أمته.

ومن أجل ذلك قال تعالى معلماً عباده ذلك الدعاء العظيم:

(١) أُلص الأمر بمعنى أداره على الشيء الذي يريده. انظر اللسان مادة (لوص)

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ١٧٨/٣

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).^(١) أى لا تلهيها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ماتشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم (وهب لنا من لدنك) أى: من عندك (رحمة) تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً (إنك أنت الوهاب).^(٢)

وقد روت أم سلمة^(٣) رضى الله عنها قالت: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت: فقلت يارسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال يا أم سلمة: إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ".^(٤)

(١) الآية ٨ من سورة آل عمران.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩/٢

(٣) هى أم المؤمنين هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمر المخزومية بنت عم خالد ابن الوليد سيف الله المسلول من المهاجرات الأول كانت قبل النبي صلى الله عليه وسلم عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي الرجل الصالح، دخل بها النبي صلى الله عليه وسلم في سنة أربع من الهجرة وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً، وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين وكانت تعد من فقهاء الصحابيات، توفيت سنة ٥٩هـ. أنظر سير أعلام النبلاء ٢/٢٠١، شذرات الذهب ٦٩/١

(٤) أخرجه الترمذي في السنن ٤٤٨/٤ كتاب القدر (٣٣) باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن (٧) برقم ٢١٤٠ عن أنس رضى الله عنه.

وقال: وهذا حديث حسن. وابن ماجه في السنن ١٢٦٠/٢ كتاب الدعاء (٣٤) باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) برقم ٣٨٣٤ وصححه الألباني

المبحث الثاني

النفاق

مأخوذ من النفق وهو سرب في الأرض مشتق إلى موضع آخر.
ومنه النُّفَّة والنَّافِقَاء وهو جحر الضب واليربوع، وقيل: النفقة
والنفاق موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب
النفاق برأسه فخرج، وَنَفَقَ اليربوع وَنَفَقَ وَنَتَفَقَ وَنَفَقَ: خرج منه. (١)
وهو في الاصطلاح ستر الكفر وإظهار الإيمان وهو اسم إسلامي لم
تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وإن كان أصله في اللغة معروفاً. (٢)
وقد ذكر ابن حجر رحمه الله أن النفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر
فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر وإلا فهو نفاق العمل ويدخل فيه
الفعل والتترك وتفاوت مراتبه. (٣)
وبهذا يتضح أن النفاق نوعان: نفاق اعتقاد ونفاق عمل فنفاق الاعتقاد
إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

ونفاق العمل الوقوع ببعض الذنوب التي نص على أنها من خصال
المنافقين كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث إذا حدث
كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان" (٤) وكما في قوله صلى الله
عليه وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن

(١) اللسان عند مادة (نفق) ٣٥٨/١٠

(٢) انظر النهاية لابن الأثير ٩٨/٥ عند مادة (نفق).

(٣) انظر فتح الباري ٨٩/١

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٧/١ كتاب الإيمان (٢) باب علامة المنافق (٢٤)

الحديث (٣٣) ومسلم في الصحيح ٧٨/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال

كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أئتمن خان وإذا حدث كذب
وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر".^(١)

والمراد هنا النوع الأول وهو النفاق الاعتقادي وهو بلا شك متضمن
للتنوع الثاني.

قال تعالى في ذم من اتصف بذلك: (ومن الناس من يعجبك قوله في
الحيوة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام).^(٢)

قال ابن كثير: قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق^(٣) جاء إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك.^(٤)
وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في نفر من المنافقين.^(٥)
وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم، وهذا قول
قتادة ومجاهد والربيع^(٦) وهو الصحيح.^(٧)

وقد بين الله عز وجل بأن موطن النفاق هو القلب فقال تعالى:
(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٧/١-٢٨ كتاب الإيمان (٢) باب علامة المنافق (٢٤)

برقم ٣٤

(٢) الآية (٢٠٤) من سورة البقرة.

(٣) هو الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى أبو ثعلبة حليف بنى زهرة
لقب بالأخنس لأنه رجع ببني زهرة من بدر لما جاءهم الخير بنجاة أبي سفيان
بالعير، ذكر ابن حجر أنه أسلم ثم ارتد ثم أسلم، توفى أول خلافة عمر.

انظر الإصابة ٣٩/١ برقم ٦١، الكامل ١٢١/٢

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣١٣/٢ وابن هشام في السيرة ١٦٣/٣

(٥) انظر جامع البيان ٣١٣/٢

(٦) هو الربيع بن أنس بن زياد البكرى الخراساني المروزي بصرى سمع أنس بن
مالك وأبا العالية الرياحى وأكثر عنه والحسن البصرى وكان عالم مرو في زمانه،
توفى سنة ١٣٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٦٩/٦، تهذيب التهذيب ٢٣٨/٣

(٧) تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/١، وانظر جامع البيان ٣١٣/٢-٣١٤

فلما ءاتتهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم). (١)

والنفاق من أخطر أوصاف القلب الميت توعده الله عز وجل عليه بأشد العذاب (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار). (٢)

ومما هو معلوم أن هذا الوصف تصحبه أمراض كثيرة منها الكذب والخذاع، فالمنافق مضطر إلى الكذب في كل وقت لأن ظاهره يخالف باطنه ولا بد له من كتمان ما في باطنه وإظهار خلافه دائماً لئلا يظهر فيفتضح ويعاقب ولا يحصل ذلك إلا بالكذب. (٣) قال تعالى: (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم...) (٤) وقال تعالى كذلك: (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) (٥) وقال تعالى كذلك: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون). (٦)

ومنها الخوف الشديد من افتضاح أمره قال تعالى: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تخذرون). (٧)

نعوذ بالله العظيم من النفاق وأهله ونسأله تعالى أن يرزقنا الإخلاص

في السر والعلن.

(١) الآيتان ٧٥ و ٧٦ و جزء من الآية ٧٧ من سورة التوبة.

(٢) جزء من الآية ١٤٥ من سورة النساء.

(٣) انظر تفسير المنار ٥٥٩/١٠

(٤) جزء من الآية ١١ من سورة الفتح.

(٥) الآية ١٤ من سورة المجادلة.

(٦) الآية ١ من سورة المنافقون.

(٧) الآية ٦٤ من سورة التوبة.

المبحث الثالث

الريب

الريب والريبة الشك والظنة والتهمة^(١) يقال رابني الشيء وأرابني بمعنى شككني.^(٢)

قال تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ).^(٣)
والريب هنا يراد به الشك في الدين.^(٤) وأضيف الشك إلى القلب لأنه محل المعرفة والإيمان أيضاً فإذا داخله الشك كان ذلك نفاقاً.^(٥)

وحيث إن الريب ينافي كلمة التوحيد فقد نزه الله عز وجل عباده المؤمنين عنه بقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).^(٦)
قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره للأعراب الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَيْهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا يَقُول: ثُمَّ لَمْ يَشْكُوا فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَلَا فِي نُبُوَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ طَاعَةَ اللَّهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ وَالْعَمَلَ بِمَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ بِغَيْرِ شَكٍّ مِنْهُمْ فِي وَجوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.^(٧)
وقد بين تبارك وتعالى أن هذا الوصف الخطير لازم لأهل النفاق

(١) اللسان عند مادة (ريب) ٤٤٢/١

(٢) النهاية عند مادة (ريب) ٢٨٦/٢

(٣) الآية ٤٥ من سورة التوبة.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٥٦/٨ وتفسير الخازن ١٠٣/٣

(٥) تفسير الخازن ١٠٣/٣

(٦) الآية ١٥ من سورة الحجرات.

(٧) جامع البيان ١٤٤/٢٦

والخداع حتى يقلعوا عما هم عليه ويتوبوا أو يهلكوا وذلك أنهم لحب نيتهم سيظلون في خوف دائم وارتياب مستمر أن يكشف أمرهم ويفتضح حالهم ، قال تعالى: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تخذرون)^(١)

وقال تعالى: (لا يزال بنيانهم)^(٢) الذى بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم)^(٣)

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم) يعنى شكاً (إلا أن تقطع قلوبهم) يعنى الموت.^(٤)

(١) الآية ٦٤ من سورة التوبة.

(٢) المراد بهذا البيان مسجد الضرار الذى قال الله فيه: (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً...) (التوبة: ١٠٧).

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح... فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحن أن تصلى فيه فتدعوا لنا بالبركة فأنزل الله فيه (لا تقم فيه أبداً...) (التوبة: ١٠٨). وهذا الأثر أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٤/١١

(٣) الآية ١١٠ من سورة التوبة.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٣/١١

المبحث الرابع

الإنكار

الإنكار^(١) الجحود والإنكار ضد العرفان يقال: أنكرت كذا ونكرت وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل، قال تعالى: (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم)^(٢) وذلك فيما يذكر باللسان وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب ولكن ربما ينكر اللسان الشيء وصورته في القلب حاصلة ويكون في ذلك كاذباً وعلى ذلك قوله تعالى: (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها)^(٣) وقوله تعالى: (إلهم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون).^(٤)

وهذه الآية الكريمة تبين أن الإنكار محله القلب، وأن إنكار الحق من أوصاف القلوب الميتة التي لا يؤمن أصحابها بالآخرة.

قال المراغي^(٥): أى فالذين لا يصدقون بوعده الله ولا وعيده ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته وجزيل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له والألوهية ليست لشيء سواه، فلا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير، وهم مستكبرون عن قبول الحق متعظمون عن الإذعان للصواب مستمرون على الجحد تقليداً لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).^(٦) وقولهم:

(أجعل الألهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب)^(٧).^(٨)

(١) انظر اللسان عند مادة (نكر) ٢٣٣/٥، والمفردات مادة (نكر) ٥٠٥

(٢) جزء من الآية ٧٠ من سورة هود.

(٣) جزء من الآية ٨٣ من سورة النحل.

(٤) الآية ٢٢ من سورة النحل.

(٥) هو أحمد بن مصطفى المراغي مفسر مصرى تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩م توفي بالقاهرة، له عدة كتب منها الحسبة في الإسلام والوجيز في أصول الفقه، وتفسير

المراغي وغيرها. انظر الأعلام ٢٥٨/١

(٦) جزء من الآية ٢٣ من سورة الزخرف.

(٧) الآية ٥ من سورة ص

(٨) تفسير المراغي ٦٧/١٤

المبحث الخامس

الاشمئزاز من ذكر الله عز وجل

الشمز: التقبض. اشمأز اشمئزازاً: انقبض واجتمع بعضه إلى بعض.

والشمز نفور النفس من الشيء تكرهه. (١)

قال تعالى: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون

بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون). (٢)

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قوله: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت

قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة): أي نفرت قلوبهم واستكبرت (وإذا ذكر

الذين من دونه) الآلهة (إذا هم يستبشرون). (٣)

وأخرج عن مجاهد قوله (اشمأزت) قال: انقبضت. قال وذلك يوم

قرأ عليهم النجم عند باب الكعبة. (٤)

وأخرج عن السدي قوله: (اشمأزت) قال: نفرت (وإذا ذكر الذين

من دونه) أو ثانهم. (٥)

قال سيد قطب عند هذه الآية: والآية تصف واقعة حال على عهد

النبي صلى الله عليه وسلم حين كان المشركون يهشون وييشون إذا ذكرت

آلهتهم، وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد. ولكنها تصف حالة

نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان. فمن الناس من تشمأز قلوبهم

وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهاً، وإلى شريعة الله وحدها

(١) اللسان عند مادة شمز ٣٦٢/٥

(٢) الآية ٤٥ من سورة الزمر.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٠/٢٤

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٠/٢٤

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١١/٢٤

حاكماً، وإلى منهج الله وحده نظاماً، حتى إذا ذكرت المناهج والنظم والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث وفتحوا صدورهم للأخذ والرد، هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجاً منهم في هذه الآية وهم بذاتهم في كل زمان ومكان، هم المسوخوا الفطرة، المنحرفوا الطبيعة، الضالون المضلون مهما تنوعت البيئات والأزمنة، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام. (١)

المبحث السادس:

الرعب:

الرعب هو الفزع والخوف رعبه يرعبه رعباً ورعباً فهو مرعوب ورعيب: أفزعته. (١)

والرعب هو الانقطاع من امتلاء الخوف، قيل رعبت الحوض ملأته وسيل راعب يملأ الوادي ورعبت السنام قطعته. (٢)
فالقلوب الميتة قلوب مرعوبة فزعة غير مطمئنة لأن الاطمئنان إنما يأتي من ذكر الله عز وجل (٣) وهي أبعد ماتكون عن ذلك

وهذا الرعب إنما ألقاه الله عز وجل في قلوبهم جزاء تكذيبهم آياته ورسله، قال تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتب من ديارهم لأول الحشر ماظنتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار). (٤)

فالمراد بالذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير (٥)، وقوله تعالى: (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) أي أتاها من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم! أتاها من قلوبهم فقذف فيها الرعب ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإراداتهم وتصميمهم! فضلاً على أن يمتنعوا

(١) اللسان عند مادة (رعب) ٤٢٠/١

(٢) انظر المفردات عند مادة (رعب) ص ١٩٧

(٣) كما قال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد: ٢٨).

(٤) جزء من الآية ٢ من سورة الحشر.

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١٧٨/٣-١٧٩

عليه بينانهم وحصونهم، وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاها الله منها. (١) وقد ورد ذكر إلقاء الرعب في قلوب الكفار عند لقاءهم للذي آمنوا في عدة مواضع من كتاب الله عز وجل غير هذا الموطن (٢) ليظهر من كل ذلك أن مايلقيه الله عز وجل من الرعب في قلوبهم سبب رئيس لنصر المسلمين وتخاذل أعداء الدين عند التقاء الصفوف وتلاحم الجيوش.

-
- (١) في ظلال القرآن ٣٥٢١/٢٨-٣٥٢٢
 (٢) كقوله تعالى: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) (آل عمران: ١٥١) وذلك يوم أحد، وقوله تعالى: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (الأنفال: ١٢) وذلك يوم بدر، وقوله تعالى: (وأُنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً) (الأحزاب: ٢٦) وذلك في غزوة بني قريظة وإلقاء الرعب في قلوب من يقف في وجه الدعوة الإسلامية خاص بهذه الأمة المباركة أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما روى البخارى في الصحيح ١٢٦/١، كتاب التيمم برقم ٣٣٥ ومسلم في الصحيح ٣٧٠/١ كتاب المساجد برقم ٥٢١/٣
 أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً (الحديث).

المبحث السابع:

التحسر:

حَسِرَ يَحْسِرُ حَسَرًا وَحَسْرَةً وَحَسْرَانًا فَهُوَ حَسِيرٌ وَحَسِرَانٌ إِذَا اشْتَدَّتْ ندامته على أمر فاته. (١)

والحسرة مكانها القلب قال تعالى: (يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَمَاطُوا وَمَاقَتَلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ بَصِيرٌ). (٢)

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد قوله تعالى: (وقالوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى) قول المنافق عبدالله بن أبي بن سلول. (٣) وقوله: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم (٤) وقيل: اللام متعلقة بقوله (قالوا) أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم والمراد أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ماقتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله: لا تكونوا أي لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك ليحمله الله حسرة في قلوبهم فقط دون قلوبكم، وقيل المعنى لا تلتفتوا إليهم يجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم، وقيل المراد حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزي والندامة. (٥)

(١) اللسان عند مادة حسر ١٨٨/٤ وانظر المفردات مادة (حسر) ص ١١٨

(٢) الآية ١٥٦ من سورة آل عمران.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤٦/٤

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٢٧/٢

(٥) فتح القدير ٣٩٣/١

ولكن قد لا يشعر أصحاب القلوب الميتة في كثير من الأحيان بتلك الحسرة المحرقة لقاء تكذيبهم وزيغهم عن الحق والذنوب التي رانت على قلوبهم ولكن من المؤكد قطعاً أنهم حين يرون ماسيلحهم من الخسران يوم القيامة سيعض كل واحد منهم على يديه حسرة وندامة. (١) (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يلحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون). (٢)

أخرج ابن جرير عن السدي قوله: (يلحسرتنا على ما فرطنا فيها) أما ياحسرتنا: فندامتنا على ما فرطنا فيها فضيعنا من عمل الجنة. (٣)

وحسرة يوم القيامة حسرة عظيمة لأنها تكون في وقت لا يمكن فيه استدراك ما فات قال تعالى: (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرت عليهم وما هم بخارجين من النار). (٤) فكما أراهم الله عز وجل العذاب (٥) يريهم أعمالهم الخبيثة حسرات عليهم يعني ندامات لم عملوا بها وهلا عملوا بغيرها فندموا على ما فرط منهم من أعمالهم الردئية إذا رأوا جزاءها وعقابها من الله عز وجل (٦) وقال تعالى: (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسنفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون). (٧)

-
- (١) كما قال تعالى: (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) (الفرقان: ٢٧).
- (٢) الآية ٣١ من سورة الأنعام.
- (٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٧٩/٧
- (٤) الآية ١٦٧ من سورة البقرة.
- (٥) كما في الآية التي قبل هذه الآية وهي قوله تعالى: (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) (البقرة: ١٦٦).
- (٦) انظر جامع البيان ٧٥-٧٣/٢
- (٧) الآية ٣٦ من سورة الأنفال.

أخرج ابن جرير عن السدي قال: قال الله فيما كان المشركون، ومنهم أبو سفيان يستأجرون الرجال يقاتلون محمداً صلى الله عليه وسلم بهم (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) يقول ندامة يوم القيامة وويللاً (ثم يغلبون).^(١)

إن يوم القيامة يوم تشتد فيه الحسرات حتى لكأنه ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها^(٢) ولذلك سماه الله عز وجل يوم الحسرة فقال تعالى: (وأُنذِرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون)^(٣) وتشتد الحسرة ويعظم الخطب عندما يذبح الموت بين الجنة والنار ويقال لأهل كلٍّ منهما خلود فلا موت فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ "وأُنذِرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة -وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا- وهم لا يؤمنون".^(٤)

نسأل الله عز وجل أن لا يجعلنا من أهل الحسرة وأن يوفقنا لما يحبه

ويرضاه.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٤٥/٩

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢٣٠٩/١٦

(٣) الآية ٣٩، من سورة مريم.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح ٢٥٨/٣ كتاب التفسير باب (وأُنذِرهم يوم الحسرة)

المبحث الثامن:

النجاسة:

وهي القذارة وذلك ضربان: حسية ومعنوية^(١)
 فالقلوب الميتة قلوب نجسة غير طاهرة قال تعالى: (إنما المشركون نجس
 فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا)^(٢)
 والمراد بالنجاسة في هذه الآية النجاسة المعنوية^(٣) وهذه النجاسة إنما
 أتت المشرك من قبل قلبه الذي لم يطهر من أدران الشرك والزيغ والضلال
 قال تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي
 ولهم في الآخرة عذاب عظيم)^(٤)
 قال صاحب المنار عند قوله تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله أن
 يطهر قلوبهم) أي أولئك الذين بلغت منهم الفتنة هذا الحدهم الذين لم
 تتعلق إرادة الله تعالى بتطهير قلوبهم من الكفر والنفاق لأن إرادته تعالى
 إنما تتعلق بما اقتضته حكمته البالغة وسنته العادلة، ومن سنته في قلوب
 البشر وأنفسهم أنها إذا جرت على الباطل والشر ونشأت على الكيد والمكر
 واعتادت اتخاذ دينها شبكة لشهواتها وأهوائها ومردت على الكذب والنفاق،
 وألفت عصبية الخلاف والشقاق، وصار ذلك من ملكاتها الثابتة وأخلاقها

(١) انظر المفردات ص ٤٨٣ عند مادة نجس.

(٢) الآية ٢٨ من سورة التوبة.

(٣) كما هو قول جمهور أهل العلم وخالفهم في ذلك بعض الظاهرية فذهبوا إلى
 نجاسة أبدانهم والمترجح هو قول الجمهور لما ورد من أن النبي صلى الله
 عليه وسلم بعث خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثامة بن
 أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد، وهو مشرك فلو كان نجساً لم يربطه
 أخرجه البخاري في الصحيح ١٦٨/٣ كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة برقم

٤٣٧٢ وانظر تفسير ابن كثير ٧٤/٤

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

الموروثة الثابتة، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها، حتى لا يبقى لنور الحق منفذ لينفذ منه إليها فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار، والاستعداد للنظر والاعتبار التي جعلها الله أسباب الاتعاظ والاهتداء، بحسب سنة الله تعالى الحكيمة، وهؤلاء الزعماء وأعوانهم من اليهود قد صبوا في قوالب تلك الصفات الرديئة صبا، فلا تقبل طبائعهم سواها قطعاً، فهذا هو سبب عدم تعلق إرادة الله تعالى بأن يظهر قلوبهم مما طبع عليها لأن إرادته تطهير قلوبهم وهم متصفون بما ذكرنا إبطالاً للقدر، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السنن وكان أمر الله قدراً مقدوراً لأمرأاً أنفاً^(١) ولن تجد لسنته تبديلاً^(٢).

(١) الأنف أي مستأنف لم يسبق به قدر (انظر القاموس ص ١٠٢٥ مادة أنف).
والقول بأن الأمر أنف هو قول القدرية (انظر شفاء العليل ص ١٢١).

(٢) انظر تفسير المنار ٦/٣٩٠-٣٩١

المبحث التاسع

التشتت

الشت الافتراق والتفريق شت شعبهم يشت شتاً وشتاتاً، وانشت وتشت أي تفرق جمعهم. (١)

إن القلوب الميتة قلوب مختلفة غير مؤتلفة لاتكاد تجد قلبين منها متفقين قال تعالى: (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون). (٢)

روى ابن جرير عن قتادة عند هذه الآية قال: تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. (٣)

وذلك على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة. إذ المظاهر قد تخدع أحياناً فنرى تضامن الذين كفروا ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض كما نرى تجمع المنافقين أحياناً في معسكر واحد، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجي خادع، وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء وتصادم الاتجاهات، وما صدق المؤمنون مرة وتجمعت قلوبهم على الله حقاً إلا

(١) اللسان ٤٨/٢ عند مادة شتت.

(٢) جزء من الآية (١٤) من سورة الحشر.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤٧/٢٨

وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذى لا يمثل حقيقة الحال. وماصير المؤمنون وثبتوا إلا شهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل ينفسخ وينهار وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتية المتفرقة.

والقرآن يقرر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين ليهون فيها من شأن أعدائهم ويرفع هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم فهو إحياء قائم على حقيقة، وتعبئة روحية تركز إلى حق ثابت، ومتى اتخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد فلم تقف لهم قوة في الحياة. (١)

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن المنافقين تشابهت قلوبهم وأعمالهم وهم مع ذلك (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) (٢) فليست قلوبهم متوادة متوالية إلا مادام الغرض الذى يؤمنونه مشتركاً بينهم، ثم يتخلى بعضهم عن بعض، بخلاف المؤمن فإنه يحب المؤمن، وينصره بظهر الغيب، وإن تناوت بهم الديار وتباعد الزمان. (٣)

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٥٢٩/٢٨

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة الحشر.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٩

المبحث العاشر

الطبع والختم والرین والكن والقفل والتغليظ

ومن أوصاف القلب الميت الطبع والختم والرین والكن والقفل كما جاءت بذلك آيات الكتاب العزيز وسأعرف بكل واحد منها على حدة ثم أذكر العلاقة بينها جميعاً.

أولاً: الطبع:

الطاء والباء والعين أصل صحيح وهو مَثَلٌ على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها ومن ذلك طبع الله على قلب الكافر كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور فلا يوفق لخير. (١)

قال تعالى: (ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون). (٢)

قال أبو حيان: (٣) إن من أوضح الله له سبيل الهدى وذكر له أمثلاً ممن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وهو مع ذلك دائم على غيه لا يرعوى يطبع الله على قلبه فينبو سمعه عن سماع الحق. (٤)

وقال تعالى: (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار). (٥)

وقال كذلك: (كذلك نطبع على قلوب المعتدين). (٦)

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس عند مادة (طبع) ٤٣٨/٣

(٢) جزء من الآية (١٠٠) من سورة الأعراف.

(٣) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي نحوى ولغوى ومفسر ومحدث ومقرئ ومؤرخ وأديب، له من التصانيف البحر المحيط، اتخاف الأريب بما في القرآن من الغريب وغيرها، توفي سنة ٧٤٥هـ. انظر طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٨٧، والأعلام ٧/١٥٢

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٣٥١-٣٥٠/٤

(٥) جزء من الآية (٣٥) من سورة غافر.

(٦) جزء من الآية (٧٤) من سورة يونس.

وقال كذلك: (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين). (١)

وقال كذلك: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون). (٢)

إلى غير ذلك من الآيات.

قال الألوسي: (٣) وكثيراً ما يعاقب الله تعالى على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه كما قال سبحانه: (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) (٤) كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه فثواب الإيمان وإيمان وثواب الكفر كفر. (٥)

ثانياً: الختم:

ختمه يختمه ختماً وختاماً طبعه فهو مختوم وختم شدد للمبالغة والخاتم الفاعل والختم على القلب: أن لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طبع. (٦)

قال تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوة

(١) جزء من الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٨٧ من سورة التوبة.

(٣) هو محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي شهاب الدين أبو الثناء مفسر ومحدث وأديب من أهل بغداد، من كتبه روح المعاني في التفسير وكشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص للحريري وغيرها، توفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر الأعلام ١٧٦/٧، معجم المؤلفين ١٧٤/١٢

(٤) جزء من الآية ١٢٥ من سورة التوبة.

(٥) روح المعاني ١٤/٩

(٦) اللسان عند مادة ختم ١٦٣/١٢

ولهم عذاب عظيم). (١)

وقال تعالى: (أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك). (٢)

قال ابن جرير: يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذباً، لطبعت على قلبك، وأذهبت الذي آتيتك من وحيي، لأنني أحو الباطل فأذهبه وأحق الحق، وإنا هذا إخبار من الله تعالى للكافرين الزاعمين أن محمداً افتري هذا القرآن من قبل نفسه فأخبرهم أنه إن فعل لفعل به ما أخبر به في هذه الآية. (٣)

وهذا ما ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره ثم قال كقوله جل جلاله: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين) (٤) أي لانتقمنا منه أشد الانتقام وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. (٥)

وأما الزحخشري (٦) فقد قال عند هذه الآية: فإن يشأ الله أن يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد

(١) الآية ٧ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ٢٤ من سورة الشورى.

(٣) جامع البيان ٢٨/٢٥

(٤) الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقة.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٩١/٧

(٦) الزحخشري: هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر أبو القاسم الزحخشري صاحب

الكشاف في التفسير والمفضل في النحو سمع الحديث وطاف البلاد وجاور بمكة مدة وكان يظهر الاعتزال ويصرح بذلك في تفسيره وينظر عليه، توفي سنة

٥٣٨هـ. انظر البداية والنهاية ٢٣٥/١٢، وطبقات المفسرين للدواودي ٣١٤/٢

الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم، ومثال هذا أن يُخَوَّنَ بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله^(١) أن يحو الباطل ويثبت الحق (بكلماته) بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: (بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه)^(٢) يعني لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه وحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه، ويجوز أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لامرّد له من نصرتك عليهم إن الله عليم بما في صدورك وصدورهم فيجرى الأمر على حسب ذلك.^(٣)

ومما سبق يتبين أن الختم على القلب وصف ذميم لا يقع إلا للقلوب الزائغة الميتة ولذلك هدد الله عز وجل به المشركين إن لم ينتهوا عن شركهم (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم. من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون).^(٤) والمراد سلبهم الأسماع والأبصار أو منعهم الانتفاع بها الانتفاع الشرعي والختم على قلوبهم كما قال تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين

(١) الأصح أن يقول (سنة الله) كما هو اللفظ الوارد.

(٢) جزء من الآية (١٨) من سورة الأنبياء.

(٣) الكشف ٤٦٨/٣

(٤) الآية ٤٦ من سورة الأنعام.

المرء وقلبه) (١) هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه ولهذا قال: (انظر كيف نصرف الآيت) أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال (ثم هم يصدفون) أي يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه. (٢)

وقال كذلك: (أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون). (٣)

ثالثاً: الرين:

الراء والياء والنون: أصل يدل على غطاء وستر فالرين هو الغطاء على الشيء وقد رين عليه كأنه غشي عليه. (٤)

وقال صاحب اللسان: الرين الطبع والدنس وران الذنب على قلبه يرين ريناً وريوناً: غلب عليه وغطاه وفي التزليل العزيز: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (٥) أي غلب وطبع وختم. (٦)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: "إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب ونزع واستغفر

(١) جزء من الآية ٢٤ من سورة الأنفال.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٥٢/٣

(٣) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

(٤) معجم مقاييس اللغة ٤٧٠/٢ مادة (رين).

(٥) الآية ١٤ من سورة المطففين.

(٦) اللسان عن مادة (رين) ١٩٢/١٣

صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الزان الذي ذكره الله في كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون). (١)

وقال الحسن رحمه الله عند هذا الآية: الذنب على الذنب حتى يموت قلبه. (٢)

رابعاً: الكن:

كَنَّ الشَّيْءَ يَكْنُهُ كَنَّاً وَكُنُوناً وَأَكْنَةً وَكَنْتَ: ستره والأَكْنَةُ الأُغْطِيَّة والواحد كِنَان. (٣)

قال تعالى: (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً). (٤)

قال صاحب المنار: أي وجعلنا على آلة الفهم والإدراك من أنفسهم -وهي قلب الإنسان ولبه- أغطية حائلة دون فقهه، ونفوذ الأفهام إلى أعماق علمه وفي آذانهم وقراً أي ثقلاً وصمماً حائلاً دون سماعه بقصد التدبر واستبانة الحق منه.

ومعنى هذا الجعل ماضت به سنة الله تعالى في طباع البشر من كون التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه يكون مانعاً له باختياره من النظر

(١) رواه ابن ماجه في السنن ١٤١٨/٢ كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الذنوب ٢٩ برقم ٤٢٤٤ وأحمد في المسند ٢٩٧/٢ وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ٤١٧/٢ برقم ٣٤٢٢

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٩٨/٣٠

(٣) اللسان عند مادة كتن ٣٦٠/١٣ مادة كن.

وانظر المفردات ص ٤٤٢ مادة كن.

(٤) جزء من الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

والاستدلال والبحث عن الحقائق فهو لا يستمع إلى متكلم ولا داع لأجل التمييز بين الحق والباطل وإذا وصل إلى سمعه قول مخالف لما هو دين له أو عادة لا يتدبره ولا يراه جديراً بأن يكون موضوع المقابلة والتنظير مع ماعنده من عقيدة أو رأي أو عادة، وجعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان في الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء والآذان التي لاتسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالأذان المصابة بالثقل أو الصمم لأن سمعها وعدمه سواء. (١)

وقال تعالى كذلك: (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً). (٢)
فالقلب إذا غطي وستر عن تفهم الحق وتدبره لإعراضه عن ربه أو لكثرة ذنوبه كما مضى فإنه سيحرم أعظم نعمة يعطاها الإنسان وهي نعمة الهداية فما أعظمه من حرمان وما أعظمها من خسارة ومن العجب أن بعض المختوم على قلوبهم يتججون بهذه الحجة تعجيزاً لمن يدعوهم إلى الهدى والخير كما ذكر لنا ربنا تبارك وتعالى ذلك في قوله: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر). (٣)

فما أسخف هذه العقول وما أجهل هذه القلوب وما أجراً هذه الألسن التي تصف نفسها بأشنع الأوصاف وأخسها فمى كان انغلاق القلب

(١) تفسير المنار ٣٤٧/٧ - ٣٤٨

(٢) جزء من الآية ٥٧ من سورة الكهف.

(٣) جزء من الآية ٥ من سورة فصلت.

وثقل السمع صفة كمال ومدح حتى ينسبها الإنسان الذي وهبه الله العقل وكرمه به إلى نفسه ولكنه إنطماس الفطرة وسيطرة العناد والهوى نسأل الله العافية من ذلك.

خامساً: القفل:

القُفْل والقُفْل: ما يغلق به الباب مما ليس بكثيف ونحوه والجمع أقفال وأقفل. (١)

وقد جعل ذلك مثلاً لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل فيقال فلان مقفل عن كذا، فيقال للبخيل مقفل اليدين كما يقال مغلول اليدين. (٢)
قال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها). (٣) فهذه الآية الكريمة ترد عدم تدبر الإيمان إلى تلك الأقفال التي تكون على القلوب فتزد عنها وصول الخير والهدى والفهم والفقه والتدبر لما يتلى عليها من آيات الله والحكمة.

و(أَمْ) في الآية متصلة على قول البعض فيكون المعنى: أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها. (٤)

ومنقطعة على قول آخرين وتكون بمعنى (بل) والهمزة للتقدير وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لاتقبل التدبر والتفكير وتنكير القلوب لتحويل حالها وتفضيع شأنها

(١) اللسان عن مادة (قفل) ٥٦٢/١١

(٢) المفرات للراغب عن مادة قفل ص ٤٠٩

(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد

(٤) روح المعاني ٧٤/٢٦

وأمرها في القساوة والجهالة كأنه قيل: على قلوب منكورة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة، وقيل: لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون فتكبرها للتبعيض أو للتنويع وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة. (١)

فقلوب أهل الكفر والزيف مقفلة لا يدخلها الهدى والنور إلا أن يفتحها رب العباد وهو الفتح العليم وهذا مافهمه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين فهذا المقداد بن الأسود^(٢) يقول: والله لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها فيه نبي من الأنبياء في فترة وجاهليه ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار وإنها للتي قال الله عز وجل الذي يقولون (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) (٣). (٤) ولهذا ففتح أقفال القلوب نعمة عظيمة من نعم الله عز وجل وقفلها من أعظم الخذلان نسأل الله العافية.

(١) انظر روح المعاني ٧٤/٢٦، والبحر المحيط ٨٣/٨

(٢) هو المقداد بن الأسود الكندي ابن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة النهراي وقيل الحضرمي تبناه الأسود فصار يقال له المقداد بن الأسود وغلبت عليه فلما نزلت (ادعوهم لآبائهم) (الأحزاب: ٥) قيل له المقداد بن عمرو واشتهرت شهرته بابن الأسود هاجر الهجرتين وشهد بدرأ والمشاهد بعدها وكان فارساً يوم بدر توفي سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان قيل وهو ابن سبعين سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء ٣٨٥/١، الإصابة ٤٣٣/٣ برقم ٨١٨٥

(٣) جزء من الآية ٧٤ من سورة الفرقان

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٦

سادساً: التغليف:

الغلاف: الصَّوَان وما اشتمل على الشيء والجمع غلف وقلب أغلف
بين الغلفة كأنه غشى بغلاف فهو لايعي شيئاً^(١)

وقد ورد في وصفه صلى الله عليه وسلم أنه يقيم الملة العوجاء بأن
يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياء، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.^(٢)
وبهذا يعلم أن التغليف على القلب خاص بالكافر لقاء كفره برسل الله
وكتبه وأما قوله تعالى: (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً
ما يؤمنون).^(٣)

فإن الله عز وجل يذكر فيها ما كان يحتج بنو إسرائيل ويعتذرون به
عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والاهتداء بكتابه بعد تقرير الدعوة
 وإقامة الحجة فهم يقولون إننا لانعفل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم
دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي
ءاذاننا قر ومن بيننا وبينك حجاب)^(٤) وقد رد الله عليهم بما يشعر بكذبهم
وعنادهم فقال تعالى: (بل لعنهم الله بكفرهم)^(٥) أي إن قلوبهم ليست غلفاً
لاتفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم
بالأنبياء السابقين وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم
فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه فكان ذلك سبباً

(١) اللسان عند مادة (غلف) ٢٧١/٩

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٣/٣-٢٩٤ كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الفتح (٤٨)
باب (إنا أرسلناك شهيداً ومبشراً ونذيراً) (الأحزاب: ٤٥) (٣) رقم الحديث
(٤٨٣٨)

(٣) الآية ٨٨ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ٥ من سورة فصلت.

(٥) جزء من الآية ٨٨ من سورة البقرة.

في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة خاتم النبيين. (١)
ولعن الله عز وجل لهم إنما جرى على سنة الله تعالى في الأسباب
والمسيبات فهم قد ظلموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر والعصيان
الذي يجر إلى التماذى في العصيان كما هي السنة في أخلاق الإنسان. (٢)
ثم قال تعالى: (فقليلًا مأيؤمنون). (٣)

ومما سبق ذكره تبدو العلاقة القوية بين المعاني المذكورة فهي جميعاً
تتشترك في معنى الستر والتغطية وإن كان بعضها يدل على تمكن ذلك أكثر
من غيره وهي كذلك عقوبة من الله عز وجل لكل من كفر وعاند وأصر
على الباطل والمتصف بها يفقد قلبه المقدرة على الفقه والإدراك والانتفاع بما
يسمع أو يرى.

وقد ذكر عن بعض السلف أنه قال: الرين أيسر من الطبع والطبع
أيسر من الإقبال والإقبال أشد من ذلك كله. (٤)(٥)

-
- (١) انظر تفسير المنار ٣٧٨/١
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) جزء من الآية ٨٨ من سورة البقرة.
(٤) كما ذكر ذلك ابن الأثير عن مجاهد. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند
مادة (طبع) ١١٢/٣
(٥) ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس في ذلك فليرجع إليه في شفاء العليل من
ص (٨٥) إلى (٩٦).

المبحث الحادي عشر

القسوة

القسوة الصلابة في كل شيء والمصدر القساء وهو مصدر للفعل قسا
يقسو. (١)

والمراد هنا غلظ القلب. (٢)

وقسوة القلب مما اتصف به أهل الكتاب، ولهذا حذر الله عز وجل
المؤمنين من ذلك وأمرهم بما يرقق قلوبهم ويلينها فقال تعالى: (ألم يأن
للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا
كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير
منهم فاسقون). (٣)

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: نهى الله المؤمنين أن
يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى لما تناول
عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثناً قليلاً ونبذوه
وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة وقلدوا
الرجال في دين الله واتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند
ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد
(وكثير منهم فاسقون) أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة كما
قال تعالى: (فبما نقضهم ميثاقهم لعنهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم
عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) (٤) أي فسدت قلوبهم فقست وصار

(١) اللسان عند مادة (قسا) ١٨٠/١٥

(٢) المفردات عند مادة (قسا) ٤٠٤

(٣) الآية ١٦ من سورة الحديد.

(٤) جزء من الآية ١٣ من سورة المائدة.

من سجيّتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية. (١)

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين. (٢)

قال سيد قطب رحمه الله: إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله فبعث إليها الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوها إلى الإيمان بربها ونزل عليها الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر.

عتاب فيه الود والحض وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره وتلقى ما نزل بما يليق به من الطاعة والاستسلام، وإلى جانب ذلك فيه تحذير من التباطؤ والتقاعد عن الاستجابة وبيان لما يغشى القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء وماتنتهى إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله. (٣)

إن قسوة القلب مرض خطير يصيب القلب بالعمى فلا يتعظ بموعظة ولا يعتبر بما فيه العبرة وبهذا يرد صاحب القلب القاسى المهالك من غير أن يشعر بما هو مقدم عليه قال تعالى: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٦/٨

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التفسير (٥٤) باب في قوله تعالى: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" (١) رقم الحديث (٣٠٢٧/٢٤).

(٣) في ظلال القرآن ٣٤٨٩/٢٧

قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به
فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا
هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العلمين^(١).
ففسوة القلب وتزيين الشيطان قد حالا بين هؤلاء وبين الرجوع إلى
الله عز وجل عند حلول البلاء فأعرضوا عما ذكروا به وتناسوه ففتح الله
عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون استدراجاً لهم حتى إذا فرحوا بما
أوتوا من الأموال والأولاد والأرزاق أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز
مقتدر على غفلة فإذا هم آيسون من كل خير^(٢).

وقد بين الله عز وجل أن فسوة القلب قد تتفاقم حتى تكون أشد
من صلابة الحجارة تنفيهاً منها كما في قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم من
بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)^(٣).

وتوعده القاسية قلوبهم بقوله: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو
على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال
مبين)^(٤).

ولما كانت قسوة القلب عقوبة عظيمة فقد دعا موسى عليه الصلاة
السلام على فرعون وملائه أن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم
فقال تعالى: (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً في
الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على
قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)^(٥).

(١) الآيات ٤٣-٤٥ من سورة الأنعام.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٢٥١/٣

(٣) جزء من الآية ٧٤ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٥) الآية ٨٨ من سورة يونس.

المبحث الثاني عشر

العمى

العمى لغة افتقاد البصر والبصيرة.

قال الراغب: العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة ويقال في الأول أعمى وفي الثاني أعمى وعم وعلى الأول قوله: (أن جاءه الأعمى)^(١) وعلى الثاني ماورد من ذم العمى في القرآن نحو قوله (صم بكم عمى)^(٢) وقوله: (فعموا وصموا)^(٣) بل لم يعد افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى حتى قال تعالى: (فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)^(٤)(٥).

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)^(٦):

ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لاتنفذ إلى العبر ولا تدرى ماالخبر، وما أحسن ماقاله بعض الشعراء في هذا المعنى وهو أبو محمد عبدالله بن محمد بن ساره الأندلسي الشنتريني^(٧) وقد كان وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

-
- (١) الآية ٢ من سورة عبس.
 - (٢) جزء من الآية ١٨ من سورة البقرة.
 - (٣) جزء من الآية ٧١ من سورة المائدة.
 - (٤) جزء من الآية ٤٦ من سورة الحج.
 - (٥) المفردات ص ٣٤٨ مادة (عمى).
 - (٦) الآية ٤٦ من سورة الحج.
 - (٧) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن صارة ويقال سارة اللغوي الشنتريني الإشبيلي شاعر الأندلس، توفي سنة ٥١٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٥٩/١٩، خريدة القصر

والشد في اللغة الإيثاق وشدت الشيء أشده شداً إذا أوثقته^(١) فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع والمعنى قسها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه، جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محموداً عليه فهو حسن منه وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفه فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما والمقضي المقدر من الشر يكون من العبد ظلماً وجوراً وسفهاً فهو فعل جاهل ظالم سفیه.^(٢)

(١) انظر اللسان عند مادة شدد ٢٣٣/٣

(٢) انظر شفاء العليل ص ٩٧

يامن يصيخ إلى داعى الشقاء وقد نادى به الناعيان الشيب والكبر
 إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترى في رأسك الواعيان: السمع والبصر
 ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل لم يهده الهاديان: العين والأثر
 لا الدهر يبقى ولا الدنيا، ولا الفلك الـ أعلى ولا النيران: الشمس والقمر
 ليرحلن عن الدنيا، وإن كرهها فراقها، الشاويان: البدو والحضر^(١)
 إن القلب الأعمى لا ينتفع بذكرى ولا موعظة ولذلك عندما ذكر
 الله عز وجل في كتابه الموت وسكراته والحشر وأهواله بين أن ذلك ذكرى
 لأصحاب القلوب الحية الواعية فقال تعالى: (إن في ذلك لذكرى لمن كان
 له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).^(٢)

قال ابن القيم رحمه الله: "لمن كان له قلب" فهذا هو المحل القابل،
 والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: (إن هو إلا
 ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً)^(٣) أي حي القلب وقوله: (أو ألقى
 السمع) أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط
 التأثر بالكلام، وقوله (وهو شهيد) أي شاهد القلب حاضر غير غائب.^(٤)
 ومن كان أعمى القلب فهو غائب وإن كان حاضراً، غير فقيه وإن
 كان يملك آله ذلك قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس
 لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون
 بها أولئك كالأنعم بل هم أضل أولئك هم الغفلون).^(٥)

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٦/٥

(٢) الآية ٣٧ من سورة ق.

(٣) جزء من الآية ٦٩ وجزء من الآية ٧٠ من سورة يس.

(٤) الفوائد ص ٦

(٥) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله كما قال تعالى: (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصرهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بنائيت الله) ^(١) وقال تعالى: (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) ^(٢) هذا في حق المنافقين وقال في حق الكافرين (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) ^(٣) ولم يكونوا صما بكما عميا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ^(٤).

ثم قال: (أولئك كالأنعم) أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الخواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً) ^(٥) أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع صوته ولا تفقه ما يقول ولهذا قال في هؤلاء (بل هم أضل) أي من الدواب، لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا بس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به ولهذا فالدواب أتم منه. ^(٦)

(١) جزء من الآية ٢٦ من سورة الأحقاف.

(٢) جزء من الآية ١٨ من سورة البقرة.

(٣) جزء من الآية ١٧١ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٢٣ من سورة الأنفال.

(٥) جزء من الآية ١٧١ من سورة البقرة.

(٦) تفسير ابن كثير ٥١٥/٣

المبحث الثالث عشر

الغفلة

غفل عنه يغفل غفولاً وغفلة وأغفله: تركه وسها عنه. (١)
 قال صاحب المفردات: الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ
 والتيقظ (٢) قال تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه
 وكان أمره فرطاً). (٣)

قال ابن القيم رحمه الله: الغفل الشيء الفارغ والأرض الغفل التي لا
 علامة بها والكتاب الغفل الذي لاشكل عليه، وأغفلناه: تركناه غافلاً عن
 الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي لأنه سبحانه لم يشأ له
 الذكر، فبقى غافلاً فالغفلة وصفه والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم
 مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته فإذا لم يشأه التذكر لم يتذكر وإذا
 شاء غفلته امتنع منه الذكر.

فإن قيل فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة
 الرب لأضدادها، أم إلى عدم مشيئته لوقوعها؟

قيل القرآن قد نطق بهذا وبهذا قال تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله
 أن يطهر قلوبهم) (٤) وقال: (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله
 شيئاً) (٥) وقال: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن

(١) اللسان عند مادة (غفل) ٤٩٧/١١

(٢) المفردات عند مادة (غفل) ص ٣٦٢

(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٤) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٥) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة.

يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء). (١)(٢)

قال الشيخ الأمين رحمه الله عند قوله تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً). (٣)

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً، وقد كرر في القرآن نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن اتباع مثل هذا الغافل عن ذكر الله المتبع لهواه، كقوله تعالى: (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أئماً أو كفوراً). (٤) وقوله: (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم) (٥) الآية وقوله تعالى: (ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زئيم) (٦) إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أمره في مواضع أخر بالإعراض عن المتولين عن ذكر الله الذين لا يريدون غير الحياة الدنيا وبين له أن ذلك هو مبلغهم من العلم وذلك في قوله تعالى: (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم). (٧)

وقوله في هذه الآية الكريمة (من أغفلنا قلبه) يدل على أن ما يعرض للعبد من غفلة ومعصية إنما هو بمشيئة الله تعالى إذ لا يقع شيء البتة كائناً

(١) جزء من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٢) التفسير القيم لابن القيم ص ٣٥٠

(٣) جزء من الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٤) الآية ٢٤ من سورة الإنسان.

(٥) جزء من الآية ٤٨ من سورة الأحزاب.

(٦) الآيات ٩-١٣ من سورة القلم.

(٧) الآية ٢٩ وجزء من الآية ٣٠ من سورة النجم.

ماكان إلا بمشيئته الكونية القدرية جل وعلا (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ^(١) (ولو شاء الله ماأشركوا) ^(٢) (ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها) ^(٣) (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) ^(٤) (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) ^(٥) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل شئ من خير وشر لايقع إلا بمشيئة خالق السموات والأرض فمايزعمه المعتزلة ويحاول الزمخشري في تفسيره -دائماً- تأويل آيات القرآن على نحو مايطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته بأفعاله دون مشيئة الله ^(٦) لا يخفى

(١) جزء من الآية ٢٩ من سورة التكويد.

(٢) جزء من الآية ١٠٧ من سورة الأنعام.

(٣) جزء من الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٤) جزء من الآية ٣٥ من سورة الأنعام.

(٥) جزء من الآية ٥٧ من سورة الكهف.

(٦) فقد قال عند هذه الآية (من أغفلنا قلبه) (الكهف: ٢٨) من جعلنا قلبه غافلاً

عن الذكر بالخذلان أو وجدناه غافلاً عنه كقولك أجبنته وأفحمته وأبخلته إذا وجدته كذلك، أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمه: أي لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان، وقد أبطل الله توهم المجبره بقوله (واتبع هويله) وقرى أغفلنا قلبه باسناد الفعل إلى القلب على معنى حسبنا قلبه

غافلين: من أغفلته إذا وجدته غافلاً. أه. الكشف ٤٨٢/٢

قال صاحب الإنصاف: وهو يشمر للهرب من الحق وهو أن المراد خلقنا له وجدير به أن يستمر في اتباع هواه فإن حمل أغفل على بابه صرفه إلى الخذلان وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعال للمصادفة -إلى أن قال- وقوله (وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله -واتبع هواه-) : قد تقدم في غير ماموضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقاً له وإلى العبد من حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره ولاتنافي بين الإضافتين فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه فلا يحصى له عنها بوجه.

الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال للإمام ناصرالدين أحمد بن محمد بن

بطلانه ! كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفاً وأمثالها في القرآن كثيرة. (١)
فالمقصود أن القلب الميت لاهٍ ساهٍ لاهٍ عن ذكر الله عز وجل وعن
كل خير وهو في ظلمة شديدة من الجهل والعمى فلا يصل إليه حق ولا
ينتفع بما يرى ويسمع قال تعالى: (بل قلوبهم في غمرة من هذا). (٢)

قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يحسب
هؤلاء المشركون من أن إمدادناهم بما غدهم به من مال وبنين بخير نسوقه
بذلك إليهم، والرضا منا عنهم ولكن قلوبهم في غمرة عمى عن هذا
القرآن وعنى بالغمرة (٣) ما غمر قلوبهم، فغطاها عن فهم ما أودع الله كتابه
من المواعظ والعبر والحجج، وعنى بقوله (من هذا) من القرآن.

ثم ساق بسنده إلى مجاهد قوله (في غمرة من هذا) قال: في عمى من
هذا القرآن. (٤)

وبما أن القلب الميت لاهٍ ساهٍ غافل عن الحق فهو مشغول بالدنيا
مستغرق في شهواته وملذاته الأرضية والقرآن الكريم يذكر لنا هذه
الحقيقة في قوله تعالى: (اقترب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون
ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم

(١) أضواء البيان ٩٨/٤-٩٩

(٢) جزء من الآية ٦٣ من سورة المؤمنون.

(٣) جاء في اللسان: غمرة الماء يغمره غمراً أو اغتمره: علاه وغطاه وقال قوله تعالى:
(بل قلوبهم في غمرة من هذا) (المؤمنون: ٦٣) يقول: بل قلوب هؤلاء في عمية
من هذا، وقال القتيبي: أى في غطاء وغفلة. والغمرة: حيرة الكفار.
انظر اللسان عند مادة (غمر) ٢٩/٥-٣٠

وقال الراغب في المفردات: والغمرة معظم الماء الساترة لمقرها وجعل مثلاً
للجهالة التي تغمر صاحبها. المفردات عند مادة (غمر) ص ٣٦٥

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٥/١٨

وأَسْرَوْا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون).^(١)

قال الراغب: اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، وقوله: (لا هية قلوبهم) أي ساهية مشغلة بالآل يعينها.^(٢)

والقلب الغافل اللاهى قلب معرض عن الحق قال تعالى: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون).^(٣)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية: هذا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم (نظر بعضهم إلى بعض) أي تلفتوا (هل يركم من أحد ثم انصرفوا) أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كما قال تعالى: (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة)^(٤) وقال تعالى: (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين)^(٥) أي مالهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالاً وهروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل، وقوله: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) كقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)^(٦)، (بأنهم قوم لا يفقهون) أي لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شدة^(٧) عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.^(٨)

(١) الآيات ١-٣ من سورة الأنبياء.

(٢) المفردات مادة (لهى) ص ٤٥٥

(٣) جزء من الآية ١٢٧ من سورة التوبة.

(٤) الآيات ٤٩-٥١ من سورة المدثر.

(٥) الآيتان ٣٦-٣٧ من سورة المعارج.

(٦) جزء من الآية ٥ من سورة الصف.

(٧) أي في شغل عنه. انظر اللسان ٥٠٦/١٣ مادة شدة.

(٨) تفسير ابن كثير ١٧٧-١٧٦/٤

المبحث الرابع عشر

الكبر

الكبر بالكسر والكبرياء العظمة والتجبر وقد تكبر واستكبر وتكابر والتكبر والاستكبار: التعظم.

والاستكبار هو الامتناع عن قبول الحق معاندة. (١)

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معناه بقوله: "الكبر بطر الحق وغمط الناس". (٢)

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه أن الكبر من أوصاف القلوب الميتة فقال تعالى: (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببلغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير). (٣) قال ابن كثير رحمه الله: أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببلغيه) أي مافي صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخمالات الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع (فاستعذ بالله) أي من حال مثل هؤلاء (إنه هو السميع البصير). (٤)

والكبر وصف ذميم أول من اتصف به إبليس أخزاه الله قال تعالى:

(إلا إبليس أبي واستكبر وكان من الكافرين). (٥)

(١) انظر اللسان مادة (كبر) ١٢٩، ١٢٧/٤

(٢) تقدم ترجمته ص ١٨٧

(٣) الآية ٥٦ من سورة غافر

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٤١/٧ وانظر جامع البيان ٧٦/٢٤-٧٧

(٥) جزء من الآية (٣٤) من سورة البقرة.

ثم انتقل هذا الداء الخطير إلى اتباعه من بعده من شياطين الإنس والجن فهأهو فرعون وجنوده يستكبرون عن سماع الحق كما قال تعالى: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق).^(١)

وهأهم بنو إسرائيل يقول الله تعالى في حقهم: (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم).^(٢)
بل إن هذا المرض الخطير هو أعظم أسباب تكذيب من كذب من الأمم.

ولذلك توعد الله عز وجل عليه بالعذاب الشديد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (وإذا تتلى عليه ءايتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم).^(٣)

وقوله: (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين).^(٤)
وقوله: (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين).^(٥)
وقوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".^(٧)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:^(٨) فالكبر المباين للإيمان لا يدخل

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة القصص.

(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٧ من سورة لقمان.

(٤) جزء من الآية ٦٠ من سورة الزمر.

(٥) الآية ٧٦ من سورة غافر.

(٦) جزء من الآية ٦٠ من سورة غافر.

(٧) أخرجه مسلم في الصحيح ٩٣/١ كتاب الإيمان (١) باب تحريم الكبر برقم ٩١/١٤٧

(٨) مجموع الفتاوى ٦٧٧/٧ .

صاحبه الجنة كما في قوله: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ومن هذا كبر إبليس وكبر فرعون. وهذا الاستكبار يكون في بعض الأحيان حمية جاهلية لعادات وموروثات باطلة أخذها الأبناء عن الآباء كما قال تعالى مبيناً لذلك: (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).^(١)

وقد ذكر تعالى هذه الحمية الجاهلية في قوله: (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية).

قال سيد قطب رحمه الله: حمية لا لعقيدة ولا لمنهج إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت. الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ينعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدى الذي ساقوه أن يبلغ محله الذي ينحرف فيه مخالفين بذلك كل عرف وكل عقيدة كى لاتقول العرب إنه دخلها عليهم عنوة، ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام، وأما المؤمنون فقد حماهم الله عز وجل من هذه الحمية وأحل محلها السكينة والتقوى: (فأنزل الله سكينته على رسوله على المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليماً)^{(٢)(٣)}

فكانت عاقبة هذه السكينة والتقوى خيراً كثيراً للمسلمين فقد رجع

النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد سنة من هذا الموقف فاتحين ودخلوا

(١) الآية رقم ٢٣ من سورة الزخرف.

(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة الفتح.

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٢٩/٢٦

المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون إلا الله وحده. وقد كان أبي بن كعب^(١) يقرأ: (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ولو حميتهم كما حموا لفسد المسجد الحرام) فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، قال: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمني مما علمه الله، فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله.^(٢)

-
- (١) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار سيد القراء أبو منذر الأنصاري البصري ويكنى أيضاً أبا الطفيل شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، جمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكان رأساً في العلم والعمل، مات في خلافة عثمان سنة ثلاثين من الهجرة وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء ٣٨٩/١، الإصابة ٣١/١ برقم (٣٢).
- (٢) أخرجه النسائي في تفسيره ٣٠٨/٢، والحاكم في المستدرک ٢٢٥/٢-٢٢٦ في كتاب التفسير، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

المبحث الخامس عشر

الغل للمؤمنين

ومن أوصاف القلب الميت الغل للمؤمنين وقد ذكر الله عز وجل أن من أوصاف أتباع السلف ممن جاء بعدهم أنهم يدعون الله عز وجل أن يسلم قلوبهم من الغل لأحد من المؤمنين قال تعالى: (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (١).

والغل بالكسر والغليل: الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد. (٢) ولقد ابتليت الأمة الإسلامية بمن يحمل هذا المرض العضال منذ القرن الهجري الأول وإلى يومنا هذا وهم ما يسمى بالرافضة وقد قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غل لحيار المؤمنين وسادات أولياء الله بعد النبيين ولهذا لم يجعل الله تعالى في الفئء نصيباً لمن بعدهم إلا الذين يقولون (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم).

ولهذا كان بينهم وبين اليهود من المشابهة في الخبث واتباع الهوى وغير ذلك من أخلاق اليهود وبين النصارى من المشابهة في الغلو والجهل وغير ذلك من أخلاق النصارى ما أشبهوا به هؤلاء من وجه وهؤلاء من وجه وما زال الناس يصفونهم بذلك. (٣)

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر.

(٢) اللسان عند مادة (غلل) ٤٩٩/١١

(٣) منهاج السنة ٢٢/١

ومثل الرافضة المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر قال تعالى مصوراً لعظم حقدهم على المؤمنين: (يأيتها الذين ءامنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبلاً ودوا ماعنكم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآية إن كنتم تعقلون. هَآأَنتم أُولَآءَ تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتب كله وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور).^(١)

ففي هذه الآيات ينهى الله عز وجل عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون يجهدهم وطاققتهم لا يألون المؤمنين خبلاً^(٢) أى يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن وبما يستطيعونه من المكر والخديعة ويودون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم، قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله مالا يخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى: (قد بينا لكم الآية إن كنتم تعقلون).

ثم قال تعالى: (هَآَأَنتم أُولَآءَ تحبونهم ولا يحبونكم) أى أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً (وتؤمنون بالكتب كله) أى ليس عندكم في شىء منه شك ولا ريب وهم عندهم الشك والرب والحيرة (وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) والأنامل أطراف

(١) الآيتان ١١٨ و ١١٩ من سورة آل عمران.

(٢) الخبال: الفساد. انظر المفردات عند مادة (خبل) ص ١٤٢

الأصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه قال تعالى: (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وذلك أشد الغيظ والحنق، قال تعالى: (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) أى مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومعل كلمته ومظهر دينه فموتوا بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) أي هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ماتؤملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال: (إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأيد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين وإن أصاب المسلمين سنة أي -جذب- أو أدبيل عليهم أعداؤهم لما لله في ذلك من الحكمة -كما جرى يوم أحد- فرح المنافقون بذلك ثم قال تعالى مخاطباً عباده المؤمنين (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط)^(١) فيرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار بالصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به وهو الذي ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ومن توكل على الله كفاه.^(٢)

(١) الآية رقم ١٢٠ من سورة آل عمران.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٨٨/٢ إلى ٩٠.

الفصل الثاني أسباب موت القلب

وفيه تمهيد وستة مباحث:

المبحث الأول : الكفر.

المبحث الثاني : الزيغ.

المبحث الثالث : الجهل وعدم الفقه.

المبحث الرابع : إخلاف وعد الله عز وجل.

المبحث الخامس : الكبر.

المبحث السادس : اتباع الهوى.

تمهيد

مما هو معلوم عند المؤمنين أن القلوب بيد الله عز وجل يقبلها كيف شاء قال صلى الله عليه وسلم: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه كيف يشاء" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك".^(١) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الخور بعد الكون.^(٢)

وقال تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون).^(٣)

والإرادة في هذه الآية هي الكونية التي لا تتخلف ولا يتعلق بها الرضا والمحبة ما لم تجتمع مع الإرادة الشرعية.

وقال تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)^(٤) ولكن جرت سنة الله عز وجل في خلقه أن يجري أحكامه الكونية مرتبة على أسباب هي في مقدور الخلق وهم مطالبون بها إن كانت تؤدي إلى ما يحبه الله ويرضاه ومنهون عنها محاسبون عليها إن كانت تؤدي إلى ما يبغضه الله، وأعطاهم الله عز وجل القدرة على الفعل والترك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٤٥/٤ كتاب القدر (٤٦) باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٣) رقم الحديث (٢٦٥٤/١٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٩٧٩/٢ كتاب الحج (١٥) باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (٧٥) رقم الحديث (٤٢٦-١٣٤٣) ومعنى الحديث: الاستعاذة من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا منهم. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر عند مادة (حور) ٤٥٨/١.

(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٤) جزء من الآية ٢٤ من سورة الأنفال.

والمشيئة المقيدة بمشيئته تعالى وهو تعالى لم يكلفهم مالا يطيقون ومالا يستطيعون قال تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ^(١)

وفيما يلي من مباحث سأبين أسباب موت القلب وذلك حسب الجهد والطاقة والله الموفق. ^(٢)

(١) جزء من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة
(٢) مما ينبغي ذكره أن هذه الأسباب إذا لم تؤد إلى الكفر فإن القلب يكون فيه نصيب من الموت بقدر ما وقع فيه من هذه الأسباب حتى يموت موتاً كاملاً بترك دين الإسلام والردة عنه نسأل الله العافية.

المبحث الأول:

الكفر

الكفر نقيض الإيمان، كفر بالله يكفر كفراً وكفراناً.
 وكفر نعمة الله يكفرها كفوراً، وكفراناً وكفر بها جحدها وسترها.
 وكافره حقه: جحده. ورجل مكفر: مجحود النعمة مع إحسانه. ورجل كافر
 جاحد لأنعم الله مشتق من الستر. وقيل لأنه مغطى على قلبه. (١)
 والكفر عدم الإيمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أم
 لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم به.

واعلم أن الكفر بعضه أغلظ من بعض، فالكافر المكذب أعظم جرماً من
 الكافر غير المكذب فإنه جمع بين ترك الإيمان المأمور به وبين التكذيب
 المنهى عنه. ومن كفر وكذب وحارب الله ورسوله والمؤمنين بيده أو لسانه
 أعظم جرماً ممن اقتصر على مجرد الكفر والتكذيب، ومن كفر وقتل وزنا
 وسرق وصد وحارب كان أعظم جرماً. (٢)
 وأنواع الكفر أربعة:

كفر جهل وتكذيب وكفر جحود وكفر عناد واستكبار وكفر نفاق،
 فأحدها يخرج من الملة بالكلية وإن اجتمعت في شخص فظلمات بعضها فوق
 بعض والعياذ بالله من ذلك.

فإذا انتفى قول القلب وعمله وقول اللسان وعمل الجوارح اجتمعت
 أنواع الكفر غير النفاق قال تعالى: (إن الذين كفروا سوءاً عليهم وأنذرتهم
 أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
 غشوة ولهم عذاب عظيم). (٣)

(١) اللسان عند مادة (كفر) ١٤٤/٥

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٨٧-٧٦/٢٠

(٣) الآيات ٦-٧ من سورة البقرة .

وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق فكفر الجهل والتكذيب قال تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) (١) وقال تعالى: (أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أماذا كنتم تعملون) (٢) وإن كنتم الحق مع العلم بصدقه فكفر الجود والكتمان قال تعالى: (وحجّدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عقبة المفسدين) (٣) وقال تعالى: (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) (٤) وقال تعالى: (الذين ءاتينهم الكتب يعرفونه كما يعرفون أيناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين). (٥)

وإن انتفى عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة والإذعان مع انقياد الجوارح الظاهرة فكفر نفاق قال تعالى: (ومن الناس من يقول ءامنا بالله وبالْيَوْمِ الآخر وما هم بمؤمنين يخدعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون). (٦)

وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان فكفر عناد واستكبار ككفر إبليس وكفر غالب اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه.

وكفر من ترك الصلاة عناداً واستكباراً ومحال أن ينتفى انقياد

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة يونس.

(٢) جزء من الآية ٨٤ من سورة النمل.

(٣) الآية ١٤ من سورة القصص.

(٤) جزء من الآية ٨٩ من سورة البقرة.

(٥) الآيتان ١٤٦ و ١٤٧ من سورة البقرة.

(٦) الآيات ٨-١٠ من سورة البقرة.

الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب". (١)

والمقصود أن الكفر بجميع أنواعه مميت للقلب قال تعالى مبيناً موت قلوب الكافرين وكيف أنه لا يحييها إلا نور الإيمان (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يعيش به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون). (٢)

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية التى لا تنفى وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فهو موت والإيمان اتصال واستمداد واستجابة فهو حياة.

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراق والاطلاع وختم على الجوارح والمشاعر وتيه وضلال فهو ظلمة.

والإيمان تفتح ورؤية وإدراك واستقامة فهو نور بكل مقومات النور إن الكفر انكماش وتحجر فهو ضيق وشروء عن الطريق الفطرى الميسر فهو عسر، وحرمان من الاطمئنان فهو قلق.

والإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود.

فما الكافر إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود، فهو منقطع الصلة بالوجود لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردى المحدود في أضيق الحدود، في الحدود التى تعيش فيها البهيمة حدود الحس وما يدركه هذا الحس من ظاهر الوجود.

(١) تقدم تخرجه ص ٣

(٢) الآية ١١٩ من سورة الأنعام.

لقد كانت قلوب المسلمين قبل بعثه خاتم الأنبياء والمرسلين مواتا وكانت أرواحهم ظلاماً ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء ويفيض منها النور فتمشى به في الناس تهدى الضال وتلتقط الشارد وتطمئن الخائف وتحرر المستعبد وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد، المتحرر المستنير الذى خرج بعبودية الله وحده من عبودية العبيد. (١)

كما قال تعالى في آية أخرى منبهاً على ذلك (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيت لعلكم تعقلون). (٢)

قال ابن كثير رحمه الله: فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدى الحيارى بعد ضللتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لم يشاء بعد الإضلال والمضل لمن أراد بعد الكمال الذى هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال اللطيف الخبير الكبير المتعال. (٣)

وأما القلب المصر على الطغيان والمكبث في دياجير الكفر والبهتان فهو قلب منكوس مظلم قد طبع الله عليه كما قال تعالى: (بل طبع الله عليها بكفرهم) (٤) وقال كذلك: (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) (٥)

(١) انظر في ظلال القرآن ٨/١٢٠٠-١٢٠١

(٢) الآية رقم ١٧ من سورة الحديد.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧

(٤) جزء من الآية ١٥٥ من سورة النساء.

(٥) جزء من الآية ١٠١ من سورة الأعراف.

ولذلك إذا ذكر عنده الله عز وجل اشماز وضاق (وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة). (١)

وهو كذلك قلب مرعوب قلق (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) (٢) إنه لا أمن مع الكفر فالأمن والاطمئنان من لوازم الإيمان بالله وحده وقد حاج إبراهيم قومه بذلك عندما حاولوا تخويفه من آلهتهم الباطلة فقال تعالى مبيناً ذلك: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون). (٣)

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام أن المراد بالظلم هنا الشرك كما في قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم). (٤) (٥)

والقلب الكافر قلب ملء بالحقد والغل لعباد الله المؤمنين وخاصة الصفوة منهم أصحاب النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى أصحابه أجمعين قال تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ترهبهم ركباً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فئازه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً). (٦)

(١) جزء من الآية ٤٥ من سورة الزمر.

(٢) جزء من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

(٣) الآيتان ٨١ و ٨٢ من سورة الأنعام.

(٤) جزء من الآية (١٣) من سورة لقمان.

(٥) تقدم ذكر هذا الحديث وتخرجه ص ٢٩٤

(٦) الآية (٢٩) من سورة الفتح.

المبحث الثاني

الزيغ

إن زيغ القلب عن الحق سبب رئيس في موته قال تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين)^(١) وذلك أن الله تعالى كثيراً ما يعاقب على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه كما جاء في قوله تعالى أيضاً (فزادتهم رجساً إلى رجسهم)^(٢).

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى: (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)^(٣).

فالمعنى على أحد الأقوال: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة فعاقبناهم بتقليب أفئدهم وأبصارهم^(٤).

وقد استحسن هذا القول ابن القيم رحمه الله فقال: وهذا معنى حسن فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله (وأحسن كما أحسن الله إليك)^(٥) وقوله: (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم ءايتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)^(٦) والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأنجزاء من جنس العمل في الخير والشر^(٧).

(١) جزء من الآية رقم ٥ من سورة الصف.

(٢) جزء من الآية ١٢٥ من سورة التوبة.

(٣) جزء من الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

(٤) انظر شفاء العليل ص ٩٩

(٥) جزء من الآية ٧٧ من سورة القصص.

(٦) الآيتان ١٥١ و ١٥٢ من سورة البقرة.

(٧) انظر شفاء العليل ص ٩٩

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون)^(١) فعاقبهم الله عز وجل لانصرافهم بصرف آخر غير الصرف الأول. فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لاقبالهم لأنه لاصلاحية فيهم ولاقبول فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن - كما قال تعالى - في آية أخرى: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)^(٢) فهو سبحانه لم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به لأنه لاخير في قلوبهم يدخل بسببه الحق إليها وإنما أسمعهم سماعاً تقوم عليهم به الحجة فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاحة غير الزيغ الأول.

وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولنتأمل قصة إبليس عندما عصى ربه تعالى ولم ينفذ أمره وأصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية صغيرة وكبيرة فصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق فمن عقاب السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها والعباد في ذلك دائرون بين عدل الله تعالى وحجته عليهم فقد مكنهم وفتح لهم الباب ونهج لهم الطريق وهياً لهم الأسباب فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ودعاهم على السنة رسله وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردى وأسباب الفلاح وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً فآثروا

(١) جزء من الآية ١٢٧ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأنفال.

الهوى على التقوى واستحبوا العمى على الهدى وقالوا معصيتك آثر عندنا من طاعتك والشرك أحب إلينا من توحيدك وعبادة سواك أنفع لنا في دنيايا من عبادتك فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكمهم وانصرفت عن طاعته ومحبته فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً فسد عليهم اضطراراً فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ماتولوه ومكنهم فيما ارتضوه وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه وأغلق عنهم الباب الذى تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم ولا أحسن من فعله ولو شاء خلقهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم على غير هذه النشأة ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث والملائكة والشياطين والشاء والذئاب ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له فبعضها بطباعها وبعضها بإراداتها ومشيتها وكل ذلك جار على وفق حكمته وهو موجب حمده ومقتضى كماله المقدس وملكه التام ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ماخفي عليهم بوجه ما إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر. (١)

قال تعالى: (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء). (٢)

وقد جاء في حديث موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر أن الخضر قال لموسى وقد أخذ طائر بمنقاره من البحر: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر. (٣)

(١) انظر شفاء العليل ص ٩٧-٩٨

(٢) جزء من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٥٥/٣ كتاب التفسير (٦٥) سورة الكهف (١٨) باب (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً) (٣) رقم

المبحث الثالث

الجهل وعدم الفقه

إن الجهل باب عظيم من أبواب الفساد - أعنى فساد القلوب وفساد الأبدان وفساد الدنيا بأسرها -.

فهو يؤدي إلى التكذيب بخير الله وذلك هو أحد أنواع الكفر. (١)
قال تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) (٢) وقال
كذلك: (اكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً) (٣) وهو يؤدي مع إضلال
النفس إلى إضلال الغير قال تعالى: (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً
ليضل الناس بغير علم). (٤)

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من
العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس
رؤسأً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا". (٥)

ولذلك نهى الله عز وجل عن القول بلا علم فقال تعالى: (وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون). (٦)

وقال كذلك: (ولا تقف ما ليس لك به علم) (٧) وبين أن القول بلا علم

(١) كما سبق بيانه ص ٤٣٠

(٢) جزء من الآية ٣٩ من سورة يونس.

(٣) جزء من الآية ٨٤ من سورة النمل.

(٤) جزء من الآية ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه ٥٣/١ كتاب العلم (٣) باب كيف يقبض العلم (٣٤)

رقم الحديث (١٠٠) ومسلم في صحيحه ٢٠٥٨/٤ كتاب العلم (٤٧) باب دفع العلم

وقبضه (٥) رقم الحديث ٢٦٧٣/١٣

(٦) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

(٧) جزء من الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

من وسوسة الشيطان فقال تعالى: (إِذَا يَأْمُرُكَ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١) وصور إضلال الغير في المجتمعات الإسلامية كثيرة جداً من أعظمها زعم من زعم أن لله وسطاء بينه وبين خلقه لا يفعل سبحانه شيئاً من غير وساطتهم فحولوا القلوب عنه تعالى ووجهوها إلى قبور لا تعد ولا تحصى وإلى عبيد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً وقد يسمون هذا توسلاً إليه أى يتقربون إليه بالشرك به ودعاء غيره من دونه أو معه وهو يقول: (فلا تدعوا مع الله أحداً) (٢) ويقول (بل إياه تدعون) (٣) أى دون غيره. (٤)

ومن أوصله جهله إلى مثل هذه الأمور المنكرة فإنه سوف يقوده بلا ريب حتى يطبع على قلبه فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ولا ينتفع بخبر قال تعالى: (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) (٥) فالله تعالى يختم على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما يأتيهم به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله من العبر والعظات والآيات البينات فلا يفقهون عن الله حجة ولا يفهمون عن النبي ما يتلو عليهم من كتاب الله فهم في طغيانهم يترددون. (٦)

ولا يكفى العلم المجرد لسلامة القلب حتى يرافقه الفهم الصحيح وقد

(١) الآية ١٦٩ من سورة البقرة.

(٢) جزء من الآية ١٨ من سورة الجن.

(٣) جزء من الآية ٤١ من سورة الأنعام.

(٤) انظر تفسير المنار ٨٩/٢

(٥) جزء من الآية ١٠١ من سورة الأعراف.

(٦) انظر جامع البيان ٥٨/٢١

قال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". (١)
وأول الفقه فهم خطاب الله ورسوله بعد معرفة ثبوت ذلك عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٢)

وعدم فهم خطاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو الذي أوقع
الكثير في جبال المبتدعة الذين يلبسون على الناس فأنصرفوا عن الحق
فصرف لله قلوبهم قال تعالى: (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون). (٣)

-
- (١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٢/١ كتاب العلم (٣) باب من يرد الله به خيراً
يفقهه في الدين (١٣) رقم الحديث (٧١) ومسلم في صحيحه ٧١٨/٢ كتاب الزكاة
(١٢) باب النهي عن المسألة (٣٣) رقم الحديث (١٠٣٧/٩٨).
(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٧٨/٨
(٣) جزء من الآية ١٢٧ من سورة التوبة.

المبحث الرابع

إخلاف وعد الله عز وجل

لقد أخذ الله عز وجل على الناس ثلاثة موثيق^(١) بعبادته وحده دون ماسواه وترك كل ما يعبد من دونه وهى كالتالى:

الميثاق الأول: ماأخذه عليهم وهم في أصلاب آبائهم فقال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غفلين أو تقولوا إنما أشركنا آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون).^(٢)

الميثاق الثاني: أن الله عز وجل فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم في الميثاق الأول كما قال تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)^(٣) وهو الثابت في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مامن مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها".^(٤)

الميثاق الثالث: وهو ماجاءت به الرسل وأنزلت به الكتب تجديداً للميثاق الأول وتذكيراً به قال تعالى: (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).^(٥)

(١) انظر مختصر معارج القبول من ص ١٢ إلى ١٥

(٢) الآيتين ١٧٢ و ١٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) جزء من الآية ٣٠ من سورة الروم.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٤١٦/١-٤١٧ كتاب الجنائز (٢٣) باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (٧٩) الحديث (١٣٥٨) و (١٣٥٩) ومسلم في صحيحه ٢٠٤٧/٤ كتاب (٤٦) باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦) الحديث رقم (٢٦٥٨/٢٢).

(٥) جزء من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

وقد أيد الله رسله بالبراهين الدالة على صدقهم فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته قبله وقام به دون تردد ومن انحرفت فطرته فتلك البراهين التي مع الرسل ومالديهم من إقناع فيها الحجة الكافية عليه فمن وفى بالميثاق دخل الجنة وإلا فالنار أولى به.

والمقصود أن إخلاف وعد الله عز وجل ومواريقه التي أخذها على عباده وأقروا بها من الأسباب العظيمة لموت القلب ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: (ومنهم من عهد الله لأن ءاتلنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما ءاتلهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون). (١)

وإخلاف الوعد من صفات المنافقين كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان". (٢)

والآية تبين أن إخلاف الوعد يمكن النفاق في القلب ويقويه وتلك هي سنته تعالى. (٣)

قال ابن كثير عند هذه الآية: ومن المنافقين من أعطي الله عهده وميثاقه لأن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين فما وفي بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياداً بالله من ذلك. (٤)

(١) الآيات ٧٧-٨٠ من سورة التوبة.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ٢٧/١ كتاب الإيمان (٢) باب علامة المنافق (٢٤) رقم الحديث (٣٣) ومسلم في صحيحه ٧٨/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان خصال المنافق (٢٥) رقم الحديث (٥٩/١٠٧) و(٥٩/١٠٩).

(٣) انظر تفسير المنار ٥٥٩/١٠

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٢٤/٤

المبحث الخامس

الكبر

الكبر هو الامتناع عن قبول الحق معاندة والتقصص من الناس وهو من أوصاف القلب الميت اتصف به إبليس وتبعه على ذلك كل من اقتفى أثره وسار على ضلاله من الأمم المكذبة المعاندة.

وهو كذلك من أسباب تمكن موت القلب وقسوته ويؤدي به إلى أمراض أخرى هو عنها في منأى لو سلم من الكبر.

منها الطبع قال تعالى: (كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار). (١)

ومنها الإنكار والجحود قال تعالى: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون). (٢)

ومنها الانصراف عن آيات الله قال تعالى: (سأصرف عن آيتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها). (٣)

ومنها المكر قال تعالى: (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً). (٤)

إلى غير ذلك من الأمراض نسأل الله السلامة.

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة غافر.

(٢) جزء من الآية ٢٢ من سورة النحل.

(٣) جزء من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة سبأ.

المبحث السادس

اتباع الهوى

الهوى: ميل النفس إلى الشهوة قيل سمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية. (١)

والهوى والظن هما أصل الضلال كما قال تعالى: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى). (٢)

ولذلك قال الله عز وجل في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) (٣) فترهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم فالضال هو الذى لا يعلم الحق والغاوى الذى يتبع هواه، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس بل هو وحي أوحاه الله إليه فوصفه بالعلم وترهه عن الهوى. (٤)

ومتبع الهوى لابد أن يضل سواء عن علم أو عن جهل فإنه كثيراً ما يترك العلم اتباعاً لهواه ولا بد أن يظلم إما بالقول أو بالفعل لأن هواه قد أعماه. (٥)

وقد حذر السلف من مجالسة أهل الأهواء لأنها ممرضة للقلوب، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب". (٦)

(١) المفردات عند مادة (هوى) ص ٥٤٨

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة النجم.

(٣) الآيات ١-٤ من سورة النجم.

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٣/٣٨٤

(٥) الهوى وأثره في الخلاف ص ٨

(٦) تقدم تخريجه ص ٢٨٤

وكل من اتبع هواه كان له نصيب من ذلك بحسب هذا الاتباع قل
أو كثر.

ومن مفسد اتباع الهوى الوقوع في الذنب بعد الذنب حتى يران على
قلب صاحبه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون).^(١)

ومنها أيضاً تجاوز حدود الله والاعتداء على محارم الله حتى يطبع على
قلب صاحبه (كذلك نطبع على قلوب المعتدين).^(٢)

قال صاحب المنار: وأما الاعتداء الذي صار وصفاً ثابتاً لهؤلاء
(المعتدين) فمعناه تجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى النفس
وشهواتها.^(٣)

(١) الآية ١٤ من سورة المطففين.

(٢) جزء من الآية ٧٤ من سورة يونس.

(٣) تفسير المنار ١١/٤٦٤.

الفصل الثالث منهج القرآن الكريم في معالجة القلب الميت

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول : غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب الميتة.

المبحث الثاني: العلاج عن طريق الترغيب والترهيب.

المبحث الثالث: العلاج بضرب المثل.

المبحث الرابع: التأثير على القلب الميت عن طريق الإعجاز القرآني.

المبحث الخامس: الدعوة إلى إحياء القلوب الميتة بالرجوع إلى الله عز وجل

والبشارة بإمكانية ذلك.

تمهيد:

إن القرآن الكريم كتاب هداية للناس كافة (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً).^(١)

ولذلك فقد اهتم بهداية القلوب الحائرة الضالة اهتماماً عظيماً فتنوعت أساليبه لأجل هذا الغرض الرباني الكريم بحيث لا تبقى حجة لأحد على ربه (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).^(٢) وذلك من رحمة الله عز وجل بعباده ولطفه بهم ولا يهلك على الله إلا هالك.

وفيما يلي سأذكر منهج القرآن الكريم في علاج موت القلب كما ظهر لى. والله هو الموفق.

(١) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) جزء من الآية ١٦٥ من سورة النساء.

المبحث الأول

غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في القلوب

وذلك عن طريق الأمور التالية:

أولاً: توجيه القلب الميت إلى معرفة الله جل وعلا بأسمائه وصفاته:

إن لأسماء الله عز وجل وصفاته وقعاً عظيماً في قلوب الخلق مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم ولذلك كان من منهج كتاب الله الكريم مخاطبة موقى القلوب وتذكيرهم بصفات الله العظيمة عسى أن يحيي ذلك منهم قلباً أو يرد ضالاً قال تعالى: (أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ). (١)

فهذا تذكير ودعوة لأهل الإلحاد بصفة الخلق والرزق.

فالله كم أحيا ذكر الله وأسمائه وصفاته قلوباً غلفاً وكم فتح أعيناً عمياً وآذاناً صماً.

أخرج البخاري عن جبير بن مطعم (٢) رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية (أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ) كاد قلبي أن يطير. (٣)

(١) الآيات ٣٥-٣٧ من سورة الطور.

(٢) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف بن قصي، شيخ قريش في زمانه أبو محمد ويقال أبو عدي القرشي النوفلي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الطلقاء حسن إسلامه وكان موصوفاً بالحلم ونبيل الرأي كأبيه، له رواية أحاديث، مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين. انظر السير ٩٥/٣، الإصابة ٢٢٧/١ برقم ١٠٩١

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٩٧/٣-٢٩٨ كتاب التفسير (٦٥) سورة الطور

وقال تعالى في محكم التنزيل: (أفي الله شك فاطر السموات والأرض).^(١)

وهذا القول هو ماقالته الرسل لأقوامهم في دعوتهم إياهم.
وقال تعالى: ذاكراً مناظرة موسى عليه الصلاة والسلام لإمام موقى القلوب فرعون: (قال فرعون وما رب العلمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون).^(٢)
والآيات في هذا كثيرة ليس هذا مقام سردها.

ثانياً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله الشرعية:
لقد دعا الله عز وجل أصحاب القلوب الميتة من أهل الكفر والعناد إلى الاستماع لآيات كتابه الكريم وتدبرها فقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).^(٣)

وقال تعالى مخاطباً موقى القلوب من أهل الكتاب داعياً إياهم إلى الاستماع للقرآن الذي يحمل نور الحياة إلى قلوبهم التى أطفأ نورها ديجور الكفر والتكذيب، قال تعالى: (يأهل الكتب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتب مبين يهذى به الله من اتبع رضوانه سبل السلم ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم).^(٤)

(١) جزء من الآية ١٠ من سورة إبراهيم.

(٢) الآيات ٢٣-٢٨ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد.

(٤) الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة المائدة.

بل لقد أمر الله عز وجل المؤمنين بإسماع المشركين كلامه الكريم لما يحمل في طياته من هداية ونور فقال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله). (١)

ولقد ذكر الله عز وجل الكفر والشرك والنفاق وأوصاف القلوب الميتة وما ينتظر أهلها من عذاب عظيم، وثواب المنيبين إليه التائبين المخبتين في الدنيا والآخرة، ذكر ذلك كله في آيات كثيرة من شأنها أن تنير قلوب السامعين وتعيد إليها الحياة (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) (٢) هذا مع ما يحمله كلام الله من الشفاء والبركة والهداية (يأيتها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين). (٣)

ثالثاً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله الكونية والنفسية:

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذين المجالين لما يحملان من دلائل عظيمة على توحيد الله عز وجل وصدق كتابه ورسوله فقال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). (٤)

والقرآن الكريم إنما ينتقى من آفاق الكون وعجائب النفس البشرية ما يحقق أغراضه وأهدافه التي من أهمها تبيان الحق وإظهاره والاستدلال على توحيد الله عز وجل وترسيخ الإيمان باليوم الآخر بالبرهان والحجة. (٥)

(١) جزء من الآية ٦ من سورة التوبة.

(٢) جزء من الآية ١٧ من سورة الحديد.

(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس.

(٤) جزء من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٥) انظر التربية بالآيات ص ١٩٥

وقد خاطب القرآن أصحاب القلوب الميتة بهذا الجانب لتحقيق الأغراض السابقة نفسها فقال تعالى: (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظم وهو رميم قل يحْيِيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذي خلق السموات والأرض بقدر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلق العليم). (١)

وقال تعالى: (ذُلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل). (٢)

إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب حصرها في هذا الموضع. (٣)

رابعاً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله التاريخية:

والمراد ما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم من قصص الأنبياء مع أقوامهم وكذلك ما حل بالأمم المكذبة من عذاب في الدنيا وما ينتظرهم في الدار الآخرة من ذل وهوان قال تعالى: (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أسئوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون). (٤)

والقرآن مليء بذكر هذه السنة الربانية وبال دعوة إلى النظر فيها وتدبرها والاعتبار بها. (٥)

(١) الآيات ٧٨-٨١ من سورة يس.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنعام.

(٣) وقد تقدم الكلام عن آيات الله الكونية والنفسية بشيء من التفصيل.

(٤) الآيتان ٩ و ١٠ من سورة الروم.

(٥) وقد تقدم الكلام على ذلك بشيء من التفصيل.

المبحث الثاني

العلاج عن طريق الترغيب والترهيب

وذلك من طريقين:

الأول: الحديث عن القلب الميت وذكر أسباب موته وبيان ما يوصل إليه موت القلب من العذاب الدنيوى والأخروي:

فلقد اهتم القرآن الكريم بالحديث عن القلوب الميتة القاسية ولا أدل على ذلك من ذكره لكثير من أوصافها التي سبق بيانها كالكفر والنفاق والكبر والطبع والخبث والرين والكن والزيف وغير ذلك وليس ذاك فحسب بل اهتم أيضاً ببيان أسباب موت القلب وقد سبق بيان ذلك أيضاً. ثم ذكر أيضاً ما يوصل إليه موت القلب من العذاب الدنيوى والأخروي.

ومن الأمثلة على ذلك:

الحديث عن المنافقين ومصيرهم المؤلم يقول تعالى في ذلك: (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً)^(١) وقال كذلك: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً)^(٢).

ومنها بيان قلقهم وتشتتهم في الدنيا فقال: (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سيلاً)^(٣).

ومنها أيضاً بيان تشتت أصحاب القلوب الميتة وإنهم لا يجتمعون وإن أظهروا ذلك (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)^(٤).

ومنها أيضاً ذكر ما ينال القلب الميت من الرعب والخوف من المؤمنين

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٤٥ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٤٣ من سورة النساء.

(٤) جزء من الآية ١٤ من سورة الحشر.

قال تعالى: (فَأْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ). (١)

ومنا أيضاً ذكر ما هم فيه في الدنيا والآخرة من عمى وضلال قال تعالى: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا). (٢)

وأما ما توعّدوا به في الآخرة فهو النار وبئس المصير قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى أيضاً: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ). (٣)

وقال تعالى أيضاً: (إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ). (٤)

والآيات في ذلك كثيرة جداً يصعب حصرها في هذا الموضع.

ثانياً: الحديث عن القلب الحي وذكر أسباب حياته وسلامته وبيان ما يناله أصحابه من النعيم الدنيوي والأخروي:

ولقد اهتم القرآن الكريم بذلك اهتماماً عظيماً فذكر أوصاف القلب الحي السليم كالإيمان واليقين والطمأنينة والسكينة والرحمة والرأفة وغير ذلك مما سبق ذكره من أوصاف القلب السليم ثم ذكر أسباب سلامة القلب وما أعد الله عز وجل لأصحاب القلب السليم من النعيم المقيم. (٥)

إن في ذكر ذلك كله لحشاً لكل من له عقل وقلب أن يلحق بالركب وأن يعود إلى الله عز وجل ويقبل عليه تعالى بقلب خالص من كل شبهة وشهوة لينال الطمأنينة والراحة في الدنيا والآخرة.

(١) جزء من الآية ٢ من سورة الحشر.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٦٨ من سورة التوبة.

(٤) جزء من الآية ٧٢ من سورة المائدة.

(٥) كما سبق بيان ذلك بالتفصيل.

المبحث الثالث

العلاج بضرب المثل

للأمثال تأثير كبير في القلوب لأنها تشبه الحفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهية الشيء ويصير الحس مطابقاً للعقل ولذلك استخدم القرآن الكريم المثل كعلاج لموتى القلوب.

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد الأمثال المضروبة للمعاندين الجاحدين كثيرة يصعب حصرها:

كتمثيل الكافر بالأعمى والأصم وذلك في قوله تعالى: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً).^(١)

والمأخذ من دون الله أولياء بالعنكبوت وذلك في قوله تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).^(٢)

والكفار بمنزلة العبد المملوك العاجز وذلك في قوله تعالى: (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء).^(٣)

ومن يعرف الحق ثم يخالف ذلك بالحمار وذلك في قوله تعالى: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً).^(٤)

ومن أوتي العلم فترك العمل به اتباعاً لهواه بالكلب وذلك في

(١) جزء من الآية ٢٤ سورة هود.

(٢) الآية ٤١ سورة العنكبوت.

(٣) جزء من الآية ٧٥ سورة النحل.

(٤) جزء من الآية ٥ سورة الجمعة.

قوله تعالى: (واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءايئنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمضاه كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).^(١) وغير ذلك من الأمثلة التي هي كفيلة بإعادة من لديه أدنى عقل إلى منهج الله عز وجل في الاعتقاد والقول والعمل.^(٢)

-
- (١) الآية ١٧٥ وجزء من الآية ١٧٦ سورة الأعراف
 (٢) انظر للاستزادة من هذه الأمثال مع شرحها بالتفصيل كتاب الأمثال في القرآن لابن القيم رحمه الله وقد تقدم الكلام على الأمثال وفوائدها بشيء من التفصيل.

المبحث الرابع

التأثير على القلب الميت عن طريق الإعجاز القرآني

القرآن الكريم كلام الله عز وجل وفيه الدعوة والحجة وله اختصاص على غيره كما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: "مامن الانبياء نبي إلا وقد أعطى من الآيات مأمثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى^(١) فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"^(٢).

والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً من وجوه^(٣) فيقال: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الرسائل ولا الخطابة ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس، عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته أمر عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل يعرفه من له نظر وتدبر. ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر لاني^(٤) ولا غير نبي.

(١) لعل المراد أن أعظم ما أوتيته النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن لا أنه لم يؤت غيره من خوارق العادات لأن القرآن هو الآية الباقية إلى قيام الساعة ولذلك قال بعد ذلك "فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/٣٣٦ كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب كيف نزل الوحي (١) رقم الحديث (٤٩٨١) ومسلم في صحيحه ١٣٤/١ كتاب الإيمان (١) باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس (٧٠) برقم ٢٣٩

(٣) انظر ذلك بالتفصيل في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٧٨/٤، والبرهان للزركشي ٩٠/٢ إلى ١٢٤، ومناهل العرفان ٣٥٤/٢ إلى ٤٤٢

(٤) المراد كلام النبي الذي يكون من عند نفسه.

وكذلك ما أخبر عن الملائكة والعرش والكرسي والجن، وخلق آدم وغير ذلك، وما أمر به القرآن من الدين والشرائع، كذلك ما أخبر به من الأمثال وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك.

والإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه وجميع عقلاء -بني آدم- عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الاتيان بمثل لفظه.^(١)

ولقد كان العرب يفدون ويستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم، حتى إن كبار المعارضين للنبي صلى الله عليه وسلم خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن فيهم واستحبوا الكفر على الإيمان واستحبوا العمى على الهدى ولذلك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن، لأن الذين يسمعون يتأثرون بما فيه من علو بيان وأنه فوق طاقة البشر ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى، ومنهم كبراء ذوي مقام وجبروت فوجدوا الإيمان يقوى ويكثر أهله والشرك يضعف وينقص عدده، تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن وأن يُهَرَّجوا بالقول عند سماعه. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك فقال: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون).^{(٢)(٣)}

هذا وقد اعترف مشركوا قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان كما جاء في قصة عتبة عندما كلم النبي صلى الله عليه وسلم محاولاً أن يشنيه عن

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٧٨/٤

(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة فصلت.

(٣) انظر المعجزة الكبرى القرآن ص ٦٨-٦٩

دعوة الإسلام فقد قال عتبة لقومه بعد أن عاد عليهم: ولقد علمتم أني من أكثر قریش مالاً ولكني أتيتهم فقص عليهم القصة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتب فصلت آياته قرءانا عربياً لقوم يعلمون حتى بلغ فقال: أنذرتكم صلعة مثل صلعة عاد وثمود)^(١) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فحفت أن يزل بكم العذاب".^(٢)

وكثير ممن أسلم إنما بهرته روعة القرآن وإعجازه ولذلك أمر الله عز وجل بإسماعه للمشركين فقال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه).^(٣)

وفي قصة إسلام أبي ذر^(٤) رضي الله عنه قال أبو ذر: فانطلق أنيس

(١) الآيات ١-١٣ من سورة فصلت.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢٠٢/٢ إلى ٢٠٤

وقال الشيخ الألباني في هذه القصة: أخرجه ابن اسحاق في المغازي ١٨٥/١ من سيرة ابن هشام بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضي الله عنه كما في تفسير ابن كثير ٩٠/٤-٩١ وسنده حسن إن شاء الله. انظر تحقيق الشيخ الألباني لفقه السيرة للغزالي ص ١١٦

(٣) جزء من الآية رقم ٦ من سورة التوبة.

(٤) هو جندب بن جنادة الغفاري أحد السابقين الأولين من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قيل كان خامس خمسة في الإسلام ثم رجع إلى بلاده وأقام فيها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هاجر إليه أبو ذر رضي الله عنه ولازمه وجاهد معه وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين وكان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل، مات سنة ٣٢ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٦/٢، الإصابة ٦٣/٤ في باب

-أخو أبي ذر- حتى أتى مكة فراث علىّ ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال:
لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله قلت: فما يقول الناس؟
قال: يقولون: شاعر كاهن ساحر وكان أنيس أحد الشعراء قال أنيس: لقد
سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر
فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.^(١)
وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: "سمعت النبي صلى الله
عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير
شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا يوقنون أم
عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) كاد قلبي أن يطير".^(٢)
قال الخطابي: إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى
الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة فاستدركها واستشف معناها بذكى
فهمه.^(٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة وحسبى ما ذكرت.

-
- (١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩١٩/٤-١٩٢٠ كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب فضائل
أبي ذر رضى الله عنه (٢٨) رقم الحديث ٢٤٧٣-١٣٢
(٢) تقدم تخريجه ص ٤٤٨
(٣) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ١٩١٢/٣

المبحث الخامس

الدعوة إلى إحياء القلوب الميتة بالرجوع إلى الله عز وجل

والبشارة بإمكانية ذلك

إن موت القلب لا يعتبر أمراً لانجاة منه كما يفهم ذلك الجبرية وإنما القلب يموت ويقسو لوجود أسباب ذلك والنجاة من ذلك أمر ممكن بترك المعاند لعناده والمقلد لتقليده إيثراً للحق الذي يقوم عليه الدليل. (١)

ولذلك قال تعالى بعد أن عاتب المؤمنين استبطاء منه تعالى لقلوبهم بقوله: (ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون).

قال تعالى بعد ذلك: (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيت لعلكم تعقلون). (٢)

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدى الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان، كذلك يهدى القلوب القاسية براهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال. (٣)

(١) انظر تفسير المنار ٤٦٤/١١

(٢) الآية ١٧ من سورة الحديد.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٧/٨

وقال تعالى في آية أخرى: (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً
يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين
للكافرين فيه ما كانوا يعملون).^(١)

قال ابن كثير رحمه الله: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي
كان ميتاً أي في الضلالة هالكاً حائراً فأحياه الله، أي أحيأ قلبه بالإيمان
وهداه له ووفقه لاتباع رسله (وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) أي
يهتدى كيف يسلك وكيف يتصرف به.^(٢)

والنور هو القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما.^(٣)
وقال السدي: الإسلام.^(٤)

قال ابن كثير: والكل صحيح.^(٥)

فالقرآن حياة القلوب والأبصار، وهو يدخل القلوب التي
تأخذ بحسبها فقلب كبير يسع علماً عظيماً وقلب صغير يسع بحسبه.
فإذا دخل القلوب خالط ما فيها من الشبهات والشهوات ليقطعها
ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه وهذا من تمام نفع
الدواء فإنه آثارها ليذهب بها فإنه لا يجمعها ولا يساكنها فكذلك ما أنزله
الله من العلم والهدى لا يساكن الضلال في قلب واحد البتة.
واقراً في ذلك قوله تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها
فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع

(١) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٢٢/٣

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٣/٨

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) تفسير القرن العظيم ٣٢٢/٣

زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والبطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال). (١)

فشبه الوحي الذي أنزله حياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله حياة الأرض وشبه القلوب بالأودية التي تختلف في الكبر والصغر وشبه الوحي أيضاً بالنار وشبه الشهوات والشبهات التي تحملها القلوب بالخبث الذي يحمله الذهب أو الفضة أو غيره من المعادن ويخرج عند السبك. (٢)

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد.

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ص ١١-١٢

الخاتمة

وبعد هذه الجولة المباركة في رحاب كتاب ربنا الكريم فإننى أحمد
تعالى الذي بحمده تتم الصالحات، أحمدته على توفيقه وامتنانه وأسأله أن
يبارك هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يجزل لى ولوالدي
ولكل من أعانني فيه الأجر والمثوبة يوم العرض عليه إنه جواد كريم.
وفيما يلى سأذكر بعض الأمور التى توصلت إليها من خلال هذا

البحث:

أولاً: أن المراد بالقلب هو تلك اللطيفة الربانية التى تعقل وتحب
وتؤمن وتخاف وترجو وتطمئن وغير ذلك من أعمال القلب وله اتصال
بالقلب البشري المحسوس وله اتصال كذلك بالدماغ وسائر أعضاء الإنسان
يأمرها وينهاها فهو القائد وهي الجنود.

ثانياً: أن القلب ينقسم باعتبار أوصافه إلى ثلاثة أقسام: سليم، ومريض،
وميت، ولكل من هذه الأقسام صفات معينة تقوم بالقلب.

ثالثاً: أن لسلامة القلب أسباباً لا بد من القيام بها حتى يتحقق للقلب
ذلك وتتبع السلامة هذه الأوصاف وجوداً وعدماً وقوة وضعفاً.

رابعاً: أن مرض القلب نوعان: نوع مؤلم في الحال، ونوع مؤلم عند
ظهور ثماره وعواقبه لأن غلبة الشهوة ولذة المعصية حالتا بين الشعور بالألم
مع وجوده فإذا انقطعت الشهوة وزالت اللذة ظهر الألم جلياً قوياً.

خامساً: أن لمرض القلب أسباباً لا بد من الحذر منها.

سادساً: أن موت القلب حدث عظيم وأمر خطير يوقع صاحبه في أسوأ
الأوصاف وأخسها التى لا ترتضيها العقول السليمة ولا الفطر المستقيمة
فضلاً عن الشرع القويم.

سابعاً: أن معالجة القلب المريض والميت لا بد أن تكون وفق المنهج الذي ذكره الله عز وجل في كتابه وذكره رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته لأن أعلم الناس بالخلق هو خالقهم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١).

ثامناً: عظم هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه في أسلوبه ونظمه ومعانيه فألفاظ سهلة قصيرة تحمل من المعاني الشيء الكثير الذي لو كتبت فيه الكتب بنظم البشر لعجزت أن تفي بما حملته تلك الألفاظ القرآنية القليلة وتراكيب متناسقة بأساليب متنوعة لا يتطرق معها الملل إلى القارئ بل تزيده شوقاً إلى شوقه ومحبة إلى محبته وقرباً إلى قربه، تفتح القلوب المغلقة وتهديها إلى الصراط المستقيم.

تاسعاً: قلّة علم المخلوق إذا قورن بعلم الله عز وجل كما قال تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (٢) فكل ما وقع في يدي من كتب البشر وأفدت منه مفتقر إلى كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم محتاج إليه فهو إما شرح له أو فهم أوتيه رجل لكلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ثم مع هذا ففي الكتب البشرية نقص وعيب وخلل مهما كان كاتبها يتره عنه كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٣).

عاشراً: رحمة الله عز وجل بعباده ولطفه بهم حيث إنه اهتم بما يصلح حالهم ويسعدهم في الدارين فأنزل إليهم ما يهديهم ويشرح صدورهم وينير

(١) آية رقم (١٤) من سورة الملك.

(٢) جزء من الآية (٨٥) من سورة الإسراء.

(٣) الآية (٨٢) من سورة النساء.

قلوبهم مع غناه تعالى وعدم احتياجه لأحد من خلقه.
 أحد عشر: أهمية القلوب وأنها هي التي تنجي عند علام الغيوب
 ولذلك فأعطاؤها وقتاً كبيراً من البحث والنظر فيما يصلحها ويقيم حالها
 أمر مهم جداً لترتب السعادة والشقاوة الأبدية على ذلك.
 إثنا عشر: معرفة بعض السنن الربانية التي تحكم حياة البشر والتي
 يؤدي جهلها إلى عواقب وخيمة.

ثلاثة عشر: أهمية التفسير الموضوعي لبحث كثير من الموضوعات التي
 طرقها القرآن الكريم مما في شأنه إظهارها وتوضيحها من خلال الآيات
 القرآنية والأحاديث الصحيحة وأقوال الصحابة وما تقتضيه اللغة العربية.
 سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله
 رب العالمين.

فهرس الفهارس

- ١- فهرس الآيات
- ٢- فهرس الأحاديث
- ٣- فهرس الآثار
- ٤- فهرس الأشعار
- ٥- فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة في الهامش
- ٦- فهرس الأعلام المترجمين
- ٧- فهرس المراجع
- ٨- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة الفاتحة)	٥	٢٦٨، ١٤٨
إياك نعبد وإياك نستعين		
(سورة البقرة)		
آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين	٢-١	٢٧٧، ١٠٨
والذين يؤمنون بما أنزل إليك	٥-٤	١٠٨، ٧٢
إن الذين كفروا سواء عليهم	٧-٦	٤٣٠، ٣٩٩
ومن الناس من يقول ءامنا بالله	١٠-٨	٤٣١، ٢٨١
صم بكم عمى	١٨	٤١٤، ٤١٢
اعبدوا ربكم	٢١	٣١
وإن كنتم في ريب مما نزلنا على	٢٣	٨٩
إلا إبليس أبى واستكبر	٣٤	٤٢٠، ٢٨٦
ولا تقرّبوا هذه الشجرة	٣٥	٢٩٤
يلبئى إسرائيل اذكروا نعمتى	٤٠-٤٢	٣٢٨
وإستعينوا بالصبر والصلوة	٤٥	٢٩٤
وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون	٥٧	٢٩٦
قالوا أتتخذنا هزوا	٦٧	١٩٨
ثم قست قلوبكم	٧٤	٤١٠
أفكلما جاءكم رسول	٨٧	٤٢١، ٢٨٤
وقالوا قلوبنا غلف	٨٨	٤٠٧، ٤٠٦
فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به	٨٩	٤٣١
ود كثير من أهل الكتاب	١٠٩	٢٨٨
ولن ترضى عنك اليهود	١٢٠	٣٦٥، ٣٢٦
قولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا....	١٣٦	٦٤
وكذلك جعلناكم أمة وسطا	١٤٣	٣٥٨، ٣٥٧
الذين ءاتينهم الكتاب يعرفونه	١٤٦-١٤٧	٤٣١
كما أرسلنا فيكم رسولا منكم	١٥١-١٥٢	٤٣٥، ١٥٦
ولنبلونكم بشئ من الخوف	١٥٥-١٥٧	٢٢٥، ١٩
		٣٤٦، ٣١٣
إن الصفا والمروة...	١٥٨	١٧٨
إلا الذين تابوا وأصلحوا	١٦٠	١٢٥
ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا....	١٦٥-١٦٧	٣٩١، ٨٠
إنما يامركم بالسوء والفحشاء -	١٦٩	٤٣٩

الآية	رقمها	الصفحة
ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق ليس البر أن تولوا وجوهكم	١٧٢-١٧١	٤١٤، ١٥٦
	١٧٧	١٧٥، ١٤٠
		٣٥٦، ٣٤٦
والعبد بالعبد	١٧٨	٣١
يأياها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام....	١٨٣	٢٦١
الحج أشهر معلومت	١٩٧	٢٦٤
فإذا أفقستم من عرفتم	١٩٩-١٩٨	٥٣
ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة	٢٠١	٣٣٥
ومن الناس من يعجبك قوله	٢٠٤	٣٨١
والله لا يحب الفساد	٢٠٥	٨٦
أم حسبم أن تدخلوا الجنة	٢١٤	٣١٠، ٣٠٨
إن الذين ءامنوا والذين هاجروا وجهوا	٢١٨	٩٥
فاعتزلوا النساء في المحيض	٢٢٢	١٩٥، ٨٦
ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه	٢٣١	٣٤٤، ٢٩٦
ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله	٢٣٢	٣٤٤
ولا يحيطون بشئ من علمه	٢٥٥	٤٣٧
رب أرني كيف تحيي الموتى	٢٦٠	٢١١
كالذي يتفق ماله رثاء الناس	٢٦٤	٣٥٠
أيود أحدكم أن تكون له جنة	٢٦٦	١٠٢
الشيطن يعدكم الفقر	٢٦٨	٣٦٣، ٣١٨
يحسبهم الجاهل أغنياء	٢٧٣	٢٩٧
واتقوا الله ويعلمكم الله	٢٨٢	٢٤٩
لا يكلف الله نفساً إلا وسعها	٢٨٦	٤٢٩
(سورة آل عمران)		
هو الذي أنزل عليك الكتاب	٧	٢٥٠، ٢٧٠، ٢٧٠، ٢٦
		٣٧٦، ٣٦٤، ٣٢٥، ٢٨٠
	٨	٣٧٩، ٣٧٦، ١١٠
	١٥-١٤	٣٦٠، ٣٣٤، ٣١٢، ٢٨٢
	١٨	٢٥
	٣١	٨١
	٣٣	١٧٨
	٤٢	١٩٥
ربنا لا تزغ قلوبنا		
زين للناس حب الشهوات		
شهد الله أنه لا إله إلا هو		
قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني		
إن الله اصطفى ءادم ونوحاً		
وإذ قالت الملائكة يُمريم		

الآية	رقمها	الصفحة
والله لا يحب الظالمين	٥٧	٨٦
ثم نبتهل فنجعل لعنه الله على الكذابين	٦١	٣٣٨
فإن الله يحب المتقين	٧٦	٨٦
ومن يبتغ غير الإسلام ديناً	٨٥	٢٤١
لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون	٩٢	٢٥٩
يأياها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته	١٠٢	١٢٩
واعتصموا بحبل الله جميعاً	١٠٣	١٩٢، ١٦١
وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون	١١٧	٢٩٦
يأياها الذين ءامنوا لا تتخذوا بطانه من دونكم	١١٨-١١٩	٤٢٥، ٣٠٦
وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً	١٢٠-١٢١	٤٢٦، ٢٢٤، ٢١٦
إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم	١٢٤-١٢٧	٢١٨، ٢١٦، ٢١٣
والكظمين الغيظ...	١٣٤-١٣٥	٣٠٦، ١٠٦، ٨٦
قد خللت من قبلكم سنن...	١٣٧-١٣٩	٣٠٢، ٢٧٧، ١٦٦
والله يحب الصّبرين	١٤٦	٣٥٢، ٣٤٤
سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب...	١٥١	٢٢٥، ٨٦
وليبتلى الله مافي صدوركم	١٥٤	٤٣٤، ٣٨٩
يأياها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين كفروا...	١٥٦	٣٠٨
فإذا عزمتم فتوكل على الله	١٥٨	٣٩٠
لا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله...	١٦٩-١٧٠	٤٥
الذين استجابوا الله والرسول...	١٧٢-١٧٥	١٨٤، ١٨٣، ١٨٢
ماكان الله ليذر المؤمنين	١٧٩-١٨٠	١٤٩، ١٠١، ١٠٠
إن في خلق السموات والأرض	١٩٠-١٩١	٣٢٢، ٢٤٦
(سورة النساء)		٣٦١، ٣٠٨، ٢٩٠
إن الله كان عليكم رقيباً	١	٣٤٩، ١٠٢
واعبدوا الله...	٣٦-٣٧	١٣٢
ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم	٤٩	٢٨٩، ٣١
ألم يحسدون الناس على ما ءاتاهم الله..	٥٤-٥٥	٢٨٨
ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم	٦٤-٦٥	٢٩٦، ١٥٤
ومن يطع الله ورسوله	٦٩	١٣٩
وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله	٧٨	٣١٤، ٧٩
أفلا يتدبرون القرآن	٨٢	٤٦٤، ٣٤١

الآية	رقمها	الصفحة
ومن يقتل مؤمناً متعمداً	٩٣	٣٠٤
إن الله لا يغفر أن يشرك به...	١١٦-١٢٠	٣١٧، ٢٤٤، ٢٠٥
بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً	١٣٨	٤٥٢
مذبذبين بين ذلك	١٤٣	٤٥٢
إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار...	١٤٥	٤٥٢، ٣٨٢
وكان الله شاكراً عليمًا	١٤٧	١٥٦
بل طبع الله عليها بكفرهم	١٥٥	٤٣٣، ٣٣
رسلاً مبشرين ومنذرين	١٦٥	٤٤٧، ٤٤١، ٥٨
يأياها الناس قد جاءكم برهن من ربكم (سورة المائدة)	١٧٤	٢٦٩
وإن كنتم جنبا فاطهروا	٦	٢٥٠، ١٩٥
يأياها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله	٨	٣٥٥، ١٩٢
فيما نقضهم ميثقهم لعنهم	١٣	٤٠٨
يأهل الكتب قد جاءكم رسولنا...	١٦-١٥	٤٤٩
وعلى الله فتوكلوا	٢٣	١٤٧
يأياها الرسول لا يحزنك الذين يسرعون في الكفر	٤١	٢٤٥، ٢٤٠، ٢٠٣
		٤١٥، ٣٩٣
يأياها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه	٥٤	٨٣، ٨٢
يأياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك	٦٧	١٤٨
فعموا وصموا	٧١-٧٢	٤٥٣، ٤١٢
قل يأهل الكتب لا تغلوا في دينكم غير الحق	٧٧	٣٥٩
وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم	٨٣	١١٢
يأياها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم	٨٧-٨٨	٣٥٩
إذ قال الحواريون يعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك	١١٢-١١٣	٢١٣
قال الله هذا يوم ينفع الصديقين صدقهم (سورة الأنعام)	١١٩	١٤٠
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون	١	٨١
ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا	٢٢	٣٦٧
ومنهم من يستمع إليك	٢٥	٤٠٢
قد خسر الذين كذبوا بقاء الله...	٣١	٣٩١
ولو شاء الله لجمعهم على الهدى	٣٥	٤١٧

الآية	رقمها	الصفحة
من يشأ الله يظله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم بل إياه تدعون...	٣٩ ٤٦-٤١	٢٣٧ ٤٠٠، ١٨١، ٩٤ ٤٣٩، ٤١٠
ولا تطرد الذين يدعون ربهم أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وكيف أخاف ما أشركتم أولئك الذين هدى الله إن الله فالق الحب والنوى ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خلق كل شيء.... قد جاءكم بصائر من ربكم.. ولو شاء الله ما أشركوا ونقلب أفئدتهم وأبصارهم وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم أو من كان ميتاً فأحييناه فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً.... قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين (سورة الأعراف)	٥٢ ٥٤ ٧١ ٧٦-٧٥ ٨٢-٨١ ٩٠ ٩٥ ١٠٢ ١٠٤ ١٠٧ ١١٠ ١١٩ ١٢٢ ١٢٥ ١٤٤ ١٦٣-١٦٢	٨٤، ٦٤ ٣٦٣، ٣٢٤ ٣٦١ ٣٢٩، ٦٤ ٤٣٤، ٣٦٦، ٢٩٤، ٩٩ ٣٧١، ١٢٧ ٣٤٩ ٤٥١ ٣٩ ٤١٧ ٤٣٥ ٤٣٢، ٣٢٦ ٤٦١ ٢٤٥، ٢٣٧ ٤٢٨، ٤١٦ ٤٣٨ ٣٥٦، ٢٦٥
قال فيما أغويتني لأقعدن لهم... فوسوس لهما الشيطان إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون قل أمر ربي بالقسط... قل إنما حرم ربي الفواحش وقالوا الحمد لله الذي هدانا وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها ونطبع على قلوبهم... سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض... ولما سكنت عن موسى الغضب	١٧-١٦ ٢٣-٢٠ ٢٧ ٢٩ ٣٣ ٤٣ ٩٦-٩٤ ١٠١-١٠٠ ١٤٦ ١٥٤	٣١٦ ٣٦٩، ٣٦٣، ٣١٩، ٢٩٤ ٣٦٣ ٣٦٦ ٤٣٨، ٣٣٨، ١٨٥ ٢٣ ٣٥٣، ٩٤ ٤٣٩، ٤٣٣، ٣٩٨، ٣٩٧ ٤٤٣ ٢٤٨، ١٠٧

الصفحة	رقمها	الآية
٤٤٧	١٥٨	قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً
٤٤١	١٧٣-١٧٢	وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
٤٥٥	١٧٦-١٧٥	واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناهُ ءايئنا فانسَخ منها
٤١٣، ٣٤٣، ٧١، ٣٣	١٨٠-١٧٨	من يهد الله فهو المهتدي
٣٦٤، ٢٧٧	٢٠٠-١٩٩	خذ العفو وأمر بالعرف
٣٤٣	٢٠٤	وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا
		(سورة الأنفال)
١٠٤، ٦٦، ٦٥، ٢٠	٢-١	فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم
٣٦٦، ١١٠		
٢٤٣، ٢٢٧، ٢١٤	١٢-٩	إذ تستغيثون ربكم
٣٨٩، ٢٥٤		
٤٣٦، ٤٢٨، ٤١٤، ٤٠١	٢٤-٢٣	ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم....
١٩٠	٢٩	يأيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً...
٣٩١	٣٦	إن الذين كفروا ينفقون أموالهم...
٢٢٤، ٩١	٤٦-٤٥	يأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا...
٣٥٣	٥٣	ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته...
٢٤	٦٠	لا تعلمونهم الله يعلمهم
٦٨	٧٠	يأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى
		(سورة التوبة)
٤٥٨، ٤٥٠	٦	وإن أحد من المشركين استجارك
٣٦٦	١١	فإن تابوا وأقاموا الصلوة...
٣٠٦	١٥-١٤	قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم
٣٦٠، ٨١	٢٤	قل إن كان ءاباؤكم وءبنائكم وءخوانكم...
٣٩٣، ٢٤٤	٢٨	إنما المشركون نجس
٣١٢	٣٥-٣٤	والذين يكتزون الذهب والفضة
٣٠٨	٤٠	إذ يقول لصاحبه لا تحزن
٣٨٣	٤٥	إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله...
٣٢١	٥٦	ويخلفون بالله إنهم لمنكم
٢٥٨	٦٠	إنما الصدقات للفقراء
٣٨٤، ٣٨٢	٦٤	يحذر المنفقون أن تنزل عليهم سورة
٤٥٣، ٢٨٢	٦٩-٦٨	وعد الله المنافقين والمنفقات والكفار نار جهنم
٤٤٢، ٣٨٢، ٢٩٠، ٢٦٧	٧٧-٧٥	ومنهم من عهد الله لئن ءاتننا من فضله...

الآية	رقمها	الصفحة
رضوا بأن يكونوا مع الخوالب	٨٧	
ليس على الضعفاء ولا على المرضى	٩١	٥٥
وآخرون اعترفوا بذنوبهم	١٠٣-١٠٢	٢٥٨، ٢٠٦
والذين اتخذوا مسجداً ضراراً	١٠٨-١٠٧	٣٨٤
لا يزال بنينهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم	١١٠	٣٨٤
يأبئها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصالحين	١١٩	٣٣٨، ١٣٩
وإذا ما أنزلت سورة	١٢٥-١٢٤	٢٨١، ٢٧٧، ١٨٤
ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم	١٢٧	٤٣٥، ٣٩٨، ٣١١
(سورة يونس)		٤٤٠، ٤٣٦، ٤١٩
وبشر الذين ءامنوا...	٢	١٤٢
والذين هم عن ءايئنا غفلون	٨-٧	٣٣
فذلكم الله ربكم الحق	٣٢	٢٤١
بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه	٣٩	٤٣٨، ٤٣١
يأبئها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم	٥٨-٥٧	٣٤١، ٢٦٨، ١٨١
ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون	٦٢	٤٥٠، ٣٤٣
ولا يحزنك قولهم	٦٥	٢٤٧
كذلك نطبع على قلوب المعتدين	٧٤	٣٠٢
وقال موسى يقوم إن كنتم ءامنتم بالله	٨٤	٤٤٥، ٣٩٧
وإن كثيراً من الناس عن ءايئنا لغفلون	٩٢	١٤٧
ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم	٩٩	٣٤
وقال موسى ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة...	٨٨	٢٣٧
(سورة هود)		٤١٠
إنه لفرح فخور	١٠	١٨٠
إلا الذين صبروا وعلموا الصلحت	١١	٢٢٦
ألا لعنة الله على الظالمين	١٨	٢٩٤
إن الذين ءامنوا وعملوا الصلحت	٢٤-٢٣	٤٥٤، ١٢١
وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها	٤١	٣٧٠
ونادى نوح ربه	٤٧-٤٥	٣٧٠
قال إني أشهد الله	٥٦-٥٤	٣٧١، ٢٤٦، ٩٩
فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم	٧٠	٣٨٥

الآية	رقمها	الصفحة
إن إبراهيم خليل أواه منيب	٧٥	١٢٧، ١٢٥، ١٢٣
ذلك من أنباء القرى نقصه عليك	١٠٢-١٠٠	٣٥٣
فاستقم كما أمرت ومن تاب معك	١١٢	١٦٨
وما كان ربك ليهلك القرى بظلم	١١٧	٣٥٣
ولله غيب السموات والأرض	١٢٣	١٤٧
(سورة يوسف)		
وروادته التي هو في بيتها	٢٣	٢٩٢
كذلك لنصرف عنه السوء	٢٤	٢٩٣
وقال نسوة في المدينة	٣٠	٢٩٢
ألا تعبدوا إلا إياه	٤٠	٣١
ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً	٨٠	٢٩٩
وتولى عنهم وقال يا أسفى	٨٤	٣٠٢
قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف	٨٩	٢٩٨
إنه من يتقى ويصبر	٩٢-٩٠	٢٢٤، ٥٣
لقد كان في قصصهم عبرة	١١١	٣٥١
(سورة الرعد)		
لأيت لقوم يتفكرون	٣	١٠٢
وإن تعجب فعجب قولهم	٥	٤١
وإن ربك لذو مغفرة للناس	٦	٩٦
أنزل من السماء ماء	١٧	٤٦٢، ٣٧٢، ٣٥٠
قل إن الله يضل من يشاء	٢٧	١٢٧، ١١٠
الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله	٢٨	٣٨٨، ٣٤٥، ٢٤٨، ٢١٩
والذين ءاتينهم الكتب يفرحون بما أنزل إليك	٣٦	١٨٤
(سورة إبراهيم)		
وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم	٧	١٥٦
أفي الله شك	١٠	٤٤٩
فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين...	١٣-١٤	١٠٩
وقال الشيطان لما قضي الأمر	٢٢	٣٦٣
ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة	٢٤	٣٥٠
ومثل كلمة خبيثة....	٢٦	٢٧٩
يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت	٢٧	٣٤٦، ٢١
وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها	٣٤	٦٠

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة الحجر)		
إن في ذلك لآية للمتوسمين	٧٥	٤٢
فوربك لنسئلهم أجمعين	٩٢-٩٣	٨١، ٤٩
ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون...	٩٧-٩٩	٣٤٦
(سورة النحل)		
ينزل الملائكة بالروح من أمره	٢	٢٤٢
هو الذي أنزل من السماء ماء لكم	١٠	٣٥٠
الأنعام الله واحد	٢٢	٤٤٣، ٣٨٥
الذين تتوفئهم الملائكة طيبين	٣٢	٢٠٤
يخافون ربهم من فوقهم...	٥٠	٢٤٦
عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء	٧٥	٤٥٤، ٣١
والله أخرجكم من بطون أمهاتكم	٧٨	٣٥٠، ١٥٦
يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها	٨٣	٣٨٥
وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم	٩١	١٢٦
فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله	٩٨-١٠٠	٢٧٧
من كفر بالله من بعد إيمانه	١٠٦	٢١٨
أولئك الذين طبع الله على قلوبهم	١٠٨	٣٣
إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله	١٢٠-١٢١	١٥٦
ولئن صبرت لهو خير للصبرين	١٢٦-١٢٨	٣٠٢، ٢٢٦، ٢٢٤
(سورة الإسراء)		
سبحن الذي أسرى بعبده	١	٨٩، ٣٢
ذرية من حملنا مع نوح	٣	٣٧٠، ١٥٦
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم	٩	٢٣٣
من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه	١٥	٣٩
ومن قتل مظلوماً...	٣٣-٣٦	٤٣٨، ٣٣٩، ٢٩٥، ١٢٦
أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة...	٥٧	٨٣
ومن كان في هذه أعمى...	٧٢	٤٥٣
وقل رب أدخلني مدخل صدق...	٨٠	١٤٢
ونزل من القرآن ما هو شفاء	٨٢	٢٨١، ٢٧٧، ٢٦٩
وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً	٨٥	٤٦٤
ومن يهد الله فهو المهتد	٩٧	٧١
وقرأنا فرقاناً فجعلنا للقرآن على الناس	١٠٦-١٠٩	٣٢٤، ٢٥٦، ١١٥

الصفحة	رقمها	الآية (سورة الكهف)
٢٤٣، ٢٢٨	١٣-١٤	إنهم فتية ءامنوا بربهم
٧١، ٢٢	١٧	من يهد الله فهو المهتد
٤١٧، ٤١٦، ٤١٥	٢٨	ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا...
٤١٧، ٤٠٣	٥٧	إنا جعلنا على قلوبهم أكنة
٩٦	١١٠	فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً (سورة مريم)
٣٩٢	٣٩	وأنذرهم يوم الحسرة...
١٤٤	٥٠	وجعلنا لهم لسان صدق عليا
٢٨٢	٥٩	واتبعوا الشهوات
٣١	٩٣	إن كل من في السموات والأرض إلا ءاتى الرحمن عبداً (سورة طه)
٢٢	٥٠	قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه...
٨٥	٧٢	فأقض ماأنت قاض
١١٤	١٠٨	وخشعت الأصوات للرحمن
٣٢٠	١٢٠	يعادم هل أدلك على شجرة الخلد
١٠٨	١٢٣	فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى (سورة الأنبياء)
٤١٩	٣-١	اقترب للناس حسابهم...
٤٠٠	١٨	بل تقذف بالحق على البطل فيدمغه
٢٤٦	٢٨	ولا يشفعون إلا لمن ارتضى (سورة الحج)
٣٦١، ٣١٣	١١	ومن الناس من يعبد الله على حرف
٢٦٥، ١٣٠	٣٣-٣٢	ذلك ومن يعظم شعائر الله...
٢٦٥، ١٠٦	٣٧-٣٥	الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم
٤١٢، ٣٥٢، ١٤، ١١	٤٦	فإنها لا تعمى الأبصار
٢٥٠، ١٢٢، ٢٨	٥٤-٥٣	ليجعل مايلقى الشيطان فتنة...
٣٦٤، ٣٢٥، ٣١٧		
١٧٨	٧٥	الله يصطفى من الملائكة رسلاً...
١٦٣، ١٦١	٧٨	فأقيموا الصلوة وءاتوا الزكوة....

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة المؤمنون)		
قد أفلح المؤمنون	٢-١	٢٥٦، ١١٥
فإذا استويت أنت ومن معك...	٢٨-٢٩	٣٧٠
والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة	٦٠	٢٤٨، ١٠٧
بل قلوبهم في غمرة من هذا	٦٣	٤١٨
ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم...	٧٦	٩٤
إني جزيتهم اليوم بما صبروا	١١١	٢٢٥
افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً	١١٥	٤١
(سورة النور)		
ولا تأخذكم بهما رأفة...	٢	١٦٥
ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً	٢١	٢٠٢
قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم	٣٠-٣١	٣٣٩، ٢٠١، ٥٦
الله نور السموات والأرض	٣٥	٣٥٠، ٢٠٢
وإن تطيعوه تهتدوا	٥٤	٢٤٩
(سورة الفرقان)		
تبارك الذي نزل الفرقان على عبده	١	٣٢
وخلق كل شيء فقدره تقديراً	٢	٢٣٦
وقدمنا إلى ما عملوا من عمل...	٢٣	١٠١
ويوم يعرض الظالم على يديه	٢٧	٣٩١
أرأيت من اتخذ إلهه هوله	٤٣	٢٣١
وتوكل على الحلي الذي لا يموت	٥٨	١٤٨
إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً...	٧٠	١٢٥
ربنا هب لنا من أزواجنا...	٧٤	٤٠٥
(سورة الشعراء)		
قال فرعون وما رب العلمين	٢٣-٢٨	٤٤٩
إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون	٧٠	٢٠٩
واجعل لي لسان صدق في الآخرين	٨٤	١٤٤، ١٤٢
ولا تخزني يوم يبعثون	٨٧-٨٩	٢٤١، ٢٠٧
تالله إن كنا لفي ضلل مبين	٩٧-٩٨	٨٠
أتنبون بكل ريع آية تعبثون	١٢٨-١٣١	٣٧١
إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين	١٧٤	٤٣
هل أنبئكم على من تنزل الشيطان	٣٣٢	٢٢٣، ٢٢١

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة النمل)		
ومن شكر فإنما يشكر لنفسه	٤٠	١٥٨
أئنكم لتأتون الرجال شهوة	٥٥	٢٩٨
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا	٥٦	٢٩٨
أكذبتم بأيتي ولم تحيطوا بها علما	٨٤	٤٣٨، ٤٣١
(سورة القصص)		
وأصبح فؤاد أم موسى فرغاً	١٠	٢٤٤، ٢٢٩
وحجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا	١٤	٤٣١
قال رب إني ظلمت نفسي	١٦	٢٩٥
فخرج منها خائفاً يترقب	٢١	٢٤٧، ١٠١
واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق	٣٩	٤٢١، ٢٨٦
فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم	٥٠	٣٦٤، ٣٢٦
إنك لا تهدى من أحببت	٥٦	٢٢
فيقول ماذا أحببت المرسلين	٦٥	٥٠
وربك يخلق ما يشاء	٦٨	١٧٩
لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين	٧٦-٧٧	٤٣٥، ١٨٠
وقال الذين أوتوا العلم ويلكم	٨٠	٢٢٥
والعقبة للمتقين	٨٣	٣٧٣
(سورة العنكبوت)		
ألم. أحسب الناس أن يتركوا	٣-١	٣٠٨
من كان يرجو لقاء الله	٥	٩٦
ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه	١٤	٣٦٩
ولقد تركنا منها آية بينه	٣٥	٤٣
مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء	٤١	٤٥٤
وتلك الأمثل نضربها للناس	٤٣	٣٧٢
إن الصلوة تنهى عن الفحشاء	٤٥	٢٥٦
(سورة الروم)		
أولم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبة		
الذين من قبلهم	١٠-٩	٤٥١
فأقم وجهك للدين حنيفاً	٣١-٣٠	٤٤١، ٣٣٥، ١٢٣
وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم	٣٤-٣٣	١٢٤
وقال الذين أوتوا العلم والايمن	٥٦	٦٧

الصفحة	رقمها	الآية
		(سورة لقمان)
٤٢١، ٣٣٩	٧-٦	ومن الناس من يشترى لهو الحديث
٤٣٤، ٢٩٤	١٣	إن الشرك لظلم عظيم
٨٦	١٨	إن الله لا يحب كل مختال فخور
		(سورة السجدة)
٤١٧، ٢٣٦	١٣	ولو شئنا لأتينا كل نفس هديها
٢٢٤، ٧٢	٢٤	وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا
		(سورة الأحزاب)
٤٠٥	٥	ادعوهم لأبائهم
٣٧	٧	وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم
٣١١	٩-١٢	يأأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم
٣٦٨، ٣١١	٢١-٢٢	لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
١٤٠	٢٤	ليجزي الله الصّديقين بصدقهم
٣٨٩	٢٦	وأنزل الذين ظهروهم من أهل الكتب
٨٤	٢٩	وإن كنتم تردن الله ورسوله
٢٥٦، ١٩٧، ١٩٥	٣٢-٣٣	فلا تخضعن بالقول
٢٩٥، ٢٩٢		
٦٦	٣٥	إن المسلمين والمسلمات
٤٠٦، ٢	٤٥-٤٦	يأأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً
٤١٦	٤٨	ولا تطع الكافرين والمنافقين
١٩٦، ٢٣٢	٥٢-٥٣	وكان الله على كل شيء رقيباً
		(سورة سبأ)
١٥٩	١٣	اعملوا آل داود شكراً
٤٤٣	٣٣	وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا
٣٥	٤٦	قل إنما أعظكم بواحدة
		(سورة فاطر)
٣٦٢، ٢٧٧	٦	إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا
١٠٣، ٩٨، ٢٩	٢٨	إنما يخشى الله من عبادة العلما
٣٦٤، ٣٢٤، ١٠٩		
٦٥	٢٩	إن الذين يتلون كتب الله
	٣٢	فمنهم ظالم لنفسه
		(سورة يس)
٣٦٣، ٢٣١	٦٠	ألم أعهد إليكم يا بني آدم
٤١٣	٦٩-٧٠	إن هو إلا ذكر وقرآن مبين

الصفحة	رقمها	الآية
٤٥١،٣٤٨	٨٢-٧٨	وضرب لنا مثلاً ونس خلقه (سورة الصافات)
٣٦٧،٥٠،٢٣،١٧	٢٥-٢٢	احشروا الذين ظلموا وأزواجهم
٢٠٨	٨٤	إذ جاء ربه بقلب سليم
٣٥٢	١٣٨-١٣٧	وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل (سورة ص)
٣٨٥	٥	أجعل الألهة إلهاً واحداً
١٢٧،١٢٣	٢٤	وظن داود أنما فتنه فاستغفر ربه وخر ركعاً واثاب
٣٦٤،٣٢٦	٢٦	ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله
١٢٧	٣٤	ولقد فتننا سليمان
٣١٦	٣٥	رب اغفر لي وهب لي ملكاً
٣٢	٤١	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه
١٧٨	٤٧	وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار
٢٩٧	٧٥	لما خلقت بيدي (سورة الزمر)
٣٥٠،٢٣٠	٥-٢	خلق السموات والأرض بالحق
١٠٩	٩	أمن هو قنتءاء الليل ساجداً وقائماً
٢٢٣،٢٠	١٠	إنما يوفي الصلبرون أجرهم بغير حساب
١٢٤	١٧	والذين اجتنبوا الطغوت أن يعبدوها
٤١٠،٣٤٦،٢٢١،١١١	٢٣-٢٢	أفمن شرح الله صدره للإسلام
٢٩٤،١٤٠	٣٣-٣٢	فمن أظلم ممن كذب على الله
٩٩	٣٦	ويخوفونك بالذين من دونه
٤٣٤،٣٨٦	٤٥	وإذا ذكر الله وحده
٩٦	٥٣	قل لعبادي الذين أسرفوا
١٢٣	٥٤	وأنيبوا إلى ربكم
٤٢١،٢٨٦	٦٠	أليس في جهنم مثوى للمتكبرين
٢٠٤	٧٣	طبتم فادخلوها خالدين (سورة غافر)
١٢٧،١٢٣	١٣	هو الذي يريكم آياته
١٣٢	١٩	يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور
٤٤٣،٣٩٧	٣٥	كذلك يطيع الله على كل قلب متكبر جبار
٤٢٠،١٨٩	٥٦	إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم

الصفحة	رقمها	الآية
٤٢١، ٢٨٦	٦٠	إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
٤٢١	٧٦	دَاخِرِينَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلْدِينَ فِيهَا (سورة فصلت)
٣٦٧، ٢٤١، ٢٠٣	١٤-١	حَمِّمٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٥٨، ٤٠٦، ٤٠٣		
٢٢	١٧	وَأَمَّا ثُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى
٣٦٧	١٩	وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ
٤٥٧	٢٦	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ
١٧٠، ٦٢، ٥٨	٣٠	إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا
٢٢٠	٣٤	وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
٢٢٥	٣٥	وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
١١٤	٣٩	وَمَنْ أَعْيَيْتَهُ أُنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً
٢٨١	٤٤	قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً
٤٥٠، ٣٤٧	٥٣	سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (سورة الشورى)
٣٥٩، ٣٠٤	١١	لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
٣٧	١٣	شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا
٣٩٩	٢٤	أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
٢٩٤	٤٠	وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا
٢٩٥	٤٢	إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ
٢٢	٥٢	وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (سورة الزخرف)
٤٢٢، ٣٨٥	٢٣	وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا
		قَالَ مَتْرُوفُهَا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (سورة الجاثية)
٤٠١	٢٣	أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوًى
٧٣	٣٢	وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
		(سورة الأحقاف)
٤١٤	٢٦	وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً
٣٧	٣٥	فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة محمد)		
فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم	٢١	١٣٩
أفلا يتدبرون القرآن	٢٤	٤٤٩، ٤٠٤، ٣٤٣
ولنبلونكم حتى نعلم المجتهدين منكم	٣١	٣٠٨
(سورة الفتح)		
هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين	٤	٢٥٠، ٢١٠
ومن أوفى بما عاهد عليه الله	١٠	١٢٦
يقولون بالسنتهم مالميس في قلوبهم	١١	٣٨٢
فأنزل الله سكنته على رسوله	٢٦	٤٢٢
أشداء على الكفار رحماء بينهم	٢٩	٤٣٤، ٣٤٦، ٣٠٦، ٨٢
(سورة الحجرات)		
إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله	٣	٢٣٩، ١٣١
أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى	٨-٦	٢٩٩، ٢٣٩، ٧٠
فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة	١٠	١٩٢
إنما المؤمنون إخوة	١١	٣٣٩، ٥٦
يأياها الذين ءامنوا لا يسخر قوم من قوم	١٥-١٤	٣٨٣، ٢٦٨، ٦٦، ٦٤
إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله		
(سورة ق)		
أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم	٨-٦	١٢٧، ١٢٣
فكشفنا عنك غطاءك	٢٢	٣٩
وما أنا بظلم للعبيد	٢٩	٣٣
وأزلفت الجنة للمتقين	٣٤-٣١	١٢٥، ١٢٤
إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب	٣٧	٤١٣، ١٤
(سورة الذريات)		
وفي الأرض آيت للموقنين	٢٠	٧٢
فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين	٣٧-٣٥	٦٦، ٤٣
(سورة الطور)		
أفسر هذا	١٥	٥٠
أم خلقوا من غير شيء	٣٧-٣٥	٤٤٨
واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا	٤٨	٢٢٦

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة النجم)		
والنجم إذا هوى	٤-١	٤٤٤، ٢٩٨
إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس	٢٣	٤٤٤، ٢٨٣
فأعرض عن من تولى عن ذكرنا	٢٩-٣٠	٤١٦
فلا تزكوا انفسكم	٣٢	
(سورة القمر)		
إننا كل شئ خلقناه بقدر	٤٩	٢٣٦
إن المتقين في جنّات ونهر	٥٤-٥٥	١٤٢
(سورة الرحمن)		
فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان	٣٩	٠٤٩
ولمن خاف مقام ربه جنتان	٤٦	٢٤٦، ١٠٩، ١٠٨
(سورة الحديد)		
وهو معكم أينما كنتم	٤	١٣٢
ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم	١٦	٤٠٨، ١١٧، ١١٤
اعلموا أن الله يحيي الارض بعد موتها	١٧	٤٦٠، ٤٥٠، ٤٣٣، ١١٨
لكيلا تأسوا على ما فاتكم	٢٣	٣٠٢، ٨٦
وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة	٢٧	٢٤٩
يأياها الذين ءامنوا اتقوا الله	٢٨	١٩٠
(سورة الحشر)		
هو الذي أخرج الذين كفروا...	٢	٤٥٣، ٣٨٨
ويؤثرون على أنفسهم	٩	١٧٦، ١٧٥
والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا	١٠	٤٢٤، ٢
تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى	١٤	٤٥٢، ٣٩٦، ٣٩٥
كمثل الشيطان إذ قال	١٦-١٨	٢٩٤، ٥٠
هو الله الذي لا إله إلا هو	٢٢-٢٤	
(سورة المجادلة)		
إنما النجوى من الشيطان	١٠	٣٠٢
يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين	١١	٦٧
أوتوا العلم درجت	١٤	٣٨٢
ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم		
لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر		
يوادّون من حادّ الله ورسوله	٢٢-٢٤	٦٧

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة الممتحنة)		
فإن علمتهم مؤمنات	١٠	٢٤
يأيتها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب		
الله عليهم	١٣	٣٠٤
(سورة الصف)		
إن الله يحب الذين يقتلون في سبيله صفا	٤	٨٦
فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم	٥	٤٣٥، ٤١٩
(سورة الجمعة)		
هو الذي بعث في الأميين	٢	
مثل الذين حملوا التوراة	٥	٤٥٤
(سورة المنافقون)		
إذا جاءك المنافقون	١	٣٨٢، ٣٢١
ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين	٨	٢٠٢
(سورة التغابن)		
فآمنوا بالله ورسوله	٨	٢٦٩
ومن يؤمن بالله يهد قلبه	١١	٣٤٦، ٢١٠، ١٧
يأيتها الذين آمنوا إن من أزواجكم	١٤	٣٦٥، ٣٣٥، ٣١٢
(سورة التحريم)		
يأيتها الذين آمنوا توبوا إلى الله	٨	٥٥
(سورة الملك)		
ألم يأتكم نذير	٨	٥٠
ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير	١٤	٤٦٤، ٣٤١، ٢٣٤
قل هو الرحمن آمنّا به	٢٩	١٤٨
(سورة القلم)		
وإنك لعلى خلق عظيم	٤	٣٦٨
ودوا لو تدمن فيدهنون	١٣-٩	٤١٦
(سورة الحاقة)		
ولو تقول علينا بعض الأقاويل	٤٤-٤٧	٣٩٩
(سورة المعارج)		
فمال الذين كفروا قبلك مهطعين	٣٦-٣٧	٤١٩

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة نوح)		
قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً	٩-٥	٣٧٠
(سورة الجن)		
فلا تدعوا مع الله أحداً	١٨	٤٣٩
وأنه لما قام عبد الله يدعوه	١٩	٨٩
(سورة المزمل)		
رب المشرق والمغرب	٩	١٤٨
(سورة المدثر)		
يأيها المدثر	٥-١	٢٥٥، ١٩٧
وما جعلنا أصحاب النار إلا ملئكة	٣١	٣٠٩
فما لهم عن التذكرة معرضين	٥١-٤٩	٤١٩
(سورة القيامة)		
بل الإنسان على نفسه بصيرة	١٥-١٤	٢٩١
(سورة الإنسان)		
ويطعمون الطعام على حبه	٨	١٧٥
إنما نطعمكم لوجه الله	٩	٨٤
عليهم ثياب سندس	٢١	٢٥٤
فاصبر لحكم ربك	٢٤	٤١٦
وما تشاءون إلا أن يشاء الله	٣٠	٢٣٧
والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً	٣١	٢٩٤
(سورة النازعات)		
وأما من خاف مقام ربه	٤١-٤٠	١٠٦، ٧٣
(سورة عبس)		
أن جاءه الأعمى	٢	٤١٢
(سورة التكويد)		
بأى ذنب قتلت	٩	٥٠
وما تشاءون إلا أن يشاء الله	٢٩	٤١٧، ٢٣٧
(سورة المطففين)		
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون	١٤	٤٤٥، ٤٠١، ٣٣٨
(سورة الطارق)		
فليتظر الإنسان مم خلق	٥	٣٥٠

الآية	رقمها	الصفحة
(سورة الأعلى)		
والذي قدر فهدى	٣	٢٢
فذكر إن نفعت الذكرى	٩	٢٤٨
قد أفلح من تزكى	١٥-١٤	٢٥٨
(سورة البلد)		
وتواصوا بالصبر	١٧	
(سورة الشمس)		
ونفس وما سولها	٨-٧	٧١
قد أفلح من زكها	١٠-٩	٢٥٧
(سورة الليل)		
فأما من أعطى واتقى	٥	
وسيجنبها الاتقى	٢١-١٧	٣٤٧، ٢٦٠، ٨٤
(سورة العلق)		
ألم يعلم بأن الله يرى	١٤	١٣٢
(سورة البينة)		
إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات	٧-٥	٢٣٠، ٦٧
(سورة العاديات)		
إن الإنسان لربه لكنود	٦	٥٨
(سورة العصر)		
والعصر إن الإنسان لفي خسر	٣-١	٣٤٦، ٢٢٦
(سورة الماعون)		
فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون	٥-٤	١١٥
(سورة النصر)		
إذا جاء نصر الله والفتح	٣-١	٥٧، ٥٣
(سورة الإخلاص)		
قل هو الله أحد	٤-١	٣٦٦

فهرس الأحاديث

الصفحة

طرف الحديث

- ١- آية المنافق ثلاث ٤٤٢، ٣٨٠
- ٢- اتقوا الظلم ٢٩٠
- ٣- اتقوا فراسة المؤمن ٤٢
- ٤- اتقوا النار ولو بشق تمرة ٢٥٩
- ٥- أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها ٨٦
- ٦- أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها ٨٧-٨٧
- ٧- أحب الكلام إلى الله تعالى أربع ٨٧
- ٨- ادعوا الله وأنتم موقنون ١١٥
- ٩- إذا توضع العيد المسلم ٢٥٣
- ١٠- إذا زنت أمة أحدكم ٥٤-٥٣
- ١١- إذا كان يوم القيامة ٩٧
- ١٢- أربع من كن فيه ١٢٦
- ١٣- ارحموا من في الأرض ١٦٦
- ١٤- أرواحهم في جوف طير خضر ١٨٣
- ١٥- استحيوا من الله حق الحياء ١٣٦-١٣٥
- ١٦- استقيموا ولن تحصوا ١٧١
- ١٧- أشهد أن لا إله إلا الله ٢٠٥
- ١٨- أعطيت ثلاثاً لم يعطهن من قبلي ٣٦
- ١٩- أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ٣٨٩
- ٢٠- أفضل الصدقة جهد المقل ٢٥٩، ١٧٥
- ٢١- أفلا أكون عبداً شكوراً ١٥٩
- ٢٢- ألا رجل يضيف هذا الليلة ١٧٦
- ٢٣- ألا وإن في الجسد مضغة ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٠٠، ٣
- ٢٤- أنا أغنى الشركاء عن الشرك (حديث قدسي) ٢٣١، ١٨٨
- ٢٥- أنا عند ظن عبدي بي.... (حديث قدسي) ٩٧-٩٦
- ٢٦- الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ٣٠٩-٣٠٨
- ٢٧- أن تعبد الله كأنك تراه ١٣٣
- ٢٨- أتشدك بالله هل تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس جلود السباع ١٩٩
- ٢٩- إن أحدكم يجمع في بطن أمه ٢٣٧
- ٣٠- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل ١١

طرف الحديث

الصفحة

- ٣١- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر الناس
١٠٠-١٠١
- ٣٢- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص
٧٩-٨٠
- ٣٣- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى
٣٤٥
- ٣٤- إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه
٣٣٦
- ٣٥- إن العبد إذا أخطأ خطيئة
٣٣٧-٣٣٨
- ٣٦- إن العبد ليصلي الصلاة
١١٥
- ٣٧- إن عفريتاً من الجن
٣١٦
- ٣٨- إن العلماء هم ورثة الأنبياء
٢٤
- ٣٩- إن العين تدمع
٣٠٢
- ٤٠- إن قلوب بني آدم
٤٢٨
- ٤١- إنكم ستلقون بعدي أثره
١٧٥
- ٤٢- إن لله تسعة وتسعين اسماً
٣٤٢
- ٤٣- إن الله أوحى إلي
١٩٤
- ٤٤- إن الله تجاوز عن أمتي
٢٩٧
- ٤٥- إن الله خلق الرحمة
٩٧
- ٤٦- إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى
٢٠١
- ٤٧- إن الله لا يعذب بدمع العين
٣٠٢
- ٤٨- إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً
٤٣٨
- ٤٩- إن الله يرضى لكم ثلاثاً
١٦٢
- ٥٠- إن المؤمن إذا أذنب
٤٠١-٤٠٢
- ٥١- إن المؤمن لا ينجس
٢٤٤
- ٥٢- إنما الأعمال بالنيات
٦٥
- ٥٣- إنما الصبر عند الصدمة الأولى
٣١٣
- ٥٤- إنما مثلي كمثل رجل استوقد ناراً
٥٩
- ٥٥- إنما يرحم الله من عباده الرحماء
٢٤٩
- ٥٦- إني لأعلم كلمة لو قالها
٢٧٨
- ٥٧- إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها
١٣٧
- ٥٨- أهل الجنة ثلاثة
١٦٦
- ٥٩- أي فل ألم أكرمك وأسودك... (حديث قدسي)
٧٣
- ٦٠- الإيمان بضع وسبعون شعبة
١٣٥-١٣٤، ٦٦-٦٥
- ٦١- إياكم والشح
١٧٤

الصفحة	طرف الحديث
٣٤	٦٢- بدأ الإسلام غريباً
٣٩٣	٦٣- بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد
٢٥٥	٦٤- بنى الإسلام على خمس
٢١٥-٢١٤	٦٥- بينما رجل من المسلمين
٢٧٠	٦٦- تركتكم على البيضاء
٣٣٧، ٢٣١، ٣٢	٦٧- تعس عبدالدينار
٢٨١-٢٨٠	٦٨- تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٥١	٦٩- تلك السكينة تنزلت للقرآن
٥٦	٧٠- ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرئ مسلم
٧٥-٧٤	٧١- ثلاث من كن فيه
٥٢-٥١	٧٢- جاء ثلاثة رهط
٢١٥	٧٣- جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم
٧٨	٧٤- جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٧٦	٧٥- جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٥	٧٦- جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه
١٤٩	٧٧- حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم
١٣٤	٧٨- الحياء لا يأتي إلا بخير
٢٣٨	٧٩- خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان
١١٦	٨٠- خشع لك سمعى وبصرى
١٣٤	٨١- دعه فإن الحياء من الإيمان
٥٥	٨٢- الدين النصيحة
١٥٣، ٧٥	٨٣- ذاق طعم الإيمان
٢٥٥	٨٤- رأس الأمر الإسلام
٥٧	٨٥- سبحانك اللهم ربنا وبحمدك
١٧٢-١٧١	٨٦- سددوا وقاربوا
١١٢	٨٧- سلونى، لا تسألونى عن شئ
٤٥٩، ٤٤٨	٨٨- سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ
١٧٠	٨٩- شيبتي هود
٢٥٤	٩٠- الطهور شطر الإيمان
٣٣١، ١٤١	٩١- عليكم بالصدق
٤٥٩-٤٥٨	٩٢- فانطلق أنيس -أخو أبي ذر-

طرف الحديث

الصفحة

٢٥٩-٢٥٨

٢٦٦

١٩٨-١٩٧

١٤٦

٢٦٢

٢٣٥،٦٦،٢٠

٧١-٧٠

١٧١

٧٩

٣٧٩

٣٦٨

١٣٥

٧٩

٥٣

٤٢٠،١٨٧

٣٦٥،٣٣٤

٣٤

٢٣٦-٢٣٥

٣٤٥-٣٤٤

٧٩

٩٣

١٩٣

٣٠٥

١٦٧،١٦٥

٢٨٧

٢٧٨

٢٤٨،١٠٧

١٣٠

٢٤٧

٤٢١

٦١

-٩٣ فأعلمهم أن الله افترض عليهم

-٩٤ فأول من يدعى به رجل جمع القرآن

-٩٥ فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً

-٩٦ فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق

-٩٧ في الجنة ثمانية أبواب

-٩٨ قال يارسول الله ما الإيمان؟

-٩٩ قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام

-١٠٠ قل آمنت بالله ثم استقم

-١٠١ كان أحب الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلوى الباردة

-١٠٢ كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يامقلب القلوب...

-١٠٣ كان خلقه القرآن

-١٠٤ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياءً

-١٠٥ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل

-١٠٦ كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته

-١٠٧ الكبر بطر الحق وغمط الناس

-١٠٨ كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا

-١٠٩ كن في الدنيا كأنك غريب

-١١٠ كنا في جنازة في بقيع الغرقد

-١١١ كنا في مسير لنا

-١١٢ كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة فرفعت إليه الذراع

-١١٣ كيف تجددك

-١١٤ لا تطروني كما أطرت النصارى

-١١٥ لا تغضب

-١١٦ لا تنزع الرحمة إلا من شقي

-١١٧ لا حسد إلا في اثنتين

-١١٨ لا عدوى

-١١٩ لا يابنت الصديق

-١٢٠ لا يبلغ العبد حقيقة التقوى

-١٢١ لا يحقر أحدكم نفسه

-١٢٢ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال

-١٢٣ لا يرد القدر إلا الدعاء

الصفحة

طرف الحديث

٢٧٨	١٢٤- لا يزال الشيطان يأتي أحدكم
١٨٤	١٢٥- لله أشد فرحاً بتوبة عبده
١٥٢	١٢٦- اللهم إني أستخبرك بعلمك
١١٦، ٢٦	١٢٧- اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع
٣٠١	١٢٨- اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن
٨٤	١٢٩- اللهم بعلمك الغيب
٢٨	١٣٠- اللهم فقهه في الدين
١٤٩	١٣١- اللهم لك أسلمت
١٩٦	١٣٢- لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب
٢١٤	١٣٣- لما كان يوم بدر نظر رسول الله عليه وسلم إلى المشركين
٤٣٤، ٢٩٤	١٣٤- لما نزلت (الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)
٥٧	١٣٥- لن ينجي أحداً منكم عمله
١٤٨	١٣٦- لو أنكم تتوكلون على الله
٩٠	١٣٧- لو كنت متخذاً خليلاً
١٨٥	١٣٨- ليس أحد أغير من الله
٢١٢، ٧٤	١٣٩- ليس الخير كالمعاينة
٢٥٨	١٤٠- ليس فيما دون خمسة أوسق
٣٢١، ١٩٣	١٤١- المؤمن غر كريم
١٥١	١٤٢- المؤمن القوي خير
٧٦	١٤٣- ما أبقيت لأهلك
٣١٢	١٤٤- ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء
٢٥٧	١٤٥- ما من امرئ مسلم تحضره الصلاة
٤٥٦	١٤٦- ما من الأنبياء نبي
١٥٠	١٤٧- ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده
١٩	١٤٨- ما من مسلم تصيبه مصيبة
٤٤١	١٤٩- مامن مولود إلا ويولد على الفطرة
١٩٤	١٥٠- ما نقصت صدقة من مال
١٩٢	١٥١- المسلم أخو المسلم
٢٩٠	١٥٢- من آتاه الله مالا
٥٢	١٥٣- من أحدث في أمرنا هذا
٢٩٥	١٥٤- من اقتطع حق امرئ مسلم

الصفحة

طرف الحديث

١٨٨	١٥٥- من ترك اللباس تواضعاً
٢٥٣	١٥٦- من تواضع فأحسن الوضوء
٢٦٤	١٥٧- من حج ولم يرفث
٥٣-٥٢	١٥٨- من سرته حسنته...
٢٦٢	١٥٩- من صام رمضان...
٢٩٥	١٦٠- من ظلم قيد شبر
١٦٦-١٦٥	١٦١- من لا يرحم لا يرحم
٤٤٠	١٦٢- من يرد الله به خيراً
٢١١	١٦٣- نحن أحق بالشك من إبراهيم
	١٦٤- نزلت في الأخنس بن شريق
١٩٩	١٦٥- نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خاتم الذهب
٣٣٥	١٦٦- هؤلاء رجال أسلموا
٢١٥	١٦٧- هذا جبريل آخذ برأس فرسه
٦١	١٦٨- هي من قدر الله
١٣٥	١٦٩- وإن مما أدرك الناس
٢٠٢	١٧٠- وإنه لا يذل من واليت
١٢٨	١٧١- وتوق كرائم أموالهم
٢٦٨	١٧٢- وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض
٢٦٢	١٧٣- والصيام جنة
١١٣	١٧٤- وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
٥٨	١٧٥- ولاأحد أحب إليه العذر من الله تعالى
١٩٣	١٧٦- ولقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه بشعر
٤٥٨-٤٥٧	١٧٧- ولقد علمتم أني من أكثر قريش ملاً
٤٣٧	١٧٨- والله ماعلمي وما علمك
	١٧٩- والله ما كنت أظن...
٣٠٦	١٨٠- وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه...
١٨٨	١٨١- وما تواضع أحد لله
	١٨٢- وما يدرية أنها رقية
٨٥	١٨٣- وما يزال عبدي يتقرب إلي... (حديث قدسي)
٢٦٢	١٨٤- ومن لم يستطع فعليه بالصوم
٣٨٤	١٨٥- وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً

الصفحة

طرف الحديث

- ٣١٧، ٢٧٥ - ١٨٦ - يأتي الشيطان أحدكم
 ٣٩٢ - ١٨٧ - يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح
 ١٣٦ - ١٨٨ - يآدم مني تفر.... (حديث قدسي)
 ١٠١ - ١٨٩ - يا ابن اختي كان أبواك منهم
 ٥٧ - ١٩٠ - يأيها الناس توبوا إلى الله
 ٩١ - ١٩١ - يا بلال أقم الصلاة
 ١٧٣ - ١٩٢ - يا عبد الله بن عمرو إن لكل عامل
 ١٦٠-١٥٩ - ١٩٣ - يامعاذ إني لأحبك
 ١١١ - ١٩٤ - يامقلب القلوب
 ٣٥٨ - ١٩٥ - يجي نوح وأمته
 ٢٠٥ - ١٩٦ - يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة
 ٤٠٦ - ١٩٧ - يقيم الملة العوجاء

فهرس الآثار

الصفحة	القائل	طرف الأثر
١٢٩	الحسن	١- اتقوا ما حرم الله عليهم
	أبو العالية	٢- الإخلاص لله وحده
١٣١	مجاهد	٣- أخلص
١٣١	قتادة	٤- أخلص الله قلوبهم
١٠٨	إبراهيم النخعي	٥- إذا أراد أن يذنب
٣٤	ابن عمر	٦- إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح
٤٦١	السدي	٧- الإسلام
١٢١	مجاهد	٨- اطمأنوا
٢١٢	ابن عباس	٩- أعلم أنك تجيبي
٤٦-٤٥	قتادة	١٠- أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم
٣٨٦	مجاهد	١١- انقبضت
٣٧٨-٣٧٧	قتادة	١٢- إن لم يكونوا الحروية
	مجاهد والسدي وزيد	١٣- أن ذلك يكون عند الموت
١٧٠	ابن أسلم وابنه	١٤- أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله
٢٧	عروة بن الزبير	١٥- إنك لتعلم أنني كنت أدخل
٤٢٣	أبي بن كعب	١٦- أن المراد بالحبل الاسلام
١٦٣	ابن زيد	١٧- أن المراد بحبل الله الاخلاص
١٦٣	أبو العالية	١٨- أن المراد بحبل الله الجماعة
١٦٣	ابن مسعود	١٩- أن المراد بحبل الله هو القرآن
١٦٣-١٦٢	قتادة والسدي والضحاك	٢٠- أن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم
١٧١	ابن عباس	٢١- أن يطاع فلا يعصى
١٣٠	عبدالله بن مسعود	٢٢- أن يعلم أن الله حق
٢٠٧	محمد بن سيرين	٢٣- أي بالإيمان
٤٤٩	قتادة	٢٤- أي نفرت قلوبهم
٣٨٦	قتادة	٢٥- بالخلة...
٢١٣-٢١٢	سعيد بن جبير والسدي	٢٦- بل أنت رجل عندك علم...
٤٢٣	عمر بن الخطاب	٢٧- تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم
٣٩٥	قتادة	٢٨- تقطعها بالتوبة
٦٢	ابن عيينة	٢٩- التوبة النصوح أن يتوب الرجل
٥٥	عمر بن الخطاب	

الصفحة	القائل	طرف الأثر
	ابن مسعود	٣٠- الجماعة
١٢١	ابن عباس	٣١- خافوا
١٢١	قتادة	٣٢- خشعوا وتواضعوا
	ابن عباس وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والحسن وقاتدة والضحاك والسدي	٣٣- دين الله
٣١٧		
٤٠٢	الحسن	٣٤- الذنب على الذنب
٢٤٢-٢٤١	عكرمة	٣٥- الذين لا يقولون لا إله إلا الله
١٤٢	مجاهد	٣٦- الذين يجيئون يوم القيامة
١٢٩	ابن عباس	٣٧- الذين يخشون من الله عز وجل
٤٧	الحسن البصري	٣٨- رحم الله عبداً وقف عند همه
٤٠٧	مجاهد	٣٩- الرين أيسر من الطبع
٢١٩	قتادة	٤٠- سكنت إلى ذكر الله واستأنست به
٢٠٧	قتادة	٤١- سليم من الشرك
	مجاهد وسفيان بن عيينة	٤٢- عني به قلوب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه
٢١٩	ابن عباس	٤٣- فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه
٤٥	محمد بن إسحاق	٤٤- فإذا عزمتم أي على أمر
١٠٥	مجاهد	٤٥- فرقت
١٠٦-١٠٥	قتادة	٤٦- فرقا من الله
٣٩١	السدي	٤٧- فندامتنا على ما فرطنا فيها
٣٧٧-٣٧٦، ٢٨٠	ابن عباس	٤٨- فيحملون المحكم على المتشابه
٤١٨	مجاهد	٤٩- في عَمَى من هذا القرآن
٣٩٢	السدي	٥٠- قال الله فيما كان المشركون
٢٢٩	قتادة	٥١- قال الله "لولا أن ربطنا على قلبها" بالإيمان...
١٢٥	مجاهد	٥٢- القانت الرجاء
٤٩٠	مجاهد	٥٣- قول المنافق عبدالله بن أبي بن سلول
٢٢٩	السدي	٥٤- كادت تقول هو ابني
٣١٤	ابن عباس	٥٥- كان الرجل يقدم المدينة
٣٦٤، ٣٢٥، ٢٥٠، ٢٨-٢٧	عائشة	٥٦- كان من رسوخهم في العلم

الصفحة	القائل	طرف الأثر
٤٤٤، ٢٨٤	ابن عباس	٥٧- لا تجالس أهل الأهواء
٢٨٤	مجاهد	٥٨- لا تجالسوا أهل الأهواء فإن لهم عرة
٢٨٤	أبو قلابة	٥٩- لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم
١٠٧	ابن زيد	٦٠- لا تقسوا قلوبهم
١٩٨	ابن عباس	٦١- لا تلبسها على معصية
٢٠٨	مجاهد	٦٢- لا شك فيه
٤٩	ابن عباس	٦٣- لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا
١٤٤	ابن زيد	٦٤- اللسان الصدق: الذكر الصدق
٦٩	العباس	٦٥- لقد أعطاني الله خصلتين
٥٩-٥٨	ابن عباس ومجاهد	٦٦- لكفور
	سعيد بن جبير	٦٧- ليزداد يقيني
٢١٢	والضحاك وقتادة	
٢١٣-٢١٢	سعيد بن جبير والسدي	٦٨- ليطمئن قلبي باخلة
١١٦	مجاهد	٦٩- المؤمنين حقا
٤٠٩، ١١٩	ابن مسعود	٧٠- ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله
١٨٠	مجاهد	٧١- المتبذخين الأشربين
١٨٠	ابن عباس	٧٢- المرحين
١١٧	ابن عباس	٧٣- المصدقين بما أنزل الله
١٢٥	قتادة	٧٤- مقبل
١٠٤	ابن عباس	٧٥- المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء
٢٥٦	ابن مسعود	٧٦- من لم تأمره الصلاة بالمعروف
٣٨١	السدي	٧٧- نزلت في الأخنس بن شريق...
٢٢٨-٢٢٧	ابن عباس	٧٨- نزل النبي صلى الله عليه وسلم
٣٨٦	السدي	٧٩- نفرت
	ابن عباس وسفيان الثوري	٨٠- هذا في الحلف
٢٢٢	قتادة	٨١- هذا نعت أولياء الله
٢٠٨	الضحاك	٨٢- هو الخالص
٢٤١	ابن عباس	٨٣- هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله
١٠٨، ١٠٦-١٠٥	السدي	٨٤- هو الرجل يريد أن يظلم
١٨	علقمة بن قيس	٨٥- هو الرجل يصاب بالمصيبة
١٠٨	مجاهد	٨٦- هو الرجل يهيم بالذنب

الصفحة	القائل	طرف الأثر
٣٣٩	مجاهد	٨٧- هو الغناء وكل لعب لهو
٤٦١	ابن عباس	٨٨- هو القرآن
٥٩	الحسن	٨٩- هو الكفور الذي يعد المصائب
١٢١	ابن عباس وقتادة	٩٠- وأنا بوا إلى ربهم
١٠٥	أبو الدرداء	٩١- الوجل في القلب كإحراق السعفة
١٤٢	ابن عباس	٩٢- والذي جاء بالصدق من جاء بلإله
١٩٩-١٩٨	سعيد بن جبير	إلا الله
	ابن عباس	٩٣- وقلبك ونيتك فطهر
		٩٤- وكان العباس أسر يوم بدر
		٩٥- والله لقد بعث الله النبي صلى الله
٤٠٥	المقداد بن عمرو	عليه وسلم
٣٢٣-٣٢٢	قتادة ومجاهد	٩٦- يخوف والله المؤمن بالكافر
١٨٠	مجاهد	٩٧- يعني به البغي
١١٧	مقاتل بن حيان	٩٨- يعني به المتواضعين
١١٧	أبو العالية	٩٩- يعني الخائفين
٣٨٤	ابن عباس	١٠٠- يعني شكاً
	ابن عباس وقتادة	١٠١- يعني الموت
٦٢	ومجاهد	
		١٠٢- يعني لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن
١٨-١٧	ابن عباس	ليخطئه
٣٣٥	قتادة	١٠٣- ينهون عن الإسلام ويبطئون عنه

فهرس الأشعار

الصفحة	القافية	الشطر الأول
٤٦	جانبا	١- إذا هم ألقى بين عينيه عزمه
٣٤١	الخليم	٢- اظن الحلم دل على قومي
٣٣٧	مسلوك	٣- انت الأمير على الدنيا بزهدك في
٤١٣	البصر	٤- إن كنت لا تسمع الذكرى فقيم ترى
١٩٨	اتقنع	٥- إني بحمد الله لا ثوب فاجر
٤٣	النظر	٦- إني توسمت فيك الخير أعرفه
٣٤	للعبور	٧- أيها الغافل في ظل نعيم وسرور
٩٦	اليبس	٨- ترجوا النجاة ولم تسلك مسالكها
٣٣٧، ٢٠١	صابر	٩- رأيت الذي لا كله أنت قادر
٣٣	المخيم	١٠- فحي على جنات عدن فإنها
٣٥٧	طرفا	١١- كانت هي الوسط المحمي فاكتفت
٤١٣	القمر	١٢- لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الـ
٨٥	اللوم	١٣- لا كان من لسواك فيه بقية
١٤٤	تابع	١٤- لنا القدم الأولى لديك وخلفنا
٤١٣	الحضر	١٥- ليرحلن عن الدنيا وإن كرها
٤١٣	الأثر	١٦- ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل
٧٨	الأول	١٧- من لى بمثل سيرك المدلل
٣٤	الغور	١٨- واعدد النفس طوال الدهر من أهل القبور
٣٣٧	مملوك	١٩- وأنت عبد لها مادمت تعشقها
٩٣	تسعد	٢٠- ورجع على الخوف الرجا عند بأسه
١٩٠	السقيم	٢١- وكم من عائب قولاً صحيحاً...
٣٣٧، ٢٠١	المناطر	٢٢- وكنت متى أرسلت طرفك رائداً
١٩٠	الفهوم	٢٣- ولكن تأخذ الأذهان منه
٣٣	نسلم	٢٤- ولكننا سي العدو فهل ترى
٤٦	صاحباً	٢٥- ولم يستشر في رأية غير نفسه
١٦٨	القيم	٢٦- وهم صرفوكم حين جزتم عن الهدى
٤١٣	الكبر	٢٧- يامن يصيخ إلى داعي الشقاء وقد

فهرس الألفاظ الغربية المشروحة في الهامش

الصفحة	الكلمة
٣٤٥	نأبته
٣١٨	أربك
٣٠٢	الأسى
١٣٧-١٣٨	الإفك
٣٩٤	الأنف
١٩٣	إهالة
٥٢	البدعة
٣٢	تعس
٥٤	لا يثرب
٦٠	الجبرية
٢٨٤	الجرب
٢٦٢	جنة
١٧٥	جهد المقل
٨٣	الجهمية
١٩٠	الحبائل
٥٩	الحجزة
٣٨	التحديق
١١٢	أحفوه
١٩٣	خب
٤٢٥	خبال
٢٣٥	المختصرة
٢١٥	الخطم
٣٢	الخميصة
٢٢٧	الدعص
٢٥٨	ذود
٧٣	تربيع
١٩	الاسترجاع
١١٢	أرمو
٣٣	الروعة

الصفحة	الكلمة
٢٩٠	زبيبتان
١١٣	الزعق
١١٣	الزفن
٩٢	الزمام
٩٢	سطوات
١٠٥	السعفة
٢٨٠	السفسطة
١٩٣	سنخة
٣١٤	المسومة
٤١٩	شده
٣٢	شيك
٣٤٤	يشام
١١١	الطغام
٣٣٦	طول
١١	الظئر
٢٨٤	العره
٢٦٧	المعاريض
٢٢١	المعلی
١٩٣	غر كريم
٢٩٥	الغال
٤١٨	غمرة
١٩٠	الغوائل
١٠٥	فرقت
٩٧	الفكاك
١٨	القحط
٤٤١-٤٤٤	القدح المعلی
٦٠	القدرية
١٠٥	اقشعر
٢٠٢	القنوت

الصفحة	الكلمة
٩٢	كؤود
٣٨	لزه
٣٧٨	ألاص
١٧٠	المثلات
٧٨	المطية
٢٩٥	المكس
٢٠٨	تنبو
١٠٥	يتزع عنه
٢٣٦	ينكت
٣٢	انتكس
٢٦٢	وجاء
٢٥٨	أوسق
٢٧٥	الوسوسة
١٨٧	الضعة
٢٥٨	أواق

فهرس الأعلام المترجمين

الصفحة

العلم

٢٦١	إبراهيم بن السري الزجاج النحوي
١٠٨	إبراهيم بن يزيد النخعي
٤٢٣	أبي بن كعب
٢١٧	أحمد بن عبدالحليم الحراني
٢٠٠	أحمد بن علي العسقلاني
١٢	أحمد بن محمد بن حنبل
٣٨٥	أحمد بن مصطفى المراغي
٣٨١	الأخنس بن شريق الثقفي
٣٦	إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة
٣٥	إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي
١٢١	ابن الأعرابي = محمد بن زياد الهاشمي
٣٩٨	الألوسي = محمود بن عبدالله الحسيني
١١	أنس بن مالك
١٢٩	البخاري = محمد بن إسماعيل بن إبراهيم
١٣	البربهاري = الحسن بن علي بن خلف
٢٢٠	البغوي = الحسين بن مسعود
١٤١	أبو بكر الصديق = عبدالله بن عثمان بن عامر التيمي
٩١-٩٠	بلال بن رباح
٤٢	الترمذي = محمد بن عيسى بن سورة
٣٥٧	أبو تمام = حبيب بن أوس الطائي
٢١٧	ابن تيمية = أحمد بن عبدالحليم الحراني
١٧٢	ثوبان
٤٤٨	جبير بن مطعم
٨٨	الجدع بن درهم
٤٥٨	جندب بن جنادة الغفاري
١١٦	ابن أبي حاتم = عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي
٩٧	أبو حامد الغزالي = محمد بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي
٣٥٧	حبيب بن أوس الطائي
٢٠٠	ابن حجر = أحمد بن علي العسقلاني
١٤٥-١٤٤	حسان بن ثابت

الصفحة

العلم

١٣	أبو الحسن التميمي = عبدالعزيز بن الحارث بن أسد
١٣	الحسن بن علي بن خلف البربهاري
٤٧	الحسن بن يسار البصري
٢١	الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني
٢٢٠	الحسين بن مسعود البغوي
٢١٢	حمد بن محمد البستي الخطابي
٣٩٧	أبو حيان = محمد بن يوسف بن علي
٨٨	خالد بن عبدالله القسري
٢١٢	الخطابي = حمد بن محمد البستي
١٠٥	أبو الدرداء = عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي
٤٥٨	أبو ذر = جندب بن جنادة الغفاري
٢١	الراغب = الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني
٣٨١	الربيع بن أنس البكري الخراساني
٢١٥	رفاعة بن رافع الزرقى
١١٧	رفيع بن مهران الرياحي
٢٦١	الزجاج = إبراهيم بن السري النحوي
٣٩٩	الزخشري = محمود بن عمر
١٩٨	الزهري = محمد بن مسلم بن شهاب
٢٦	زيد بن أرقم
١٧٠	زيد بن أسلم
١٣٧	زينب بنت جحش الأسدية
٣٦	السدي = إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة
٤٢	سعد بن مالك بن سنان أبو سعيد الحذري
٤٦	سعد بن ناشب المازني
١٩	السعدي = عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي
١٩٨	سعيد بن جبير
١٠٠	أبوسفيان = صخر بن حرب بن أمية
١٠٦	سفيان بن سعيد الثوري
١٧١	سفيان بن عبدالله
٦٢	سفيان بن عيينة
٣٧٩	أم سلمة = هند بنت أبي أمية المخزومية

الصفحة

العلم

٨٢	أبو سليمان الداراني = عبدالرحمن بن أحمد العنسي
٣٧	سيد بن قطب
٣٣٣	الشافعي = محمد بن إدريس
١٩٨	الشعبي = عامر بن شراحيل
١٠٠	صخر بن حرب بن أمية
١٦٣-١٦٢	الضحاك بن مزاحم
٢٧	عائشة بنت أبي بكر الصديق
١١٧	أبو العالية = رفيع بن مهران الرياحي
١٩٨	عامر بن شراحيل
٦٩-٦٨	العباس بن عبدالمطلب
٨٢	عبدالرحمن بن أحمد العنسي
١١٦	عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي
١٠٧	عبدالرحمن بن زيد بن أسلم
١٣٥-١٣٤	عبدالرحمن بن صخر الدوسي
١٩	عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي
٢٠٧	عبدالزراق بن همام الصنعاني
١٣	عبد العزيز بن الحارث بن أسد
٤٣	عبدالله بن رواحة
٢٨٤	عبدالله بن زيد الجرهمي
١٧	عبدالله بن عباس
٢٧	عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة
١٤١	عبدالله بن عثمان بن عامر التيمي أبو بكر الصديق
٣٤	عبدالله بن عمر بن الخطاب
١٧٣	عبدالله بن عمرو بن العاص
٤١٢	عبدالله بن محمد بن سارة
٣٥	عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي
١١٩	عبدالله بن مسعود
٢٥٣	عثمان بن عفان
١١٣	العرباض بن سارية
٢٧	عروة بن الزبير

الصفحة

العلم

٢١٧	عكرمة القرشي
١٨	علقمة بن قيس
١٠٠	علي بن أحمد بن محمد النسابوري
٢٣٥	علي بن أبي طالب
١٣٠	علي بن محمد بن حبيب البصري
١٣٤	عمران بن حصين
٥٥	عمر بن الخطاب
١٠٠	عمرو بن دينار
١٠٥	عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي
١٨	الفخر الرازي = محمد بن عمر بن الحسين
٢١	الفيروز آبادي = محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي
٣٦	قتادة بن دعامة السدوسي
١١١	القرطبي = محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي المفسر
٢٨٤	أبو قلابة = عبدالله بن زيد الجرمي
٣٥	ابن القيم = محمد بن أبي بكر بن سعد الدمشقي
٣٥	ابن كثير = إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي
١٦٨	كعب بن زهير
٤٦	الليث بن سعد
٤٦	المازني = سعد بن ناشب
١٣٠	الماوردي = علي بن محمد بن حبيب البصري
٣٦	مجاهد بن جبر
١١١	محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي
٣٣٣	محمد بن إدريس الشافعي
٤٥	محمد بن إسحاق
١٢٩	محمد بن إسماعيل البخاري
٢٣٩	محمد الأمين الشنقيطي
٣٥	محمد بن أبي بكر بن سعد الدمشقي
١٨	محمد بن جرير الطبري
٢٥٢	محمد بن رشيد رضا
١٢١	محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي

الصفحة

العلم

٢٠٧	محمد بن سيرين
٩٣	محمد بن عبد القوي
٢٦٣	محمد بن عبد الواحد
١٨	محمد بن عمر بن الحسين
٤٢	محمد بن عيسى بن سورة
٣٦	محمد بن كعب القرظي
٩٧	محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي
١٩٨	محمد بن مسلم بن شهاب الزهري
٢١	محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي
٣٩٧	محمد بن يوسف بن علي بن حيان
٣٩٨	محمود بن عبدالله الحسيني الألويسي
٣٩٩	محمود بن عمر الزخشي
٣٨٥	المراغي = أحمد بن مصطفى المراغي
٩٣	المرداوي = محمد بن عبد القوي بن بدران
١٨٣	مسروق بن الأجدع أبو عائشة
١١٢	مسلم بن الحجاج النيسابوري
١٢٨	معاذ بن جبل
١١٧	مقاتل بن حيان
٤٠٥	المقداد بن عمرو
٢٧	ابن أبي مليكة = عبدالله بن عبيدالله
١٦٢	النوي = يحيى بن شرف الحزامي
١٣٥-١٣٤	أبو هريرة = عبدالرحمن بن صخر الدوسي
٢٦٣	ابن الهمام = محمد بن عبد الواحد
٣٧٩	هند بنت أبي أمية المخزومية
١٠٠	الواحدي = علي بن أحمد بن محمد النيسابوري
١٦٢	يحيى بن شرف النووي

فهرس المصادر والمراجع

- ١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية:
تأليف أبي عبدالله عبيدالله بن محمد بن بطه العكبري، ت. رضا بن نعان
معطى، نشر دار الراية، الرياض، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٢- أحكام القرآن:
لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، ت. علي محمد البجاوي، نشر دار
المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٣- إحياء علوم الدين:
تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي وبذيله كتاب، المغنى عن حمل
الأسفار في الأسفار للعراقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى
١٤٠٦هـ.
- ٤- أسباب الزول:
تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تخريج عصام بن عبدالمحسن
الحميدان، نشر دار الإصلاح الدمام، ط. الأولى ١٤١١هـ.
- ٥- الاستقامة:
لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، ت. الدكتور محمد رشاد
سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٦- الاستيعاب:
للقرطبي المالكي، المطبوع مع الإصابة، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٧- أسد الغابة:
لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، ت. محمد إبراهيم البنا -
محمد أحمد عاشور، محمود عبدالوهاب فايد، ط. الشعب.
- ٨- الإصابة:
لابن حجر العسقلاني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٩- أصول التربية الإسلامية وأساليبها:
لعبدالرحمن النحلوي، نشر دار الفكر، ط. الأولى ١٣٩٩هـ.
- ١٠- أضواء البيان:
تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة،
ط. ١٤٠٨هـ.
- ١١- الأعلام للزركلي:
تأليف خير الدين الزركلي، نشر دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط. السابعة
١٩٨٦م.

- ١٢- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري:
للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، ت. الدكتور محمد بن سعد آل سعود،
نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
- ١٣- أعلام الموقعين:
تأليف شمس الدين أبي عبدالله حمد بن أبي بكر المعروف بأبن قيم الجوزية، ت.
محمد عبدالسلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى
١٤١١هـ.
- ١٤- أعلام النساء:
تأليف عمر رضا كحالة، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط. العاشرة ١٤١٢هـ.
- ١٥- إغاثة اللهفان:
تأليف أبي عبدالله حمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، ت. محمد حامد
الفقي، نشر دار المعروفة، بيروت - لبنان.
- ١٦- اقتضاء الصراط المستقيم:
تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، نشر دار الفكر.
- ١٧- الأمثال في القرآن الكريم:
للإمام شمس الدين حمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم
الجوزية، ت. إبراهيم بن محمد، نشر مكتبة الصحابة بطنطا، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
- ١٨- الإنصاف حاشية على الكشاف:
المطبوع مع الكشاف، للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري
المالكي، ط. الحلبية بمصر، ط. الأخيرة ١٣٩٢هـ.
- ١٩- الإيمان:
تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، ت. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتبة
أنس بن مالك، ط. ١٤٠٠هـ.
- ٢٠- الباعث على إنكار البدع والحوادث:
للإمام شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي
شامة، ت. مشهور حسن سلمان، نشر دار الراية - الرياض، ط. الأولى ١٤١٠هـ.
- ٢١- البحر المحيط:
لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، نشر دار الفكر، بيروت - لبنان،
ط. الثانية ١٤٠٣هـ.
- ٢٢- البداية والنهاية:
تأليف أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، ت. د. أحمد أبو ملح، مهدى
ناصر الدين، د. علي نجيب عطوي، علي عبدالساتر، فؤاد السيد. نشر دار الكتب
العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.

- ٢٣- البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع:
للقاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني، نشر مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
- ٢٤- البرهان:
للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر
دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٢٥- بصائر ذوي التمييز:
تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، ت. الاستاذ محمد علي النجار،
نشر وزارة الأوقاف المصرية، ط. الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٢٦- بيان فضل علم السلف على علم الخلف:
تأليف الحافظ ابن رجب الحنبلي، ت. محمد بن ناصر العجمي، نشر دار الصميعي،
ط. الثالثة ١٤١٢هـ.
- ٢٧- تأويل مختلف الحديث:
تأليف الإمام أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت. محمد زهري النجار، نشر
مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٢٨- تاريخ بغداد:
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، نشر دار الفكر.
- ٢٩- تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك:
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الثانية، نشر
دار المعارف - مصر.
- ٣٠- التحرير والتنوير:
تأليف الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، نشر الدار التونسية، تونس، ط. ١٩٨٤م.
- ٣١- تحفة الأحوذى:
تأليف الإمام محمد عبدالرحمن المباركفوري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت -
لبنان، ط. الثالثة ١٤٠٤هـ.
- ٣٢- التذكرة في الوعظ:
للإمام عبدالرحمن بن علي بن محمد القرشي الملقب بابن الجوزي، ت. أحمد
عبدالوهاب فتوح، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٣٣- تذكرة الحفاظ:
للإمام أبي عبدالله شمس الدين الذهبي، نشر دار التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٣٤- التريّة بالآيات:
تأليف عبدالرحمن النحلاوي، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
ط. الأولى ١٤٠٩هـ.

- ٣٥- التعريفات:
للشريف علي بن محمد الجرجاني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط.
الثالثة ١٤٠٨هـ.
- ٣٦- تفسير آيات من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عبد الوهاب:
تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي، ت. د. محمد بلتاجي، نشر أنصار
السنة المحمدية.
- ٣٧- تفسير البيضاوي:
تأليف القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي
البيضاوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٣٨- تفسير الخازن:
لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، نشر دار الفكر،
ط. ١٣٩٩هـ.
- ٣٩- تفسير سفيان الثوري:
للإمام أبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، رواية أبي جعفر
محمد عن أبي حذيفة النهدي عنه صححه ورتبه وعلق عليه وراجع النسخة
وضبط أعلامها، لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت -
لبنان، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٤٠- تفسير القرآن:
للإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت. د. مصطفى مسلم محمد، نشر مكتبة
الرشد، الرياض، ط. الأولى ١٤١٠هـ.
- ٤١- تفسير القرآن العظيم:
لilhافظ ابن كثير، ت. عبدالعزيز غنيم - محمد أحمد عاشور - محمد إبراهيم البناء،
نشر دار الشعب، بالقاهرة
- ٤٢- تفسير القرآن العظيم:
مسنداً عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لأبي محمد
عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي، ت. د. أحمد عبدالله الزهراني، (المجلد
الأول)، ت. د. حكمت بشير ياسين، (المجلد الثاني)، نشر مكتبة الدار بالمدينة
المنورة، دار طيبة، بالرياض، دار ابن القيم، بالدمام، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٤٣- التفسير القيم:
للإمام ابن القيم، جمعة محمد أويس الندوي، ت. محمد حامد الفقى، نشر مكتبة
السنة المحمدية.
- ٤٤- تفسير المراغي:
تأليف أحمد مصطفى المراغى، ط. الخلية بمصر، ط. الخامسة ١٣٩٤هـ.

- ٤٥- تفسير المنار:
للإمام محمد رشيد رضا، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط. الثانية.
- ٤٦- تفسير النسائي:
للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، ت. صبري بن عبد الخالق الشافعي، سيد بن عباس الجيلمي، نشر مكتبة السنة، ط. الأولى ١٤١٠هـ.
- ٤٧- التمهيد:
تأليف محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوزاني الحنبلي، ت. د. مفيد محمد أبو عمشة، نشر دار المدني جده، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٤٨- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشيعية الموضوعة:
لأبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكتاني، ت. عبد الوهاب عبداللطيف وعبدالله الصديق، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الثانية ١٤٠١هـ.
- ٤٩- تهذيب الأسماء واللغات:
للإمام العلامة أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي، ط. المنيرية.
- ٥٠- تهذيب التهذيب:
للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ٥١- تهذيب اللغة:
لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت. عبدالسلام هارون، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٤هـ.
- ٥٢- تيسير العزيز الحميد:
تأليف الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، نشر أنصار السنة المحمدية.
- ٥٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:
تأليف الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، نشر مؤسسة مكة للطباعة والإعلام بمكة، ط. ١٣٩٨هـ.
- ٥٤- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن:
للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي.
- ٥٥- جامع البيان:
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، نشر دار الفكر، بيروت - لبنان، ط. ١٤٠٥هـ.

- ٥٦- الجامع الصحيح للبخاري:
لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، نشر
المطبعة السلفية ومكنتتها، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٥٧- الجامع الصحيح للترمذي:
لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت. أحمد محمد شاكر، نشر دار إحياء
التراث العربي، بيروت.
- ٥٨- الجامع لأحكام القرآن:
لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط. الثانية.
- ٥٩- الجواب الصحيح لمن بذل دين المسيح:
لشيخ الإسلام ابن تيمية، قدم له علي السيد صبح المدني، نشر مطبعة المدني،
القاهرة.
- ٦٠- الحديث والمحدثون محمد محمود أبو زهو:
طبع ونشر الرئاسة العامة للإدارات، والبحوث العلمية، والإفتاء، والدعوة،
والإرشاد، الرياض ١٤٠٤هـ.
- ٦١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:
للمحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، ط. مطبعة السعادة ١٣٩٤هـ.
- ٦٢- حول التفسير الإسلامي للتاريخ:
تأليف محمد قطب، نشر المجموعة الإعلامية، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٦٣- خريدة القصر وجريدة العصر:
للمعماد الأصفهاني، الكاتب قسم شعراء المغرب والأندلس، ت. آذرتاش آدرنوش،
الدار التونسية للنشر ١٩٧١م.
- ٦٤- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب:
لعبدالقادر البغدادي، نشر دار صادر- بيروت.
- ٦٥- درء تعارض العقل والنقل:
لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، ت. د. محمد رشاد سالم،
نشر مكتبة ابن تيمية.
- ٦٦- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:
لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، ت. محمد سيد جادالحق،
نشر دار الكتب الحديثة.
- ٦٧- الدر المصون:
تأليف أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ت. د. أحمد محمد الخراط، نشر
دار القلم، دمشق، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.

- ٦٨- الدر المنثور:
للإمام جلال الدين السيوطي، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٦٩- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب:
للشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٧٠- دلائل النبوة:
لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت. د. عبدالمعطي قلججي، نشر دار الريان للتراث، القاهرة، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٧١- ديوان حسان بن ثابت:
ترتيب عبدالأمير مهنا، نشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٧٢- رسالة في القلب:
تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، ت. سليم بن عيدالهالي، نشر دار ابن الجوزي، ط. الأولى ١٤١١هـ.
- ٧٣- الرعاية لحقوق الله:
لأبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي، ت. عبدالقادر أحمد عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الرابعة.
- ٧٤- الروح:
تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، ت. محمد اسكندريلدا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٢هـ.
- ٧٥- روح المعاني:
لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط. الرابعة ١٤٠٥هـ.
- ٧٦- الروض المربع:
لمنصور بن يونس البهوتي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط. السابعة.
- ٧٧- روضة التعريف بالحب الشريف:
للويز لسان الدين بن الخطيب، ت. عبدالقادر أحمد عطا، نشر دار الفكر العربي.
- ٧٨- روضة المحبين ونزهة المشتاقين:
لابن قيم الجوزية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٧٩- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين:
لمحمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي بعنيزة، ط. الخلية بمصر ١٤٠٠هـ.
- ٨٠- الزهد:
- للإمام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ط. أم القرى.

- ٨١- سلسلة الأحاديث الصحيحة:
للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، ط. ١٤٠٥هـ.
- ٨٢- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة:
للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، ط. ١٤٠٥هـ.
- ٨٣- سنن الدارمي:
للإمام أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، طبع بعناية محمد أحمد دهمان،
نشر دار إحياء السنة النبوية، دار الكتب العلمية.
- ٨٤- سنن أبي داود:
للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ت. محمد حي الدين
عبدالحميد، نشر دار الفكر.
- ٨٥- سنن ابن ماجه:
للمحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، ت. محمد فؤاد عبدالباقي، نشر
المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
- ٨٦- سنن النسائي:
بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، ت. عبدالفتاح أبو
غدة، نشر دار البشائر الإسلامية مصورة عن الطبعة الأولى المصرية في القاهرة،
ط. الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٨٧- سير أعلام النبلاء:
تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، بأشراف وتخريج
شعيب الأرناؤوط، تحقيق حسين الأسد، نشر مؤسسة الرسالة، ط. الرابعة ١٤٠٦هـ.
- ٨٨- شذرات الذهب:
للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبدالحلي بن العماد الحنبلي، نشر دار الفكر،
ط. الأولى ١٣٩٩هـ.
- ٨٩- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة:
للإلكائي، ت. أحمد سعد حمدان، نشر دار طيبة، بالرياض.
- ٩٠- شرح العقيدة الطحاوية:
للعلمة ابن أبي العز الحنفى، ت. جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر
الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الخامسة ١٣٩٩هـ.
- ٩١- شرح فتح القدير:
لكمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفى، علي
الهداية: شرح بداية المبتدى للمرغيناني، ط. الحلبية، الأولى ١٣٨٩هـ.

- ٩٢- شرح الكوكب المنير:
تأليف العلاقة محمد بن أحمد بن عبدالعزيز ابن علي الفتوح الحنبلي المعروف بابن النجار، ت. د. محمد الزحيلي، د. نزيه حماد، نشر دار الفكر، بدمشق، ط. ١٤٠٠هـ.
- ٩٣- شرح مختصر أصول الفقه:
للشيخ تقي الدين أبي بكر بن زيد الجراعي المقدسي الحنبلي، رسالة ماجستير في قسم أصول الفقه، في الجامعة الإسلامية، ت. عبدالعزيز محمد عيسى القائدي.
- ٩٤- شرح النووى على صحيح مسلم:
للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووى، نشر دار الكتب العلمية.
- ٩٥- الشعر والشعراء:
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، نشر دار صادر، ط. مطبعة بريل - ليدن ١٩٠٢م.
- ٩٦- شفاء العليل:
للإمام العالم ابن قيم الجوزية، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٩٧- صحيح الجامع الصغير وزيادته:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعة زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، ط. الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٩٨- صحيح سنن الترمذي:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٩٩- صحيح سنن أبي داود:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٠٠- صحيح سنن ابن ماجه:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٠١- صحيح سنن النسائي:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٠٢- صحيح مسلم:
للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت. محمد فؤاد عبدالباقى، نشر دار التراث العربي، بيروت، ط. الثانية ١٩٧٢م.

- ١٠٣- صفة الصفوة:
للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ت. محمود فاخوري، خرج أحاديثه، د. محمد رواس قلعه جي، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط. الثالثة ١٤٠٥هـ.
- ١٠٤- صفة الغرباء من المؤمنين:
تأليف الحافظ أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ت. بدر بن عبدالله البدر، نشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، ط. الثانية ١٤٠٧هـ.
- ١٠٥- صفوة الآثار والمفاهيم:
للشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري، ط. الثانية ١٤٠٤هـ.
- ١٠٦- الصلاة في القرآن الكريم - مفهوما - وفقهها:
تأليف د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
- ١٠٧- الصواعق المرسلة:
تصنيف الإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد ابن أبي بكر الشهر بابتيم الجوزية، ت. د. علي بن محمد الدخيل الله، نشر دار العاصمة الرياض، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٠٨- ضعيف سنن الترمذي:
تأليف محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي.
- ١٠٩- طبقات الحنابلة:
للقاضى أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، نشر دار المعرفة - بيروت.
- ١١٠- طبقات الشافعية:
لجمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي، ت. عبدالله الجبوري، نشر مطبعة الإرشاد، بغداد ط. الأولى ١٣٩١هـ.
- ١١١- طبقات الشافعية الكبرى:
لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب ابن تقي الدين السبكي، ط. الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية.
- ١١٢- الطبقات الكبرى:
لابن سعد
- ١١٣- طبقات المفسرين:
تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد الداوودي، راجع النسخة:
لجنة من العلماء بإشراف الناشر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

- ١١٤- طبقات المفسرين:
تصنيف الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر السيوطي. راجع
النسخة، لجنة من العلماء بإشراف الناشر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت -
لبنان، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١١٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين:
للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ت.
عمر بن محمود أبو عمر، نشر دار ابن القيم، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
- ١١٦- العبودية:
تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت
- لبنان، ط. الأولى ١٤٠١هـ.
- ١١٧- عدة الصابر وذخيرة الشاكرين:
تأليف الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت. محمد عثمان
الحشت، نشر دار الكتاب العربي، ط. الرابعة ١٤١٠هـ.
- ١١٨- العدة في أصول الفقه:
تأليف القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي، ت. د. أحمد
ابن علي سير المباركي، ط. الثانية ١٤١٠هـ.
- ١١٩- العقيدة الواسطية:
لشيخ الإسلام ابن تيمية، مع شرحها لمحمد خليل هراس.
طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد،
الرياض - السعودية.
- ١٢٠- علماء نجد خلال ستة قرون:
للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام. نشر مكتبة النهضة الحديثة مكة
المكرمة، ط. الأولى ١٣٩٨هـ.
- ١٢١- غذاء الألباب:
تأليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي، نشر مؤسسة قرطبة.
- ١٢٢- الفائق:
للعامة جار الله محمود بن عمر الزحشري، ت. علي محمد الجبائي، محمد
أبو الفضل إبراهيم. ط. الحلبيه بمصر، ط. الثانية.
- ١٢٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري:
للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط. السلفية ١٣٨٠هـ.
- ١٢٤- فتح القدير:
تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط. الحلبيه بمصر، ط. الثانية ١٣٨٣هـ.

- ١٢٥- فتح المجيد:
تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ت. سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، نشر دار الفكر، ط. ١٤٠٩هـ.
- ١٢٦- الفتوحات الإلهية:
تأليف سليمان عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجل، ط. الحلبية بمصر.
- ١٢٧- الفرق بين الفرق:
للإمام عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرايئي التميمي، ت. محمد محي الدين عبدالحميد، نشر دار المعرفة للطباعة - بيروت.
- ١٢٨- فقه الإسلام شرح بلوغ المرام:
تأليف عبدالقادر شبيه الحمد، ط. مطابع الرشيد المدينة.
- ١٢٩- فقه الزكاة:
للدكتور يوسف القرضاوي، نشر مؤسسة الرسالة، ط. السادسة عشر ١٤٠٦هـ.
- ١٣٠- فقه السيرة:
لمحمد الغزالي، نشر دار الكتب الإسلامية، ط. الثامنة ١٤٠٢هـ.
- ١٣١- الفوائد:
للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية، ت. بشير محمد عيون، نشر مكتبة دار البيان دمشق، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.
- ١٣٢- الفوائد البهية في تراجم الحنفية:
للعامة أبي الحسنات محمد عبدالحلي اللكنوي الهندي
مع التعليقات السنية على الفوائد البهية، ط. الأولى ١٣٢٤هـ، ط. مطبعة السعادة - مصر.
- ١٣٣- في ظلال القرآن:
لسيد قطب، نشر دار الشروق، ط. التاسعة ١٤٠٠هـ.
- ١٣٤- قاموس القرآن:
للفقيه المفسر الجامع الحسين بن محمد الدامغاني، ت. عبدالعزيز سيد الأهل، نشر دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط. الخامسة ١٩٨٥م.
- ١٣٥- القاموس المحيط:
للفيروز آبادي، ت. مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، نشر مؤسسة الرسالة، ط. الثانية ١٤٠٧هـ.
- ١٣٦- الكامل:
تأليف الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير، نشر دار صادر، بيروت، ط. ١٤٠٢هـ.

- ١٣٧- الكبائر:
تأليف الحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت. محي الدين مستو، نشر دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ.
- ١٣٨- الكشف:
تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزحشرى الخوارزمي، حقق الرواية محمد الصادق قمحاوي، نشر مكتبة ابن تيمية، ط. الحلبية بمصر، ط. الأخيرة ١٣٩٢هـ.
- ١٣٩- كشف الأسرار:
تأليف الإمام علاء الدين عبدالعزيز بن أحمد البخاري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط. ١٣٩٤هـ.
- ١٤٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:
لمصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي المعروف بجاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ١٤١- كلمة الإخلاص وتحقيق معناها:
تأليف الحافظ ابن رجب الحنبلي، ت. عماد طه فرة، نشر دار الصحابة للتراث، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٤٢- كيف نفهم التوحيد:
بقلم محمد أحمد باشميل، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط. الثالثة ١٤٠٨هـ.
- ١٤٣- لسان العرب:
للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفریقی المصري، نشر دار صادر.
- ١٤٤- مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب:
صنفها وأعدّها للتصحيح تهيداً لطبعها، ١- عبدالعزيز بن زيد الرومي. ٢- محمد بلتاجي. ٣- سيد حجاب. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ١٤٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مؤسسة قرطبة.
- ١٤٦- مختصر معارج القبول:
للشيخ حافظ ابن أحمد آل حكيمي، اختصره أبو عاصم، هشام بن عبدالقادر بن محمد آل عقده، نشر دار الصفوة، ط. الثانية ١٤١٢هـ.
- ١٤٧- مدارج السالكين:
للإمام السلفي أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، ت. محمد حامد الفقي، نشر مكتبة السنة المحمدية.

- ١٤٨- المستدرك:
- للإمام الحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١٤٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل:
- نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، عن طبعة المطبعة الميمونية.
- ١٥٠- مسند الإمام أحمد:
- ت. أحمد شاكر، نشر دار المعارف بمصر، ط. ١٣٦٩هـ.
- ١٥١- المسودة:
- صنفه: ١- مجد الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله. ٢- شهاب الدين أبو المحاسن عبدالحليم بن عبدالسلام. ٣- شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبدالحليم جمعها وبيضاها، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الحرائي الدمشقي، ت. محمد محي الدين عبدالحميد، ط. مطبعة المدني، القاهرة.
- ١٥٢- مشكاة المصابيح:
- تأليف محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، ت. محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، ط. الثالثة ١٤٠٥هـ.
- ١٥٣- المصباح المنير:
- تأليف العالم العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، نشر مكتبة لبنان.
- ١٥٤- المطلع على أبواب المقنع:
- للإمام أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، نشر دار الفكر.
- ١٥٥- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد:
- تأليف الشيخ حافظ بن أحمد حكيمي، ط. السلفية.
- ١٥٦- معالم التنزيل:
- للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، ت. ١- خالد عبدالرحمن العك. ٢- مروان سواد، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١٥٧- معالم في التربية:
- تأليف د. عجيل جاسم النشمي، نشر مكتبة المنار الإسلامية الكويت، ط. الأولى ١٤٠٠هـ.
- ١٥٨- معاني القرآن وإعزابه:
- لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، ت. د. عبدالجليل عبده شلي، ط. الأولى ١٤٠٨هـ، نشر عالم الكتب - بيروت.
- ١٥٩- المعجزة الكبرى القرآن:
- للإمام محمد أبو زهره نشر دار الفكر العربي.

١٦٠- معجم المؤلفين:

تأليف عمر رضا كحالة، نشر دار إحياء التراث العربي.

١٦١- معجم مقاييس اللغة:

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت. عبدالسلام محمد هارون، ط. الحلبيّة

الثانية ١٣٩٠هـ.

١٦٢- المغني:

تأليف أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

١٦٣- مفاتيح الغيب:

للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري، نشر دار الفكر، ط. الثالثة ١٤٠٥هـ.

١٦٤- المفردات:

تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت. محمد سيد كيلاني، نشر دار المعرفة بيروت - لبنان.

١٦٥- الملل والنحل:

لإبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ت. محمد سيد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.

١٦٦- مناهل العرفان:

للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ت. أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.

١٦٧- منهاج السنة:

لابن تيمية إبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، ت. د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط. الأولى ١٤٠٦هـ،

١٦٨- منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب:

لمحمد قطب، نشر دار الشروق، ط. الحادية عشرة ١٤٠٨هـ.

١٦٩- ميزان الاعتدال:

لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت. علي محمد البجاوي، ط. دار إحياء الكتب العربية، ط. الأولى ١٣٨٢هـ.

١٧٠- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار:

للحافظ ابن حجر العسقلاني، ت. حمدي عبدالمجيد السلفي، نشر مكتبة ابن

تيمية، القاهرة، ط. الأولى ١٤١١هـ.

- ١٧١- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر:
جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، ت. محمد عبدالكريم كاظم
الراضي، نشر مؤسسة الرسالة، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ.
- ١٧٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:
للشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نشر دار صادر - بيروت، ط. ١٣٨٨هـ.
- ١٧٣- النكت والعيون:
لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، ت. خضر محمد خضر، نشر وزارة
الأوقاف الكويتية، ط. الأولى ١٤٠٢هـ.
- ١٧٤- النهاية في غريب الحديث والأثر:
للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري، ت. طاهر أحمد
الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. نشر المكتبة العلمية، بيروت.
- ١٧٥- الهوى وأثره في الخلاف:
لفضيلة الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان، نشر دار الوطن - الرياض، ط. الأولى
١٤١٢هـ.
- ١٧٦- وفيات الأعيان:
لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان، ت. د. إحسان
عباس، نشر دار صادر، بيروت.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
٢	توطئة وشكر
٣	سبب اختيار الموضوع
٤	خطة البحث
٨	منهجي في الرسالة
٩	التمهيد
١٠	تعريف القلب والمراد به في الكتاب والسنة
١٢	علاقة القلب بالعقل
١٥	الباب الأول: حديث القرآن عن القلب السليم
١٦	الفصل الأول: أوصاف القلب السليم
١٧	المبحث الأول: الهداية
٢٤	المبحث الثاني: العلم
٣١	المبحث الثالث: العبودية
٦٤	المبحث الرابع: الإيمان
٧٢	المبحث الخامس: اليقين
٧٧	المبحث السادس: المحبة
٩٢	المبحث السابع: الرجاء والخوف
١٠٣	المبحث الثامن: الوجل
١١٤	المبحث التاسع: الخشوع
١٢١	المبحث العاشر: الإخبات
١٢٣	المبحث الحادي عشر: الإنابة
١٢٨	المبحث الثاني عشر: التقوى
١٣٢	المبحث الثالث عشر: المراقبة

الصفحة

الموضوع

١٣٤	المبحث الرابع عشر: الحياء
١٣٩	المبحث الخامس عشر: الصدق
١٤٦	المبحث السادس عشر: التوكل
١٥٦	المبحث السابع عشر: الشكر
١٦١	المبحث الثامن عشر: الاعتصام
١٦٥	المبحث التاسع عشر: الرأفة والرحمة
١٦٨	المبحث العشرون: الاستقامة
١٧٤	المبحث الحادي والعشرون: الإيثار
١٧٨	المبحث الثاني والعشرون: الصفاء
١٨٠	المبحث الثالث والعشرون: الفرح
١٨٥	المبحث الرابع والعشرون: الغيرة
١٨٧	المبحث الخامس والعشرون: التواضع
١٩٥	المبحث السادس والعشرون: الطهر
٢٠٧	المبحث السابع والعشرون: السلامة
٢١٠	المبحث الثامن والعشرون: الاطمئنان
٢٢١	المبحث التاسع والعشرون: اللين
٢٢٣	المبحث الثلاثون: الصبر
٢٢٧	المبحث الحادي والثلاثون: الربط
٢٣٢	الفصل الثاني: أسباب سلامة القلب
٢٣٣	تمهيد
	المبحث الأول: إرادة الله عز وجل الكونية وفضله ومنته
٢٣٥	على أصحاب القلوب السليمة
٢٤١	المبحث الثاني: سلامة العقيدة
٢٤٦	المبحث الثالث: تحقيق الخوف من الله عز وجل

الصفحة

الموضوع

٢٥٢	المبحث الرابع: شعائر الإسلام وعباداته الظاهرة
٢٥٢	أولاً: الوضوء والغسل والتيمم وإزالة النجاسة
٢٥٥	✓ ثانياً: الصلاة
٢٥٧	✓ ثالثاً: الزكاة وصدقة التطوع
٢٦١	✓ رابعاً: الصيام
٢٦٣	خامساً: الحج والنسك
٢٦٥	سادساً: مكارم الأخلاق
٢٧١	الباب الثاني: حديث القرآن عن القلب المريض
٢٧٢	الفصل الأول: نوعية أمراض القلوب
٢٧٣	تمهيد
٥٧٤	المبحث الأول: المرض الذي لا يتألم به صاحبه في الحال
٢٧٥	المطلب الأول: مرض الشبهات
٢٨٢	المطلب الثاني: مرض الشهوات
٢٨٥	أولاً: الكبير
٢٨٦	ثانياً: الحسد
٢٨٩	ثالثاً: البخل
٢٩١	رابعاً: العشق
٢٩٣	خامساً: الظلم
	أمراض يشترك كل من المشبهات والشهوات في إثارتها:
٢٩٧	الجهل
١٠٠	المبحث الثاني: المرض الذي يتألم به صاحبه في الحال
٣٠١	المطلب الأول: الحزن والهم والغم
٣٠٤	المطلب الثاني: الغضب
٣٠٦	المطلب الثالث: الغيظ

الصفحة

الموضوع

٣٠٧	الفصل الثاني: أسباب مرض القلب
٣٠٨	تمهيد
٣١٥	المبحث الأول: الأسباب العامة
٣١٦	المطلب الأول: مكائد إبليس أخزاه الله
٣٢٤	المطلب الثاني: الجهل وضعف البصيرة
٣٢٦	المطلب الثالث: الهوى المتبع
٣٢٧	المبحث الثاني: الأسباب الخاصة
٣٢٨	المطلب الأول: أسباب مرض الشبهات
٣٢٨	أولاً: الفهم الفاسد
٣٣١	ثانياً: النقل الكاذب
٣٣٤	المطلب الثاني: أسباب مرض الشهوات
٣٣٤	أولاً: الإفراط فيما أبيح من الشهوات
٣٣٧	ثانياً: عدم حفظ الجوارح عما حرم الله
٣٤٠	الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة أمراض القلب
٣٤١	تمهيد
	المبحث الأول: غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة
٣٤٢	في القلوب
	أولاً: توجيه القلب البشرى إلى معرفة الله
٣٤٢	جل وعلا بأسمائه وصفاته
	ثانياً: توجيه القلب البشرى المريض إلى النظر
٣٤٣	في آيات الله الشرعية
	ثالثاً: توجيه القلب البشرى المريض إلى النظر
٣٤٧	آيات الله الكونية والنفسية
	رابعاً: توجيه القلب المريض إلى النظر في آيات
٣٥١	الله التاريخية

الصفحة	الموضوع
	المبحث الثاني: الدعوة إلى الشمول والتوازن في حياة المسلم
٣٥٦	
	المبحث الثالث: التربية القرآنية للقلب عن طريق الترغيب والترهيب
٣٦١	
	الطريق الأول: الحديث عن أسباب مرض القلب وذن مرضى القلوب وذكر ما تجلبه هذه الأمراض من مصائب ونكبات في الدنيا والآخرة
٣٦١	
	الطريق الثاني: الحديث عن القلب السليم بذكر أسباب سلامته وما أعد لأصحابه من الخير في الدنيا والآخرة
٣٦٥	
٣٦٨	المبحث الرابع: التربية بالقدوة وضرب المثل
٣٧٤	الباب الثالث: حديث القرآن عن القلب الميت
٣٧٥	الفصل الثالث: أوصاف القلب الميت
٣٧٦	المبحث الأول: الزيف
٣٨٠	المبحث الثاني: النفاق
٣٨٣	المبحث الثالث: الريب
٣٨٥	المبحث الرابع: الإنكار
٣٨٦	المبحث الخامس: الاشتمزاز من ذكر الله عز وجل
٣٨٨	المبحث السادس: الرعب
٣٩٠	المبحث السابع: التحسر
٣٩٣	المبحث الثامن: النجاسة
٣٩٥	المبحث التاسع: التشتت
	المبحث العاشر: الطبع والختم والرين والكن والقفل
٣٩٧	والتغليف

الصفحة

الموضوع

٣٩٧

أولاً: الطبع

٣٩٨

ثانياً: الختم

٤٠١

ثالثاً: الرين

٤٠٢

رابعاً: الكن

٤٠٤

خامساً: القفل

٤٠٦

سادساً: التغليف

٤٠٨

المبحث الحادي عشر: القسوة

٤١٢

المبحث الثاني عشر: العمى

٤١٥

المبحث الثالث عشر: الغفلة

٤٢٠

المبحث الرابع عشر: الكبر

٤٢٤

المبحث الخامس عشر: الغل للمؤمنين

٤٢٧

الفصل الثاني: أسباب موت القلب

٤٢٨

تمهيد

٤٣٠

المبحث الأول: الكفر

٤٣٥

المبحث الثاني: الزيف

٤٣٨

المبحث الثالث: الجهل وعدم الفقه

٤٤١

المبحث الرابع: إخلاف وعد الله عز وجل

٤٤٣

المبحث الخامس: الكبر

٤٤٤

المبحث السادس: اتباع الهوى

٤٤٦

الفصل الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة القلب الميت

٤٤٧

تمهيد

المبحث الأول: غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في

٤٤٨

القلوب

أولاً: توجيه القلب الميت إلى معرفة الله جل وعلا

٤٤٨

بأسمائه وصفاته

الصفحة

الموضوع

٤٥٠	ثانياً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله الكونية والنفسية
٤٥١	رابعاً: توجيه القلب الميت إلى النظر في آيات الله التاريخية
٤٥٢	المبحث الثاني: العلاج عن طريق الترغيب والترهيب الطريق الأول: الحديث عن القلب الميت وذكر أسباب موته وبيان ما يوصل إليه موت القلب من العذاب الدنيوي والأخروي
٤٥٣	الطريق الثاني: الحديث عن القلب الحي وذكر أسباب حياته وسلامته وبيان ما يناله أصحابه من النعم الدنيوي والأخروي
٤٥٤	المبحث الثالث: العلاج بضرب المثل
٤٥٦	المبحث الرابع: التأثير على القلب الميت عن طريق الإعجاز القرآني
٤٦٠	المبحث الخامس: الدعوة إلى إحياء القلوب الميتة بالرجوع إلى الله عز وجل والبخارة بإمكانية ذلك
٤٦٣	الخاتمة
٤٦٦	فهرس الفهارس
٤٦٧	فهرس الآيات
٤٨٧	فهرس الأحاديث
٤٩٤	فهرس الآثار
٤٩٨	فهرس الأشعار
٤٩٩	فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة في الهامش
٥٠٢	فهرس الأعلام المترجمين
٥٠٧	فهرس المراجع
٥٢٣	فهرس الموضوعات